


مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

العدد الثامن ـ السنة التاسعة ـ صفر 1386 ـ جوان 1966

في هذا العدد

صفحة

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

ثمن العدد درهم واحد

العدد الثامن
السنة التاسعة
صفر 1386
جوان 1966
ثمن العدد
درهم واحد

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ؛ والشرفي 30 درهما فاكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حساب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« دعوة الحق » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

دراسات اسلامية



ـ 1 ـ

كانت وفاة الأستاذ امين الخولي في اذار (مارس) من هذا العام حادثا جللا في تاريخ الفكر الاسلامي المعاصر .. ذلك ان امين الخولي لم يكن انسانا له دعوة في الحياة الادبية ، هي هذه الدعوة التي تمثلها حركة (الامناء) وفكرتهم .. ولم يكن استاذا في كلية الآداب من جامعة القاهرة في الرعيل الاول من اساتذة الجامعة يوم كانت تقف وحدها في الوطن العربي كله تجتذب اليها الدارسين وتخرجهم فيشترك في التعاون على تخريجهم امثال الاستاذ العميد الدكتور طه حسين ـ مد الله في عمره ـ وامثال الاساتذة المرحومين : احمد امين وعبد الحميد العبادي وابراهيم مصطفى وعبد الوهاب عزام .. ولم يكن امين الخولي مفكرا من هؤلاء المفكرين الذين ربوا اجيالا متعاقبة وتركوا فيها اقوى الاثر .. لم يكن كل ذلك فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك وقبل ذلك انسانا مسلما له في النظر الى الاسلام وجهة ، وعنده في تفسير القرآن الكريم مذهب ، وفي معالجة القضايا الاسلامية رأي وفي مواجهة تحديات العصر الحاضر للاسلام موقف .. وكان له في الثقافة الاسلامية ما يتصل منها بالتفسير وما يتصل بالادب والنحو والبلاغة انظار وافكار جديرة كلها بالجمع والاستقصاء والدراسة حتى يكون امام الجيل الحاضر صورة من جهد الجيل الذي مضى واجتهاده ، وحتى لا تنقطع الصلة بين هذه الاجيال المتعاقبة فلا يبدا كل جيل عمله من النقطة الاولى مهملا تجارب الاجيال السابقة ومعاناتها ، والاستفادة مما تحقق لها من هذه التجارب والمعاناة .

ـ 2 ـ

ولست املك ـ وانا بعيد عن اوراقي ومكتبتي ـ ان اتحدث عن كل ذلك او بعض ذلك .. ولكنني احب ان اقف هنا عند ناحية واحدة مما يتصل بدعوة الحق ، وتلك هي تفسيره للاسلام هذا التفسير المتزن السليم ، عن طريق تاكيد المثالية العريضة التي له الى جانب الواقعية الواضحة فيه

ولست لاشير هنا الى ابحاث بعينها ، ولا الى كتب بذواتها .. وذلك لان ابرز ما يميز امين الخولي انه لم يكن يعنى بالتاليف على النحو الذي يجعل منه مهنة يمتهنها .. وانما كان يعنى بشيئين اساسين : اولهما المنهج ، والاخر البحث .. ولذلك كان اعظم دعوته في اكثر مراحل حياته ـ باستثناء السنوات العشرين الاخيرة ـ تاكيدا على المنهج ودعوة له .. منهج التفسير مثلا ، ومنهج في دراسة الادب ، ومنهج في احياء التراث .. وله في ذلك دعوات صارخة .. ومواقف حادة عنيفة ، ولكنها تمثل الذروة من الاخلاص للعلم ومن التجرد في سبيله ، ومن اخذ النفس في مجالات البحث والتاليف باوفق الاسباب التي تربط بينها وبين المنطق، وبينها وبين الصواب ، حتى تاتي دراسات الدارسين بعيدة عن الانحراف ، وحتى تتجدد دراسات الدارسين للثقافة الاسلامية فلا يلازمها احد هذين الدائين العضالين: داء التبديد او داء التجميد .

ومن هنا كان يتميز الاستاذ الخولي انه لم يكن موَلفا ـ اريد انه لم يكن يمتهن التاليف .. ولكنه كان باحثا اقتصر ـ في المراحل الاولى ـ على ابحاث ولم يجاوزها الى كتب ، وعلى مناهج رسم طريق تطبيقها ، ولكنه لم يقم هو بهذا التطبيق وانما ترك للذين يعملون معه في حقل الدراسات العليا ان يجهدوا ـ ان شاءوا ـ وفقا لها . ونفخ فيهم في ذلك من روحه، فكانت هذه الثروة من رسائل الماجستير والدكتوراه التي هي اليوم بعض عدة الباحثين في نطاق دراساتنا الادبية وثقافتنا الاسلامية .

ولهذا فانا لا احب ان اشير في هذا المقال الى كتاب بعينه للاستاذ الخولي او بحث بذاته وانما اريد ان اتحدث عن هذا الجانب الذي اشرق من فكرته الاسلامية بما في ذاكرتي عنه من خلال تلمذتي عليه وصلتي به ، اجزل الله له الثواب ، وضاعف الرحمات .

ـ 3 ـ

وقد كان من ابرز ذلك عند استاذنا المرحوم اصراره على ان يرتفع بالاسلام عن الزج به في نطاق الدعوات القائمة والباسه لبوس الافكار السائدة ومحاولة تكييفه تكييفا متصلا بما يذيع ويشيع بين يوم ويوم من آراء ومذاهب ، تجعل اصحابه والموَمنين به يعيشون في شيء من فوضى الفكر وقلق التفكير حين يرون انهم في الاسلام كل يوم امام لبوس له ، او تفسير فيه ، او تكييف له على نحو من الانحاء وفي صورة من الصور .

ومن الواضح ان الاسلام في هذا العصر الحديث عانى شيئا من ذلك او كثيرا من ذلك .. واتجه به عديد من المفكرين ومن المفسرين هذه الوجهة او تلك . وكان بعض ذلك عن قصد كريم ونية طيبة وبراءة بريئة لا شك فيها ، كهذه المحاولات التي نجدها عند المرحوم طنطاوي جوهري في تفسيره او عند امثاله من الباحثين .. وكان بعض ذلك مبيتا له او مدفوعا اليه ، كهذه المحاولات التي نجدها في بعض الكتب والآراء التي ارادت ان تجتذب الاسلام او المسلمين الى هذه الوجهة او تلك في ظروف الحربين العالميتين ، والحرب العالمية الثانية بخاصة ، وان تفيض على الاسلام هذا اللون او ذاك .. ودع عنك الكثير مما وراء ذلك في نطاق الدراسات والآراء الموزعة الاخرى في العلم حينا وفي الفلسفة او القانون او الاجتماع حينا آخر

ـ 4 ـ

امام هذا الذي يوشك ان يكون بحرانا او كالبحران ـ على ما كان من اثره في اثارة الفكر الاسلامي وتحريكه ـ كان لا بد من ردود فعل مختلفات ، يستطيع الباحث ان يتوقف عند اثنين رئيسين منها :

اما احدهما فهذا الذي حاول اصحابه ان يبتعدوا بالاسلام عن كل ذلك ، وان يفصلوا بينه وبين كل ذلك ، وان يدفعوا به الى هذا الزاوية او تلك ، يشهد ولا يشارك ، ويرى ولا يتحرك ، ويسمع ولا يقول ، وتمر من امامه احداث الحياة المتضخمة وتطورات الفكر الكبرى فلا يكون له من ذلك شيء الا ان يعاصرها معاصرة قائمة على الحياد ، ولكنه حياد سلبي السمات بكل ما في السلبية من معنى

ان هوَلاء ارادوا من حيث يشعرون او لا يشعرون ان ينتهوا ، او انتهوا بالاسلام الى شيء من التحفيظ .. اضفوا عليه اطيب النعوت ، ولكنهم كفنوه . وكانما قنعوا ان يكون تراثا او كالتراث ، خيارهم يعتز به ولكنه لا يحيا به ، وشرارهم يرى منه ما يرى في حدث من احداث التاريخ مضى ولكنه لا يستمر ، ولذلك كان اصحاب هوَلاء الاتجاه حريصين على المباعدة بين الاسلام وبين كل تفتحات الذهن البشري ، وتطلعات الحياة الانسانية ، وتقدم الحياة بالناس في مواكب الحضارة ومعارج الرقي

وما احب ان اسمي بعض اصحاب هذا الاتجاه او اشير اليهم فالذين يتبعون الفكر الاسلامي المعاصر يعرفونهم من مقالاتهم وبحوثهم .. والكثرة الغالبة منهم لا تصرح بذلك ولا تفصح عنه ولكنها تتصرف وفاقا له ، وتكتب ما تكتب وتوَلف ما توَلف ، وتدعو الى ما تدعو انسياقا وتقيدا به .

ـ 5 ـ

واما رد الفعل الآخر فهو الذي اراد ان يضع الاسلام موضعه الحق .. لم يصرفه في هذه الوجهة او تلك ، ولم يترك لهذه الوجهات الاخرى ان تتصرف به .. لم يجعل منه كما يكون رقاص الساعة ، ينوس هنا وينوس هناك ، حتى ليحار معه النظر .. وانما جعل من البوصلة الهادية ، هي التي تعين الوجهة ، وهي التي تدل على الطريق ، وهي التي تربط بيننا وبين النجمة الهادية .. ان الاتجاهات الاخرى كلها انما تتعين بها وتتساق معها ، وبها كذلك تتحدد

من هؤلاء ، اعني الذين ارادوا للاسلام في نفوس اصحابه واتباعه ان يكون العنصر الفاعل في الافكار والاحداث ، لا العنصر المنفعل ـ كان الاستاذ المرحوم امين الخولي .

ـ 6 ـ

عند الاستاذ الخولي ان في الاسلام هذين المحورين: الواقعية والمثالية .. فيه هذه الواقعية التي واجه بها العرب حين دعاهم اليهم ، وواجه بها العالم حين بسط عليه الظل .. وفيه هذه المثالية التي يلتقي بها الانسانية في تطورها والحياة في سيرها مع موكب الزمن نحو الافضل والاكمل .

ان واقعية الاسلام تتمثل في وقوفه عند ابسط القضايا في الحياة العربية ومعالجته لها .. ولكنها ليست الوقفة الضيقة ولا المعالجة القاصرة ، وانما هي معالجة ممدودة الافاق في القضايا المحدودة الافاق ، تواجه الواقع ثم هي في الوقت ذاته تضع القاعدة الاصيلة لمواجهة المواقف الاخرى المماثلة لها او المنبثقة عنها او التي هي من بعض مضاعفاتها .

وان مثالية الاسلام تتضح في انه مفتوح النوافذ على كل ما في واقع الحياة وما في نفوس الاحياء .. يتسع ليتقبل ما يتجدد هنا وهناك .. اعني انه يتسع لكل سليم صحيح نظيف من ذلك .. بل انه يكون وراء هذا التجديد عند الذين يفهمونه فيحسنون الفهم ، ويأخذون به فيحسنون الاخذ .. وحين تستطيع التجربة الانسانية ان تتجاوز دورها الطفولي ، وحين تتخلص من ان تكون تهويما او حدسا محفوفا بالضباب لتكون في مستوى التجربة الصالحة الخيرة ، فانها ستجد في الاسلام ، بحكم مثاليته هذه ، تلاقيا بها بل انها لتجد توافقا معها، بل انها لتجد فيه دفعا لها وتجد منه دافعا عليها .

ـ 7 ـ

ومن هنا انتهى الاستاذ الخولي الى ان الذي في الاسلام انما هو الاسلام .. ليس فيه مذهبية واحدة محددة من هذه المذهبيات التي شاعت او التي اخذت تشيع في حياة الناس وافكارهم .. وليس فيه هذا الخط المتحجر الذي يوهمك ان لا خط سواه ، والفكرة التي تزيف لك ان ليس وراءها فكرة .. وانما الذي في الاسلام انما هو الاسلام نفسه .. اعني هذه المثالية السليمة الصحيحة فيه الى جانب الواقعية الصارخة .. وبين مثالية وواقعية هذا التطابق دائما بين ما في الانسان من وجود وما فيه من تطلع .. بين ما فيه ايضا من واقع وما فيه من مثل ، بين ما يشده الى الارض وما يرتفع به الى السماء .

وانا لا ازال اذكر في ذلك ما كان بينه وبين نفر من طلابه كان يتحدث اليهم .. انه ليفصلني عن هذا الحديث نحو من عشرين سنة او تزيد .. ولكن الموقف يرتسم امامي اللحظة وكأنه ابن الامس .. غرفة من غرف كلية الاداب وخليط من الطلاب والدارسين والمستمعين ، والاستاذ القوي الروح ، النافذ النظرة ، الجهير الصوت ، المتدفق ، صاحب الجبة والقفطان والعمامة بكل ما يكسوه من اناقة انيقة ونظافة نظيفة يتحدث اليهم بملء قلبه وبملء فمه ويهدر في حديثه هدير الموج من غير توقف ليقول لهم عن هذه القدرة البارعة التي للاسلام في جمعه بين الواقعية والمثالية ، وتصرفه في المواءمة بينهما ، في اسلوب تمثيلي واضح : ان الاسلام لم يضع ابدا ، وفي القضايا الاجتماعية بخاصة ، الحائط الرابع .. انه بنى او خطط الحيطان الثلاثة ، ولكنه ترك للحياة والناس والمجتمعات ان تقيم الحائط الرابع على النحو الذي تراه .. ان الحائط الرابع هو التعبير عن الجزء الذي ترتسم عليه عناصر الجدة وتعكس فيه .. انه مرتكز ومنطلق ومنعكس كذلك لكل ما يكون في الحياة والمجتمع من احداث وافكار .

ـ 8 ـ

ان هذه النظرة الى الاسلام قد لا تكون جديدة الجدة كلها .. ولكنها في منطق العصر الذي نعيش فيه، وفي اعقاب التطورات التي اصابت العالم والعالم الاسلامي ، وفي الصورة التي اتخذتها ـ فكرة جديدة .. ابرز عناصر جدتها ان صاحبها لم يسقها هذا المساق العاطفي ، وانما وضع ركيزتها في منهج للتفسير ، وددت لو تحدثت عنه ، ولكن ذلك يقتضيني مجالا اخر .. وحسبي ان ادل القارىء على المنهج وعلى التطبيق .. اما المنهج ففي كتاب (مناهج تجديد) واما التطبيق ففي كتاب : (من هدي القرءان في اموالهم) .

وارجو ان اجد الفرصة مرة اخرى فأتحدث هذا الحديث الذي اخرت .

الدكتور شكري فيصل

عبقرية الاسلام في المغرب

للأستاذ : الحسن السائح

لقد عمل الاسلام على تطوير الفكر الانساني باخراجه من مرحلة التعلق بالقبلية والعنصرية ، والارض ، الى مرحلة التعلق بالفكرة والمبدأ ، وهكذا اصبح الاطار الجغرافي ثانويا بالنسبة للشعوب المنضوية تحت لوائه ، اذ اصبح عليها ان تواجه الحياة على اساس الاخوة والتعاون الانساني لتحقيق خير الفرد والجماعة بدل التعلق بالعصبيات المناصرة للظالم او المظلوم على السواء ، او التعلق بالارض ومعاداة الانسان لاخيه على اشبار منها ، وليس معنى هذا ان الاسلام تخلى عن الوطنية او السلالية ، وانما عمل بمبدئه في (الاعتدال) فاقر الوطنية في التعلق باطارها الجغرافي غير المصطنع الذي يولد فوارق خاصة ، مع اعتبار الجوار والصلات الامية بالارض ، واقر السلالية في التعلق بالارحام والعشيرة ونبذ العصبية الجاهلية المثلة في الجهاز القبلي المبني على فوارق الجنس ، ونصرة الاخ ظالما او مظلوما ، وجعل القاسم المشترك بين الافراد والجماعات في مجموعة من تعاليمه الانسانية السامية .

وقد كان استعداد الفكر السامي قويا لهذه التعاليم بما ظهر فيه من الانبياء ذوي الدعوات الانسانية الخالصة ، حتى اذا جاء الاسلام اقر نهاية المطاف في نكران اللونية والاقليمية والعنصرية واعطاء قيمة الانسان في قوة تقواه ، وقيمة الامة في تلاحم افرادها على اساس وحدة المبادىء والتعاليم والمصالح والعواطف .

ولقد واجه الاسلام يوم ميلاده عالما منحرفا ، فتصدى لمقاومة المجوسية والوثنية في الشرق ولمقاومة المسيحية المحرفة ، والطغيان الاقطاعي في الغرب ، وبذلك واجه قوتين مسلحتين ماديا وادبيا ، ماديا بالعتاد ، وادبيا بفلسفات قديمة ، فقد كانت هناك سيطرة المرازبة في الشرق وسيطرة الرهبان في الغرب يقودان الامم الغافلة لمصالح المنتهزين .

وكان رد هؤلاء في اول الامر قويا ثم لم يلبث ان ضعفت حجته ، وقل انصاره ، فاستسلم ، ولكنه عاود الكرة من جديد ، لا في مواجهة الاسلام ، ولكن في تصميم الفكر الاسلامي وتحريف الكلم عن مواضعه ولكن الاسلام بفضل تعاليمه اثر في الفكر المسيحي فظهر (لوثر) (وكالفين) (وديكارت) لانقاذ الغرب من التثليث والعصمة البابوية ، وفي غمرة التبادل الفكري تسربت اراء مغرضة الى الفكر الاسلامي ففتت وحدة العالم الاسلامي واوهنت قواه ، ولولا الاعتصام بالقرآن الكريم الذي كان المناعة الاولى والاخيرة لحفظ الاسلام (وتلك معجزة عظمى) ، لشوهت كثير من حقائق الاسلام ومبادئه

وكان من السهل ان يستجيب كل انسان لتعاليم الاسلام لنزعتها الانسانية وتفتحها ، لذلك سارعت الامة المغربية الى اعتناق الدين الاسلامي والتأثر المطلق بتعاليمه والفناء الكلي في دعوته ، حيث وجدت فيه مخلصها من حيرتها ، وتفرق وحدتها ، فقد عاش المغرب قرونا باحثا عن وحدته التي لم يجد محتواها واصولها حتى جاء الاسلام ، فقد حاول من قبل (سيفاكس) (وماسينيسه) (وجوكورطا) ان يقروا للمغرب وحدة

جغرافية في نوميديا ولكنها ظلت في اطار جغرافي تنقصها لحمة المبدا والتعاليم ولذلك كانت تنحل بسرعة امام المغيرين الاقوياء ، غير ان وضع المغرب تغير عند ما وصل عقبة بن نافع الى افريقيا سنة 42 هـ ثم عاد اليها ثانية سنة 50 فاسس القيروان ، وانطلق الى الداخل يحمل الاسلام الى اقصى المغرب في جنود من العرب وهم من ارومة واحدة مع البربر الذين وجدهم بالبلاد (حسب رأي اغلب علماء النسب) وحتى اذا لم نعتبر راي الاغلبية فان العرب الذين جاءوا للمغرب امتزجوا بالبربر بالتوالد والمصاهرة والوحدة الدينية واللغوية ، فاصبحت لغة القران هي اللغة المعبرة عن الفكر كما لاحظ ذلك كثير من المؤرخين ، ومن جملتهم (جوتي) في كتابه عصور المغرب الغامضة ، وبذلك امتزج العنصر البربري بالعنصر العربي امتزاجا يستحيل معه الانفصال.

ولا شك ان الحضارة البونيقية كانت ممهدة لهذا التمازج العريق بين البربر والعرب، وزادت في تركيز الوحدة المغربية بثورات الخوارج التي اعطت في معناها استجابة لدعوة الاسلام في صورته الديمقراطية الحق فركزت احزابها المتعددة الاسلام في انحاء المغرب النائية

لقد استجابت البلاد المغربية لتعاليم الاسلام استجابة نموذجية كاملة فانصهر الفرد المغربي في المبدأ الاسلامي كما انصهرت الجماعة في تعاليمه الحقة واخذت نفسها بالشدة لتطمئن نفسها اطمئنانا كبيرا على الاستجابة الباطنية والظاهرية لتعاليم الاسلام في مختلف الميادين ، فعلى الصعيد العسكري ، حملوا الدعوة شمالا الى الغرب المسيحي حتى اوقفتهم جيوش شارل مارتيل ، وجنوبا الى بلاد السودان ومالي وباقي بلاد افريقيا السوداء الجنوبية .

وعلى الصعيد السياسي ، استجابوا لدعوة الوحدة وبلوروها في عصور الازدهار في اطار جغرافي يشمل المغرب العربي والاندلس المسلمة . اما في ميدان الفكر فقد التزموا في ذلك كله لخدمة الاسلام وتوضيح اهدافه وشرح تعاليمه فلسفيا وفقهيا وادبيا واخذوا تعاليمه عن ائمة المذاهب الاسلامية المعروفة بحرفيتها وتمسكها بالنص ، كالمذهب المالكي (في الفقه) وقراءة « ورش » في التجويد و (الاشعرية) في العقائد، ولعل من العسير ان نلمع الى رجال الفكر الاسلامي في المغرب الذين جندوا انفسهم لخدمة العقيدة السمحة وشرح مبادئها نظرا لوفرتهم ، وانما نذكر بعض اسماء لامعة كنصب يهتدى بها فنذكر منهم يحيى الليثي ، والباجي ، وابن الطفيل ، وابن باجة ، وابن العربي ، والقاضي عياض ، وابن القطان ، وابن عربي ، وابن الخطيب ، وابن خلدون ، والامام زروق ، والشادلي ، والمقري ، وجنون ، وابا شعيب الدكالي ، وغيرهم كثير وكما ظلوا المعلمين الاولين محركي الفكر الاسلامي وسدنته ، فقد ظلوا كذلك في ميدان السياسة سدنة وحدة الامة الاسلامية فلم ينفصلوا عن الخلافة منذ عهد المرابطين ، ودافعوا عن الاندلس والشام يوم تسلط عليها المسيحيون في حروبهم الصليبية في عهد ابن تاشفين والمنصور الموحدي ، وطهروا الشواطىء المغربية في عهد المولى اسماعيل ، وحتى الى قرون متاخرة لم يعرفوا بجانب جيرانهم حدودا ، وانما خلق المستعمرون بعد استيلائهم على الجزائر حدودا مصطنعة وكان من مكر الاستعمار ان تكون هناك حروب مستمرة بين المغرب والجزائر رغبة من المستعمرين في تزويد القاتنين بالمال لشراء الاسلحة التي تخلق حربا بين عديد من القبائل المجاورة للحدود الجزائرية المغربية لتستمر لعبة السياسة المالية ، وفقدان الامن ، وقد اكدت السياسة البريطانية ان اثارة القبائل على الحدود الجزائرية اصبح امرا عاديا ، واستمر العمل به جزءا من سياسة السلطة الفرنسية في الجزائر مما اضطر السلطان المولى عبد العزيز ان يوجه رسالة شخصية الى الملكة (فيكتوريا) لتتدخل باقناع الحكومة الفرنسية بوجوب تعيين الحد النهائي بين المغرب والجزائر بحيث تتعهد ان لا تتعهداه ، وكان (دلكاسية) هو العامل الاكبر في هذا الميدان رغم معارضة (جان جوريس) الذي كان يرى ان قضية الحدود بين المغرب والجزائر صنعتها سياسة مغرضة ، وفعلا هدأت الازمة عند ما استولت فرنسا على المغربين والتزامات المغرب الاسلامية جعلته اخر معقل لحماية الاسلام حيث بقي يعين المماليك الاسلامية منذ عهد صلاح الدين الايوبي الى عهد انهيار غرناطة وكانت معركة وادي المخازن اخر انتصار عسكري حققه ضد الحروب الصليبية ، وظل مع ذلك

عونا لكل صرخة اسلامية فهب يدافع عن احتلال الجزائر متكبدا خسائر في معركة اسلي .

وظل المغرب في ميدان الفكر يؤثر على تطوير وتحرير العقل الغربي بانتاج علمائه حيث اهتمت جامعات اوربا بدراسة تعاليم ابن رشد وابن الطفيل واراء الادريسي والوزاني الفاسي وغيرهم . فاستفاد الفكر الغربي من اراء الاسلام التحريرية التي على اساسها تطور علميا واجتماعيا وانتصب يواجه العالم الاسلامي في تحد ظالم ، حيث القاه مع كامل الاسف يتخبط افكار سلبية وصوفية انسلامية مكنت للغرب من التفوق عليه في ميدان العلم ، حتى اذا اذنت القرون الوسطى بالانتهاء كان المغرب يواجه خصما عنيدا لا طاقة له به ، ومع ذلك فقد ناضل في عناد عسكري قوي وسياسي وظل محتفظا بمكانته وذاتيته ، كما ظل مجنا لافريقيا كلها يقيها شر التسلط والنهم الغربي الذي كفر بالمذاهب الروحية وامن بالمدية ايمانا مطلقا .

ولم يكن المغرب المسلم يشعر باي خطر ، وهو يقاوم خصوم عقيدته التقليديين ، ولكنه احس بالخطر عند ما وضع الغرب سلاح الحديد والنار ، واخذ يصدر اليه بضائع الفكر المادي الملحد المتفسخ ، ذلك ان الغرب كان من جهته مفتتنا بالعلم (التجريبي) افتتانا غريبا تولد عن ضغط الكنيسة واستغلالها للامة المسيحية، فكان الفكر الاوربي يرى في الكنيسة عدوا استغله قرونا طوالا فشنها حربا على الدين ، ليحطم قوتها ويقلم اظفارها ، لذلك كان في هجومه على الديانات متعصبا حادا عنيفا ينتقد المذاهب الروحية التي تبنتها الكنيسة واعطت لنفسها وحدها مسؤولية الرحمة الالهية ومفاتيح ابواب الجنان ، فسلط الفكر الغربي الحر نقده العنيف على الدين الاسلامي باعتباره دينا من الاديان كما يتصور الفكر الغربي مفهوم الدين عموما كعائق عن التطور ، ومن الغريب ان يكون الفكر الغربي الحر في حملته العشواء على الثقافة الاسلامية يؤازر الكنيسة في حملتها التبشيرية ضد الاسلام ويوافقها على نشر المسيحية في افريقيا فيفسح لها المجال ماديا وادبيا باعتبارها الرائد الاول للاستعمار او منقذة افريقيا من الاسلام الذي يحول دون تسربـــه .

ولا شك ان حضارة الغرب الحديث تعتمد على اسس مادية ، اما من نوع الاتجاه الميكانيكي الدهري الذي ينكر الروحية اصلا ، او من نوع الاتجاه المادي الديالكتي الذي يرى الروح والعقل تابعين للمادة ، فاذا فنيت المادة فنيا معا .. وكلا النوعين يحاربان الدين ونظرياته من اساسها ، بل يعاديانها عداوة لا سبيل معها للمفاهمة والتصالح ، ولذلك فقد حملت الينا (المدرسة الغربية) مسلمات الفكر الغربي في حربه ضد (المسيحية) على انها ضد كل دين ولو كان مباينا للمسيحية كالاسلام، واثر كثير من رجال الفكر الغربي من المبشرين وبعض المستشرقين في نقدهم للثقافة الاسلامية ومقارنتها بالمسيحية على كثير من النظريات الجوهرية في الفكر الاسلامي ، فنادى بعض المفكرين المسلمين بفصل الدين عن الدولة ، وسخر كثير من البسطاء اقلامهم للدفاع عن هذه الفكرة ، واستغلوا وضع الاسلام المنهوك القوى ، ونزاع العثمانيين العنصري مع العرب وتوجوا جهاد القرون الوسطى في محاربة الاسلام بازالة الخلافة باعتبارها مظهرا من الاستعمار التركي للعرب حيث انحرف العثمانيون انفسهم عن مبدأ الخلافة وعن جوهرها ومحورها كما حملوا الى افريقيا واسيا فكرة الوطنية الضيقة ، فقسموا الامم والشعوب وفق وطنية المستعمرين لا وفق الاسس الجغرافية والتاريخية واللغوية والمصالح المادية ، فلم يعرف العالم الاسلامي الوطنية الا عن طريق الاستعمار الذي فهم وحدة الامة بناء على مصالحه هو ، لا على مصالحها .

ونظموا في كل بلاد اسلامية خضعت لسيطرتهم معاهد عليا للدراسات الاسلامية واللغوية ، كان همها ان تفهم الامة وفق تخطيط الاتجاه الاستعماري لا وفق اتجاه مصالحها ، فمن المالوف في كل الجامعات ان تخصص معاهد عليا للبحث عن حضارة الامة وتخطيط التقدم العلمي بمستقبلها ، وعلى هذا الاساس فالعلم يوجه لخدمة الامة نفسها لا لخدمة مستعمريها ، ولكن الغرب عكس ذلك لصالحه على حساب الحضارة الاسلامية .

وكان من نتائج ذلك ان امتحنت الثقافة الاسلامية والعربية على يد خصومها الذي كتبوا تاريخها باقلام مغرضة وتوجيه خاص ، وبذلك وصفوا فلسفتها بالعقم ، وادبها بالجمود ، وفقهها بالتخلف ، ودرسوا القران

موضوعيا ككتاب تاريخي لا كوحي من عند الله لتوجيه المسلمين والناس كافة ، ومن الغريب ان معظم الذين تولوا ذلك من دعاة التجديد وقادة الفكر في العالم الاسلامي

وبجانب هذا التوجيه المنحرف بالنسبة للثقافة الاسلامية ظهر فكر حر يغترف من ينابيع الحادية الغرب فينكر المذاهب الروحية والديانات السماوية سواء الممثلة في الجماعة الاسلامية او الاتجاهات الكتليكية اسوة بالمادية الغربية التي لاتقر الا العلم التجريبي اما المذاهب الروحية فهي خيالات ورواسب العهود البدائية، واذا كان في الغرب ، اتجاه انساني لا يعادي الدين فقد ظهر له انصار كذلك في العالم الاسلامي اسوة بالغرب ينادون بخلق الضمير الفردي والاعتماد عليه في السمو بالفرد من غير ان يكون هنالك اثر للدين في توعية الجماعة ، ولذلك وجهوا التربية الدينية توجيها يهدف الى خلق ضمير الفرد لا ضمير الجماعة وعطلوا الدعوة الالزامية في العمل الجماعي مخالفي مبدأ الاسلام الذي يوجه طاقته للسمو بالفرد وتقوية الوعي الجماعي ، لان التربية طاقة خلاقة في الفرد ، والقانون، والفقه لحفظ مكاسبها في الجماعة .

وتجاوزت فكرة الضمير الفردي تعطيل الوعي الجماعي الى نكران مبدأ (الجهاد) بمفهومه الواسع الذي يعني حماية (الاسلام) والمسلمين ، وصد العدوان .

ولم ينجل الليل الطويل الا بعد تفويت كثير من مقومات الحضارة الاسلامية التي وقفت عن مجاراة حركة الزمان ، بينما الحضارة الغربية تسارع للسبق في مضمار تقدمها ومحاربة العقائد الدينية .

واخيرا استيقظ الفكر الاسلامي حيث وجد نفسه امام تيار مادي غربي جارف وتحد عنيف لمقاومته ، وعوائق في عالمه تتكالب عليه من كل جانب لتعطل نهضته ، فتاهل في حيرة باحثا عن الطريق ، تعوزه الامكانيات ووحدة التفكير ووضوح المصير ، ولاقى شتى المؤامرات في عقر داره ، تمنعه ان ينهض او يكسر القيد ، وعانى من ضروب المحن والتسلط ما يبلي الحضارات ويفوتها . فشك كثير من المسلمين في امكانيتهم ، وتارجح بعضهم بين احياء التراث او بداية انطلاق من جديد على اسس حضارة غربية ، وعانت اللغة تجربة وجودها وصلاحيتها ، كما عانت الحروف نفس المشكلة متارجحة بين الاستبدال بحروف اخرى او تحديرها او تغييرها

واذا اردنا ان ندرس النهضة الثقافية الاسلامية المعاصرة في المغرب فلن نستطيع مطلقا ان نغفل اثر الاحداث السياسية في هذه النهضة ، واثر النهضة في هذه الاحداث . ولهذا ساكون مضطرا ان اشير الى الاحداث البارزة التي اثرت في التفكير الديني وتفاعلت معه ، وذلك لان النكبات الاستعمارية التي تلاحقت بالشرق الاسلامي وسارعت بانحطاطه جعلت المغاربة يحتاطون كثيرا في اتصالهم بالغرب ، فاصبحوا في عزلة تامة عن التطورات الفكرية في الغرب ، حتى اذا دق ناقوس الخطر وجدنا انفسنا في تاخر داهم ، واحتجنا الى مضاعفة الجهد لخلق نهضة اسلامية ذات شخصية قوية تعتمد في ابراز جانبها الروحي واللغوي على تراث الاسلام العربي ، وفي اظهار جانبها التمدني العلمي على التطور العلمي في الغرب

ولعلنا لا نخطيء الصواب اذا جعلنا سنة 1830 اي السنة التي سقطت فيها الجزائر على يد الاستعمار الفرنسي بداية التفكير الجدي في نقد ذاتي لعزلتنا التي جرتنا الى ما حاولنا الابتعاد عنه ، فظهرت حركة اصلاحية واسعة النطاق ، على اساس سلفي في مختلف الميادين (دينيا) بتنظيم حركة سلفية على غرار ما في الشرق تحارب الطرقية التي يستغلها المستعمرون لصالحهم (وتعليميا) بايفاد بعوث الى الغرب لدراسة العلوم التقنية (وسياسيا) بالقضاء على نظام الحماية الفردية والفوضى الادارية ، والفتن الداخلية ، وقد انعكست هذه النهضة على الثقافة الذاتية انعكاسا قويا فسخرت الاقلام للاعراب عن هذه المحاولات لانقاذ المغرب من حالته المزرية

ففي خصوص التنظيم السياسي ، عمل السلطان المولى الحسن الاول والسلطان المولى عبد الحفيظ على ادخال اصلاحات مهمة في الادارة المغربية، وتحديد اختصاصات المسؤولين، واحداث وزارة منظمة للخارجية والمالية، والحد من الامتيازات الاجنبية ، واصلاح نظام الجمرك،

وظهر وزراء محنكون كالوزير موسى بن احماد ، ومحمد الجباص ، واهتمت وزارة الحربية بتنظيم الجيش وامداده بالمعدات الحربية وتدريب ضباطه بالمانيا وايطاليا وانكلترا وفرنسا ، وانشاء معمل للسلاح ، وتكوين اسطول مغربي ، وبرزت في الطبقات الواعية دعوة الى الاصلاح السياسي كالمطالبة بوضع دستور مغربي ينظم الحريات العامة ، ومجلس النواب والانتخابات وكانت بيعة السلطان المولى عبد الحفيظ سنة 1908 م 1325 هـ على اساس انقاذ المغرب من الفوضى وتنظيمه على غرار ما كان يجري في البلاد العثمانية .

وفي خصوص الاصلاح الديني برز محدثون يدعون للحركة السلفية على غرار دعوة محمد عبده وجمال الدين الافغاني والكواكبي ومحمد عبده وكان على رأس هذه الحركة علماء كبار كالفقيه محمد كنون (1302) في دروسه الدينية بجامعة القرويين ، والمؤرخ الناصري في كتاباته التاريخية ضد بدع الزوايا .

وحاولت هذه الحركة جهدها ان تحارب الفرق المبتدعة التي وزعت الامة المغربية الى طوائف ذات اتباع يتنافسون في استغلال بسطاء الفكر من الناس .

وفي خصوص اصلاح التعليم نظمت بعثات الى خارج المغرب في عهد السلطان المولى الحسن الاول وقد تخرج في المعاهد المغربية كثير من الطلاب كالاوديي وشهبون الجغرافيان والعلمي الطبيب ، ولكن معظم طلاب هذه المعاهد المغربية لم تساعدهم الظروف على نشر معارفهم وافادة امتهم ، كما كان منتظرا ، ونفقت حركة طبع الكتب بفضل المطبعة الحجرية التي ادخلها الطيب الروداني الى المغرب . فكان حافزا على نشر بعض الكتب القديمة ، وتأليف عدة كتب دراسية في مختلف العلوم وبالاخص في الموضوعات الاسلامية ، ثم ظهرت بعدها مطبعة الحروف المركبة فعززت المطبعة الحجرية ، وتولت مطابع مصرية تحت رعاية السلطان المولى عبد الحفيظ طبع عدة كتب مغربية، فتضخم الانتاج المغربي المطبوع بفضل نشاط المطبعة الحجرية التي بدأت عملها منذ عهد السلطان محمد الرابع ، وظهرت صحف توجيهية واخبارية متاثرة بدعوة (العروة الوثقى) الاصلاحية .

وكان اعلان الحماية الفرنسية في جنوب المغرب والحماية الاسبانية في شماله سنة 1912 بداية الاحتكاك المرير بين الشخصية المغربية المقاومة ، والقوات الاستعمارية التي سحقت المقاومة السياسية العسكرية النظامية بعقد الحماية في اخر عهد السلطان المولى عبد الحفيظ، وسحقت الانتفاضة الثورية العسكرية القومية العاملة في جبال الريف تحت قيادة عبد الكريم الخطابي وعدة انتفاضات اخرى في جنوب المغرب واطلسه وكشفت خطة الاستعمار عن سياسة التجزئة القانونية واللغوية بين العرب والبربر بعد الاعلان عن الظهير البربري (سنة 1930) .

وعند ذلك استجمعت الشخصية المغربية قوتها لتناضل ضد التفتت والانهيار ، وكان بعث الفكر الاسلامي السلفي هو طريق الخلاص ، فقد برزت عوامل شتى للنهوض بالامة المغربية واحياء تراثها وبعث شخصيتها، وتنظيم صفوفها ، وظهر ذلك جليا في التنظيمات السياسية والتجديدات التربوية والاصلاحات الدينية والنهضة الادبيــة

ففي التنظيم السياسي اقامت الحماية حكومة فرنسية مصغرة بجانب حكومة المخزن وذلك لتركيز النظام الاستعماري الهادف الى محو الشخصية المغربية ، وظل (نظام المخزن) يقاوم الاستعمار تحت قيادة الملك محمد الخامس الذي يعتبر اعظم شخصية وطنية مغربية، ونشأت في المغرب حركات سياسية شعبية متعلقة بالعرش منظمة تنظيما دقيقا عارضت الحماية بالقوة ونفخت في المغاربة روح العزة والكرامة ، وتبعا لذلك فقد اهتم المغاربة بالتعليم والتربية التي خضعت لثلاثة انواع (الاول) الفرنسي الذي اقام التعليم على التقنية والارتباط بحضارة الغرب ، والنوع الحر المغربي الاسلامي ، الذي قاوم الفرنسية وتفتت الشخصية المغربية والنوع الديني الذي تركز في جامعة القرويين والمعاهد الاصليــة .

وفي حركة الاصلاح الديني ظهرت دعوة العالم السلفي الشيخ ابي شعيب الدكالي الذي نشر في المغرب دعوة الحركة السلفية على غرار الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وكان عمله استمرارا لدعوة الشيخ السنوسي في عصر المولى سليمان .

الرباط : الحسن السائح



مضى من السنين ما بين سيدنا عيسى عليه السلام والبعثة المحمدية على صاحبها افضل الصلوات وازكى التسليم 622 ، طرا فى اثنائها على اتباعه ما كدر صفو تعاليم المسيح وفكك عرى الاوضاع الدينية كما شرح ذلك فى دواوين تاريخ القوم مثل كتاب « تاريخ الديانات العام » لصاحبه بيار رهم L'Histoire générale de Religions par Pierre Rehm وكتاب ماوراء الموت Après la mort par Léon Denis كما تواتر عقده من المؤتمرات الدينية على يد الاحبار والرهبان مثل مؤتمر نيقة 325 ، ومؤتمر القسطنطينية سنة 381 بلغ عددها 14 تلاعبت فيها الاراء والتأويلات قصد التوفيق بين التعاليم الدينية والتقاليد الموروثة الخطر الذي حذر منه سبحانه المسلمين حيث يقول : « الم يان للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد ، فقست قلوبهم » .

اذا حل بالقوم ما حل بعد مضي 622 سنة افلا يحق لعلمائنا واولي الامر منا ـ وصلاح الامة بصلاح علمائها وامرائها كما جاء فى الحديث ـ ان يستخرجوا العبرة مما حل باهل الكتاب من قبلنا مع الاعتراف بانصاف بان اهل الكتاب ربما كان لهم بعض العذر لان كتابهم الانجيل لم يكن من شانه ان يحفظ فى الصدور لذلك وصلت الحال بالقوم الى الحد الذي اصبحنا نقرا عنه فى كتاب تاريخ الديانات العام المتقدم ذكره ما لفظه : « ما نسميه اليوم انجيل ليس هو صدى كلام المسيح وانما هو مجموعة من الاخبار والاسانيد تولى جمعها بعض المولعين بتدوين القصص والاخبار نقلا عمن كانت لهم صلة ولو بعيدة باتباع المسيح وذلك فى اواخر القرن الاول الميلادي » وعلى الخلاف من ذلك القرآن المجيد الذي هو دستور الاسلام فان ميزته الحفظ فى الصدور كما نراه الى الان فى كافة الاقطار الاسلامية لا يخلو فيها بلد من طلبة يحفظون القرآن عن ظهر قلب .

بعد هذه المقابلة الوجيزة بين حالة اهل الكتاب والحالة التي تموج بها امتنا وانها لحالة تقرب من الحالة التي صاح فيها المسيح صيحته : « من انصاري الى الله » فى حين لا يكاد يوجد بيت من بيوتنا بدون مصحف ، والمصحف بمنزلة رسول حي ، نجد مصداق هذا فى قوله جل ذكره فى سورة الانعام : « واوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» معناه ان من بلغه القرآن فقد بلغته الدعوة وبلغه الانذار ، قال محمد ابن كعب القرطبي من بلغه القرآن فكانما راى محمدا عليه السلام وسمع منه » . وهذا اوان الكلام على المقصود من هذا المقال :

درست من العلوم الاسلامية ما يدرسه غيري من خريجي المدارس العليا فتمكن مني بعد انتهاء مدة الدراسة حب التخصص فى علوم القرآن الامر الذي ادى طبعا الى مداومة المطالعة فى التفاسير وما هو من حسابها : ابن جرير الطبري ـ وروح المعاني ـ والرازي ـ وروح البيان والرازي والكشاف ـ والشيخ عبده فما هالني الا ان عثرت فى هذا الطريق على كتاب يعزى الى ابي جعفر (1) النحاس سماه « كتاب الناسخ

1) فى الاعلام .. للزركلي ج 1 ص 199 : احمد بن اسماعيل المرادي المصري ابو جعفر النحاس مفسر اديب ... كان من نظراء نفطويه وابن الانباري ... وصنف تفسير القرآن ... وناسخ القرآن ومنسوخه الخ ... وذكر ان وفاته عام 338 هـ ـ 950 م . ثم ذكر فى التعليق مراجع الترجمة .

والمنسوخ » انفرد هذا الكتاب بميزة هي هيمنته الرواية على الدراية الى حد تعادى فيه النقل مع العقل والمنطق مع الرواية والاسانيد فعد فى الناسخ والمنسوخ حتى ما هو خارج عن دائرة الاحتمال بعد التنبيه على ان من العلماء المتأخرين من لا يقول راسا بوجود النسخ فى كتاب الله وحتى عند القائلين بوجوده فانهم لم يتجاوزوا فى عدد الاي التي من هذا القبيل تسع عشرة او عشرين كما فى كتاب الاتقان، فى علوم القرآن للسيوطي بينما وصل بها هذا النحاس الى ما يفوق المائة والثلاثين آية : ان البياض اذا اشتد صار برصا .

ادع الان الحكم الى من وفقهم الله من العلماء الى الجمع بين الرواية والدراية فيما اورده من النماذج فى هذا المقال :

افتتح هذا المؤلف قائمة الايات المنسوخة بقوله تعالى :

1» «ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » قال فى شرحها : قال قتادة هي منسوخة ، وذهب الى ان المعنى صلوا كيف شئتم فان المشرق والمغرب لله بحيث استقبلتم فثم وجه الله لا يخلو منه مكان فقال عليه الصلاة والسلام هؤلاء يهود قد استقبلوا بيتا من بيوت الله يعني بيت المقدس فصلوا اليه فصلى عليه السلام واصحابه الى بيت المقدس بضعة عشر شهرا فقالت اليهود ما اهتدى لقبلة حتى هديناه اليها فكره قولهم ورفع طرفه الى السماء فانزل تعالى قوله : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ؛ فول وجهك شطر المسجد الحرام ، نسخ به الصلاة الى بيت المقدس » .

يلاحظ على المؤلف انه لا داعي الى هذا الشرح الذي جرا اليهود الى قول ما قالوا ، بل الحقيقة التي لامراء فيها هي ان النبي (ص) كان فيما لم ينزل عليه فيه وحي بوجه عام امر ان يقتدى بمن قبله من الانبياء كما جاء فى سورة الانعام فى نصف حزب «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه بعد ان ذكر سبحانه الانبياء الثمانية عشر قال : اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » اقتدى عليه السلام بكليم الله موسى عليه السلام وبيت المقدس مدينة الانبياء من قديم ثم تشوق الى بيت ابيه ابراهيم فحقق الله رغبته وانزل عليه : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام » : لامدخل لليهود فى هذا انما فصلت المسالة بنص القرآن حقيقة لا مجازا ، على ان صلاة المسلمين الى بيت المقدس ليس فيه ايجاب قرآني حتى يقال بالنسخ الذي هو الازالة وانما يزال الشيء الموجود آية موجودة نسخت آية موجودة ولا آية هنا اوجبت التوجه الى بيت المقدس .

2» الاية الثانية : « وقوموا لله قانتين » يقول المؤلف هذه الاية ناسخة للكلام فى الصلاة ؟ الا يحق لي ان اقول له علام يتنزل النسخ هنا ان الكلام فى الصلاة لم ترد فيه آية باباحته .

3» الاية الثالثة : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » ، نسختها آية المائدة ؟ قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف .الخ اكل النظر للقاريء كيف تنسخ التوراة القرآن اية المائدة نزلت فى حق اليهود اولها : وكيف يحكمونك ، اعني اليهود ، وعندهم التوراة فيها حكم الله .. انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيئون الذين اسلموا للذين هادوا الى ان قال: وكتبنا عليهم فيها اي فى التوراة نسي المؤلف ان القرآن جاء مهيمنا اعني رقيبا على ماقبله من الكتب السماوية بنص قوله سبحانه : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ». كتاب جاء ليهيمن على الكتب ومن جملتها التوراة فكيف ينقلب مهيمنا عليه من قبل التوراة فتنسخه ، ودعني من قول من يقول : « شرع من قبلنا ، شرع لنا ما لم يرد قول بالنسخ » فان القرآن يقضي على هذه المزاعم بقوله : « لكل جعلنا منهم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم يا يهود ، ماذا فعلتم بالتوراة ، ويا نصارى ما فعلتم بالانجيل ، ويا امة محمد ما فعلتم بالقرآن .

4» الاية الرابعة : « ويسالونك عن المحيض ؟ قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ! ولا تقربوهن حتى يطهرن » يقول فيها هذا العالم بطرق الفساد ، ادخلت هذه الاية فى الناسخ والمنسوخ لانه معروف فى شريعة بني اسرائيل انهم لا يجتمعون مع الحائض فى بيت ولا ياكلون معها ولا يشربون فنسخ ذلك فى شريعتنا فامرنا رسول الله ان نواكل الحائض ونصنع كل شيء الا الجماع وما كفى صاحب الكتاب هذا التهافت حتى ذهب يجهد نفسه فى تأييده بالروايات ومتضاربات الاسانيد وكان يغنيه عن ذلك قراءة ما بعد الاية الذي هو من تمامها وذلك قوله

تعالى : « فاذا تطهرن فاتوهن من حيث امركم اللـه » وتفسيـر الواضحات من الفاضحـات .

5» «وان كان ذو عـسرة فنظرة الى ميسـرة » . فمن قال انها ناسخـة احتـج بان الانسان فى اول الاسلام كـان اذا اعسـر من دين عليه بيـع حتـى يستوفي المدين دينـه منـه فنسخ الله ذلك بقولـه: وان كان ذو عـسرة، فنظـرة . . الخ. يقال للمؤلف اين الاية التي احلت بيع المدين المعسر حتى يقال نسختهـا آية الانظار والامهال ؛ اللهم ان هذا عين الضـلال والجراة على كتـاب الله .

6» « يا ايها الذين آمنوا اذ تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه » يقول هذا المؤلف قيل نسخها قولـه تعالى: «فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذي ائتمن امانته» ـ ما اقصر نظر هذا المؤلف اي شيء منعه من الوصول الى قوله تعالى « الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوهـا ، واشهدوا اذا تبايعتم » فلو كان قرا آية الدين بتمامها واستوعـب سوابقها ولواحقها لامن العثار والاحجار التي ادمـت قدميـه .

7» «قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا» يقول المؤلف فض فوه : زعم بعض الناس ان هـذا منسوخ نسخ على لسان رسول اللـه «ص» : « لا اصمت يوما الى الليل فكان نسخا لاباحة الصمـت الذي كان فى شريعة من قبلنا وامر به زكرياء عليـه السـلام ؛ اترك التعليـق على هـذه المستغربات الـى غيـري .

8» «ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كـان فقيـرا فلياكل بالمعروف » اتبعها المؤلف : حكى بشـر ابن الوليد عن ابي يوسف لا ادري لعل هذه الاية منسوخة بقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تاكلوا اموالكـم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تـراض منكم » ثم انهمك فى سرد الاخبار ومتضارب الروايات ويـا ما كان اغنـاه عن ادماج هذه الاية اللامع معناهـا فى القرآن فى قائمة الناسخ والمنسـوخ .

9» «يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة ، وانتم سكـارى ، حتى تعلموا ما تقولون » قيل نسخها قوله تعالى : « اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكـم وايديكم الى المرافق ؟؟ معناه عند المؤلف نسخت الآية الاولى على الحقيقة بمعنى انهم كانوا نهوا عن الصلاة اذا كانوا سكـارى ثم امروا بالصلاة على كل حال ؟ فان كانوا لا يعقلون ما يقرؤون وما يفعلون فعليهم الاعاده ؛ هذا التخريج مخالف لما تناقله العلماء متأخرهم عـن متقدمهم فكان لهذا اشبه شيء بالتلاعب .

10» « الا الذين يصلون الى قوم بينكـم وبينهـم ميثاق او جـاءوكم ، حصرت صدورهم ان يقاتلوكم او يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لـسلطهم عليكـم فلقاتلوكم » قال اهل التاويل ان هذه الاية منسوخة باية القتـال !؟ يقال للمؤلف حكم هؤلاء الذين يصلون ويحتمون بقوم بيننا وبينهم ميثاق مبين اجلى بيان فى سياق الاية وهو قوله جل ذكره : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فماجعل الله لكم عليهم سبيلا » ، وعليه فلم تنسخها اية القتال التي كادت فى نظر بعض المتحمسين ان تاتي على كل ما يشتـم منـه رائحـة التـسامح الذي هو ميزة الاسلام التـي ارغمت مشاهير علماء الاروبيين على الاشادة بمفاخر الاسلام من هذه الناحية مستشرقين وغيرهم بـل وحتى البعض من رؤساء الديانة المسيحيـة يراجـع فى هذا كتـاب تاريخ العرب للعلامة ديفرجـيـر Desverger ومثله تاريخ كـستاف لوبون ، وكتـاب جولة فى الشرق للبطريق ميشـو Voyage en Orient ونص ما جاء فيه : مما يؤسف له فى حـق الـدول المسيحيـة ان التسامح الديني الذي هو قانون التراحم العام من الامم ، علمه لهم المسلمون .

11» «الطلاق مرتان» قال فيها صاحبنا مـن العلماء من قال هي ناسخة لما كانوا عليه فى الجاهلية وفى اول الاسلام يطلق الرجل امراته ما شاء مـن الطلاق فاذا كادت تحل من الطلاق راجعها ما شـاء الله. فنسخ الله ذلك بانه اذا طلقها ثلاثا لا تحل له بعد حتى تنكح زوجـا غيره وقيل هـي منسوخة بقوله : « فطلقوهن لعدتهن » وهكذا بقي المؤلف يتعثر فى هـذا الهذيـان .

12» « وهو الذي انشا جنات معروشات وغيـر معروشـات والنخل والزرع مختلفا اكله ، والزيتـون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا مـن ثمره اذا اثمر ، واتوا حقه يوم حصاده » ، قيل هي منسوخة بالزكاة المفروضـة ، وقيل بالسنة العشر ونصـف العشـر ثم اطلق ابو جعفـر العنان فى صحـراء الروايـات والتوجيهـات على عادته .

13» «يسالونك عن الانفال» اكثر العلماء يقول المؤلف على انها منسوخة بقوله تعالى : واعلموا انما غنتمم من شيء فان لله خمسه .. الخ .

14» «وان جنحوا للسلم فاجنح لها » نسخها قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » يا ليت هذا المؤلف الغريب النوع والشكل قرا الاية الاولى آية الصلح قبل ان يكتب ما كتب وهي « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله» اليس الله بكاف عبده .

15» «الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما » نسخها قوله تعالى : « وما كان المومنون لينفروا كافة » شتان بين المعنيين فى الاية الاولى والمعنيين فى الاية الثانية اراك يا ابا جعفر كثيرا ما تنسب الروايات الشاذة للكوفيين افيدك فائدة ، سئل احد الادباء «ايما افضل عندك البصرة ؟ ام الكوفة ؟ فاجاب : من يدلني على طريق البصرة اعطيه الكوفة .

16» « عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » نسخه فى زعمه « فاذا استاذنوك لبعض شأنهم ، فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله » ، يقال هنا ايضا ماشان البكاء فى دار العرس الاية الاولى فى حق من جاء فيهم : «انما يستاذنك الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الاخر ..الخ. والاية الثانية جاءت فى اصحاب الرسول اهل الشورى : « انما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستاذنوه » الى قوله « فاذا استاذنوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله » .

17» «واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين» نسخ منها الصبر بالامر بالجهاد والغلظة عليهم .

18» جاء فى سورة يوسف : « توفني مسلما والحقني بالصالحين » . نسخه قوله « ص» لا يتمنين احدكم الموت لضر نزل به . هذا من افحش الخطا ، يوسف الصديق لم يتمن الموت انما طلب عند حلول الاجل ان يلقى ربه مسلما من غير تحديد للزمان وكيف يتمنى الموت وهو الذي افاض عليه سبحانه ما افاض من نفحات العناية وخلع عليه خلعة الملك بعد ان كان منبوذا فى غيابات الجب رحماك اللهم الى اين يؤدي الجهل بمقاصد الكتاب العزيز وبصلة الرحم التي بين آياته البينات .

19» « ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » ، نسخها قوله تعالى فى سورة الاعراف : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول والغدو والاصال » ، تم استرسل على عادته فى الخبط والخلط بما لم يسبق اليه احد ممن تكلموا فى هذا الموضوع .

20» وداوود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان » ، يقول المؤلف : « ان جماعة من الكوفيين يذهبون الى ان هذا الحكم « ما هو هذا الحكم » منسوخ فان البهائم اذا افسدت زرعا فى ليل و نهار انه لا يلزم صاحبها شيء وان كان رسول الله عليه السلام حكى بغير هذا فخالفوا حكمه وزعموا انه منسوخ بقوله عليه الصلاة والسلام : العجماء جبار يعني هدر — ثم استمر الهذيان ملء صفحتين كاملتين حرمة القارىء تمنعني من ارهاقه بسماع مثل هذا الهذيان .

21» «يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على اهلها » . قيل نسختها اية « ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم » وكيف يتطرق النسخ بين الايتين ، الاولى تكلمت عن بيوت مسكونة حتى تستانسوا وتسلموا على اهلها والثانية عن بيوت غير مسكونة فلكل واحدة حكمها .

22» « واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه ، وقالوا لنا اعمالنا ، ولكم اعمالكم ، سلام عليكم » ، من العلماء من قال انها منسوخة بالنهي عن السلام على الكفار ، مثل هذا من العار ان يدرج فى حيز المنسوخات ، مجرد ذكره معصية .

23» « قال يا بني اني ارى فى المنام اني اذبحك! فانظر ماذا ترى ؟ » قيل نسخها قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » الذبح عظيم واعظم منه ادراجه فى الناسخ والمنسوخ سبحانك اللهم وبحمدك هذا بهتان عظيم .

24» « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الارض ، قال وهب بن منبه نسخها والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا خاص نسخ العام ؟

25» «فاصفح عنهم وقل : سلام ، فسوف تعلمون » نسختها آية القتال ؟

26» «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثختنتموهم فشدوا الوثاق فاما منـا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » ، منسوخـة بآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . ولا يجوز ان يقادوا ولا يمن عليهم هذيـان محمـوم لا يستحق تعليقا جوابه واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه .

27» جر هذا الحكم ذيله على قولـه تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولـم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين وانـه منسوخ بقولـه تعالـى : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » يقال لابي جعفر وماذا تفعل بقوله تعالى الذي هو من تمام الاية : «انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومـن يتولهم فاولئك هم الظالمون » الا ترى ان القـرآن جعلنا امام فريقين : فريق لا يقاتلنا في الديـن ولا اخرجونا من ديارنا ـ وفريق بالعكس ايكون الحكم فيهما سواء ونشهر السيف عن الاثنين لا فرق بيـن هذا وذاك ، اللهم ان روح الاسلام بريئة من مثل هـذا الاستهتـار .

مثل هذه الجراة والتساهل الذي ما عليـه مـن مزيـد في توسيع دائـرة القول بالنسـخ وقـع عند اهل الكتاب حذو النعل بالنعل والقـذة بالقـذة الامر الذي اوحى الي عنوان هذا المقال : « لتتبعـن سنـن من قبلكم » وشرح ذلك باختصـار ان اولـى الامر من الكنيسة لم يلبثوا الا قليلا بعد عهد نبيهـم عليه السلام والحواريين حتـى فتحـوا باب التاويـل والتوجيهات لنصوص الانجيل بدافع المصالـح المرسلة ودعوى تمهيـد السبيـل لنشر الدين وتمادوا على السيـر في هذا السبيـل الى ان الجاتهـم الضرورة الى عقد مجالس شوريـة تعرف بمجامع الاساقفـة Les Conciles من اشهرها مجمع نيقي Concile de Nicée ومجمع القسطنطينية الاول عام 325 والثاني عام 381 بلغت في مجموعها ما لا يقل عن خمسة عشر مجلسـا حاولوا فيها تنقيـح العقيدة المسيحيـة والرجوع بها الى اصولهـا .

اعيد الى الذاكرة انه كان تقدم مني مقـال ذكرت فيه نص العقيدة كما قررها مجلس نيقة وما نجم عنها من لاذع النقد من طرف مشاهير علماء القوم ومفكريهم مثل « ديدرو » و « فولتير » وليون دوني .. اتفقت آراؤهم على ان كل ما عقده الاساقفة من المجالس مـا زاد الديانة الا بعدا من تعاليم المسيـح الصحيحـة واعتماد الاساقفة في عقد ما عقدوه من المجامع هـو مـا يرويـه البعض ان سيدنا عيسى عليه السـلام من جملة ما اوصى به اتباعه هذه الكلمات : « مـا عقدتموه في الارض فهو معقود في السماء وما حللتموه في الارض فهو محلول في السمـاء » كانه انزلهم بهـذا منزلته اعني درجة العصمة . ومن اعجب واغرب مـا جاء في كتـاب تاريخ الديانات العام ، ان اول مـن قال المسيـح ابن الله هو بلـس Saint Paul من اصل يهودي يقال له صوويل ، ومن خبره انـه كان تجنس بالجنسية الرومانية فاتخذها وسيلـة وذريعة لاضطهـاد المسيحيين لكن لما فشلت محاولاته تمسح ونال من ثقة المسيحيين ما سوغ له التصريـح بان المسيح ابن الله ، حي الله القرآن العزيز الـذي حذر النصارى من دسائـس اليهـود حيث يقول في سورة المائدة : « يـا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكـم غير الحق ، ولا تتبعوا اهواء قوم ، قد ضلوا من قبـل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيـل ، لعن الذيـن كفروا من بني اسرائيـل على لسان داوود وعيسـى ابن مريم » . وفي الختـام استسمح رجال العلـم في التصريح لهم بان من طالع امثـال كتـاب النحاس واقوال ابن حزم وامثال امثاله استشف من ورائهـا اننا نمشي على حافة بوشك ، لا قدر الله ان توقعنـا فيما اخبر عليه الصلاة والسلام : لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع الخ . خصوصا اذا علمنـا ان هنـاك من يقول : القرآن ينسخ بالقرآن وبالسنـة والقيـاس والاجماع ولـست بمبالـغ ان قلت ان القائلين بهذا اشبهوا من قال فيهم سبحانـه « وقـال الذين لا يرجون لقاءنـا : ائت بقرآن غير هذا ، او بدله ولله الامر من قبل ومن بعد» .

بقي لي مع قراء « دعوة الحق » موقف آخـر اشرح فيه ان شاء الله ما وقر في صدري وتيقنت به في هذا الموضوع وكل آت قريب .

الربـاط ـ ابو العباس احمد التيجاني



للأستاذ : الراضي التهامي الهاشمي

- 5 -

تتمة لغة حمير

ـ 17 ـ « مرض » الكائنة فى الآية 32 من سورة الاحزاب ومعناها بهذه اللغة الزنا . وواضح انه لا تستقيم معنى هذه الآية الا بالدلالة الحميرية لهذه الكلمة ولقد فسرها عبد الله بن عباس بهذا المعنى الحميري وعزز ذلك ببيت الاعشى الذي جاء فيه :

حافظ الفرج راض بالتفني
ليس ممن قلبه فيه مرض (1)

ولا بد ان انبه الى ان كلمة « مرض » مقرونة بكلمة قلب كما فى هذه الآية كثيرة جدا . ولكنها لاتدل ، فى نظري على الزنا ، بل تعني فى اغلب الاحيان الشك والنفاق وضعف الايمان . ويمكن ان نؤولها بان الحق سبحانه وتعالى يمرض قلوبهم أي يضعفها . ولهذا لم تدخل ضمن الكلمات الحميرية الا هذه المفردة الموجودة فى الآية 32 من سورة الاحزاب . وغير مستبعد ان تحوم كلها حول معنى لايبعد فى مجمله عن المعنى الحميري الاصيل .

ولنمثل لذلك بآية البقرة رقم 10 التي يقول الحق سبحانه فيها : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » ويعني عز وجل فى قلوبهم ضعف ، زادهم الله ضعفا على ضعفهم .

ـ 18 ـ لفظة « مقاليد » الكائنة فى الآية 60 من سورة الزمر التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى: « له مقاليد السموات والارض والذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون» ومثلها فى الآية12 من سورة الشورى التي يقول فيها الله عز وجل : « له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم » ومعناها بلغة حمير مفاتيح .

اعتقد انه حان الآن ابداء ملاحظة هامة فعند ما نقول ان هذه المفردة هذلية او كنانية او حميرية لا نعني بذلك ، ان هذه المفردة هذلية او كنانية او حميرية لانزاع فى انتسابها الى اللغة التي ادخلناها فيها او اننا نجزم جزما قاطعا ونحمل الناس على ان يعتقدوا هذا الاعتقاد بان مفردة ما هي من لغة معينة لان عندنا حججا علمية دامغة لاتقبل ادنى شك ، وانما نريد ان نقول أن من المرجح ان هذه المفردة عرضت وانتشرت فى اللهجة الفلانية وفيها استعملت استعمالا واسعا قبل أن يتبناها القرآن فيصبغ عليها الصبغة العربية الفصيحة .

ويظهر لي انه يستحيل ـ وهذا العلم لازال فى مهده ـ لاسيما فى هذا العالم العربي ان نقول ان هذه المفردة من اصل كذا ، ونركن الى هذا القول مطمئنين ثم نغلق باب البحث والتنقيب .

وحجة ما نقول المفردة « مقاليد » التي نحن بصدد الحديث عنها ، لقد ادمجناها فى لغة حمير ، لان كثيرا من اللغويين القدماء قالوا ذلك . لكن الحقيقة هو انها استعملت فقط فى هذه اللهجة فى وقت مبكر وقبل ان تستعمل فى اللهجة القرشية ؛ فهي اذا من اصل حميري بالنسبة للهجات العربية فقط ، لا بالنسبة للغات العالم ؛ ولهذا لانقول بانها من اصل حميري اصالة .

هذه من جهة ، ومن جهة اخرى فنحن نملك الآن الحجة العلمية على انها دخيلة فيها وانها فارسية ، واذا كان السيوطي الذي اهتم بالمعرب فى القرآن اهتماما بالغا قد اغفل الاشارة الى « مقاليد » سواء فى كتابه « ما وقع فى القرآن من المعرب » الذي اسعدني الحظ فاطلعت عليه فى دمشق فى مخطوط مضاف الى المهذب الذي ينسب اليه ايضا ، أو فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن (2) الذي عنونه بـ : « فيما وقع فيه ، اي القرآن) بغير لغة العرب » اقول اذا اغفل السيوطي ذلك فقد اشار اليه الامام الزمخشري آن تعرضه

---

1) الاتقان فى علوم القرآن للامام جلال الدين السيوطي ج 1 صفحة 124 طبعة القاهرة : 1368 هجرية .
2) المصدر السابق . النوع الثامن والثلاثون صفحة 136 من الجزء الاول

لشرح مفردة « مقاليد » حيث (1) : « وقيل مقليد ويقال اقليد واقاليد والكلمة أصلها فارسية » . اما ان تكون المفردة فى الفارسية مقاليد ، فهذا غير صحيح، لاننا نعرف الآن أن كلمة مفتاح فى اللغة الاغريقية هي: [illegible] وهي فى حالة النصب وينطق بها Klidha (2) ويذهب الزمخشري ان ليس لهذه المفردة واحد من لفظها اذ انه لايعتبر الاصل الأغريقي ، والا لكان مفردها هو اقليد . لكن العلامة اسماعيل بن احمد الجوهري صادف الصواب لما ذكر فى الصحاح (3) ان مفردة مقاليد اقليد او مقلد ، أما الصيغة الاولى فهو الاصل الاغريقي ، وهو صحيح كما رايت وأما الثانية، فهي الصيغة العربية للكلمة الاغريقية الدخيلة غير أنه لم يذكر على كل حال : ان المفردة من اصل اغريقي .

هذه هي الملاحظة التي عنت لي ، وكان لابد من ابدالها قبل مواصلة البحث حتى لا يعترض علينا معترض فيما سكتنا عنه ؛ اعتقادا منا انه معروف لدى العام والخاص . زد على ذلك ان المفردة التي ندخلها فى زمرة القبيلة الحميرية مثلا ، قد ينسبها بعض العلماء غير المحققين الى قبيلة اخرى . وبما انه ، فى كثير من الاحيان نظر لايعتد به ، سكتنا عنه ، خوفا من التطويل ، وترفعا عن ذكر الخلافات التي لم تات بطائل ، ورفقا بقرائنا من الدخول بهم فى منعرجات لا نهاية لها ، ولا نفع يرجى من ورائها .

ـ 19 ـ لفظة « يتركم » فى الآية 35 من سورة القتال التي يقول فيها الحق سبحانه « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم » ومعناها بهذه اللغة ينقصكم .

اورد الجوهري هذه الآية نفسها وشرح كلمة يتركم قائلا (4) : « اي لن ينقصكم فى اعمالكم » كما تقول : دخلت البيت وانت تريد دخلت فى البيت . فهذه الكلمة لاتدل هنا ؛ اذا عن الذي قتل له قتيلا فلم يدرك بدمه ؛ كما ذهب الى ذلك الامام الزمخشري حين قال (5) : « ولن يتركم من وترت الرجل اذا قتلت له قتيلا من ولد او اخ او حميم » .

ولعل معنى الكلمة فى الحديث الشريف (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله) يوافق ما ذهبنا اليه .

ـ 20 ـ لفظة « معكوفا » الآية 25 من سورة الفتح ومعناها بلغة حمير محبوسا ؛ لكن الامام جلال الدين السيوطي الشافعي جعلها من لغة جرهم واوردها فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن (6) فى النوع السابع والثلاثين .

ـ 21 ـ لفظة « التناهم » الآية 21 من سورة الطور ومعناها نقصناهم بلغة حمير وقد سكت عنه جل المهتمين بلغة القبائل ، الا العلامة ابا القاسم بن سلام . وذكرها الجوهري فى الصحاح فى باب التاء فصل الالف ويعني الت الثلاثي . واضاف : « مثل لاته يليته وهما لغتان حكاهما اليزيدي عن ابي عمرو بن العلاء (7)

وكلما نص عالم لغوي او مفسر على أن مفردة ما ، فيها لغتان ؛ فمعنى ذلك ان المفردة المعنية بالامر توجد فى لغة اخرى غير لغة قريش ، واقر انني جعلت من هذا مبدأ للبحث عن الكلمة ومحاولة تحديدها .

واللفظة « الت » التي نحن بصدد الحديث عنها دليل على ذلك ، فقد راينا ما قاله الجوهري فى كتابه ؛ وهو وحده كاف لارشادنا الى أن المفردة توجد فى غير لغة قريش ، ونضيف لتعزيز ما نقول، ما ذكره عنها الامام الزمخشري (8) وهو يعتمد فى توضيحها على قراآتها المختلفة ـ وما قراءاتها الا لهجاتها التي تنسب اليها ـ ومعلوم أن هذه المفردة لها اربع قراءات :

1 ـ التناهم : وهو من بابين : الت والات يليت
2 ـ آلتناهم : من آلت يؤلت
3 ـ لتناهم : من لات يليت
4 ـ لتناهم : من ولت يلت

ـ 22 ـ كلمة « زعم » الآية 9 من سورة التغابن ومعناها بلغة حمير ادعى « باطلا » وكل ما تركب منها فى القرآن الكريم فهو بمعنى باطل . واذا كنت ذكرت هذه هنا فقط ، فانما هي الصيغة الوحيدة في

---

1) الكشاف الجزء الثالث صفحة 354 طبعة القاهرة سنة 1354 هـ
2) غرائب اللغة العربية صفحة 253 بيروت 1959
3) صفحة 525 من الطبعة القاهرية سنة 1376 هـ ـ 1956 م
4) صفحة 843 من كتاب الصحاح الطبعة السابقة
5) الكشاف الجزء الثالث صفحة 460
6) الجزء الاول صفحة 135 من الطبعة السابقة الذكر
7) الصحاح ـ الطبعة السابقة صفحة 241 .
8) الكشاف صفحة 35 الجزء الرابع

كتاب الله العزيز التي وردت مسندة الى المفرد المذكر.

ـ 23 « اعجاز » في الآية 7 من سورة الحاقة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى « فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية » ومثلها في الآية 20 من سورة القمر التي جاءت فيها: «تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر » .

ـ 24 ـ لفظة « وبيلا » الآية 16 من سورة المزمل التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : « فعصى فرعون الرسول فأخذناه اخذا وبيلا » ومعنى الوبيل بلغة حمير الشديد .

ويقول الاخفش أن « وبيلا » اخذت من الوابل وهو المطر الشديد . ثم وسع اللغويون استعمالها فقالوا : ضرب وبيل ، وعذاب وبيل .

اما وبيل فيمكن ان تكون حميرية أو دخلت اللغة الحميرية في وقت مبكر جدا .

واما الوابل التي يظن الاخفش أنها اعطت وبيلا فالاعتقاد عندي انه وهم خاطيء .

والمعتمد عليه الآن ، هو أن « المطر الشديد باللغة الآرامية ـ وهي اللغة التي سادت بلاد الشرق الادنى القديم حوالي سنة 500 قبل الميلاد ـ هو Yîbel التي اعطت في اللغة العربية « وبل » . (1)

وما من شك ان مكان الماء لبني اسد (2) الذي يطلق عليه « وبال » متأثر ، شديد التأثر بهذا .

ـ 25 ـ لفظة « مرقوم » في الآية 9 من سورة المطففين التي جاء فيها « كتاب مرقوم » ومعناها كتاب مختوم بلغة حمير وقد كررها الحق سبحانه وتعالى في نفس هذه السورة في الآية 20 حين قال : « كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وما ادراك ما عليون كتاب مرقوم » .

ومن الملاحظ أن السيوطي اغفل هذه اللفظة فلم يذكرها ولعل الذين ينقل عنهم لم يذكروها . وأما الزمخشري فيشرحها بشرح خفيف(3) لا يفيد شيئا حيث يقول : « وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة أو معلم يعلم من رآه انه لاخير فيه » .

ـ 26 ـ كلمة « رابية » في الآية 10 من سورة الحاقة ، ومعناها « شديدة » بلغة حمير .

ذكرها الجوهري في مادة ربا وربوة بالضم والفتح والكسر مع تسكين الباء في الجميع ورباوة بفتح الراء . لكن صاحب اللسان زاد لفتين هما : رباوة ورباوة بالضم والكسر (4) .

ولقد شرح معنى هذه اللفظة في هذه الآية العلامة الفراء بقوله : « زائدة » .

ذكرت في الحلقة السابقة ان عدد الفاظ لغة حمير هو 26 لفظة ، وقد تبين لي بعد ان نشر الجزء الاول من هذه الحلقة انني اغفلت لفظتين . احب ان اضيفهما الى ليجتهما معتذرا .

ـ 27 ـ لفظة « مدينين » في قوله تعالى : « فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها » في الآية 86 من سورة الواقعة . ومعناها بلغة حمير محاسبين . ولها معنى آخر بلغة كنانة كنا اشرنا اليه في الفاظ لهجة هذه القبيلة .

اما الزمخشري فيجعلها من مادة دان ويمثل لذلك بقوله : « دان السلطان الرعية اذا ساسهم » (5) واعتقد انها من ذات الباء ذلك ان الجوهري جعلها في مادة دين (6) .

ـ 28 ـ لفظة « امام » في قوله تعالى : (وكل شيء احصيناه في امام مبين) الآية 12 من سورة الاسراء وفي قوله تعالى : « يوم تدعو كل اناس بامامهم » الآية 71 من سورة الاسراء ومعناها بلغة حمير : « كتاب »

وجدير بالذكر ان انص على ان من القراء من قرا « بامامهم » في هذه الآية بـ (بكتابهم) منهم عبد الله بن مسعود (7) المتوفى سنة 33 هجرية وعبيد ابن كعب (8) المتوفى سنة 29 هجرية .

هذه هي الالفاظ الحميرية الواردة في كتاب الله العزيز ، ارجو ان اكون وفقت في احصائها ، واحسنت شرحها . فاذا كنت اغفلت الفاظا ، واسات شرح بعض ما ذكرت ؛ فليكن عذري انني اخلصت النية معتمدا على الله .

اكادير : الراجي التهامي الهاشمي

---

1) غرائب اللغة العربية للاب رفائل نخلة اليسوعي صفحة 209

2) الجوهري الصحاح ج 5 صفحة 1840

3) الكشاف الجزء الرابع صفحة 195 من الطبعة السابقة الذكر

4) ولقد حملتنا كثرة هذه اللغات على اعتقاد انها دخيلة على لغة قريش انظر اللفظة 21 من لغة حمير

5) الكشاف الجزء الرابع صفحة 62

6) الصحاح صفحة 2118

7) Jeffery Materials For The History of the texte of the quran صفحة 55

8) المصدر السابق صفحة 142 .



- 13 -

دونكم ايها القراء الاعزاء آراء طائفة اخرى من العلماء ونتائج تجاربهم على اختلاف اختصاصهم في العلوم ، واختلاف اوطانهم وشعوبهم . واعيد ما قلته من قبل ، اني مسلم ، اومن بالكتاب والسنة ، واجماع الامة ، واقبل كل راي لايناقض ذلك ، ولا يلزمني اعتقاد كل ما اوردته هنا ، ولكنه حجة على الماديين المعطلين الذين يزعمون انهم لا يؤمنون الا بما يدرك بالحواس الخمس .

وقد ادرك هؤلاء العلماء ما ننقله عنهم بعقولهم وبالحواس الخمس ايضا ، ولا يستطيع الماديون تكذيب هذه الجمهرة من العلماء ، او نسبة التوهم لها ، فما لهم من ملجأ يلجأون اليه ، ولا مهرب يفرون اليه ، والحق ابلج ، والباطل لجلج ، ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم .

1 — ومن القائلين بهذا المذهب الدكتور « جورج سكستون » الانكليزي ، ويعد ركنا من اركان النهضة العلمية في هذا العصر ، وكان في مبدأ امره من اشد اعداء هذا المذهب ، وقد كان كثيرا ما يجرد عليه عضبا من لسانه مرهفا حتى كاد بفصاحته ان يتغلب على شهادة الحس عند اولئك الباحثين فخشي الكل تأثيره ، لا سيما ولم يكن من الرجال الذين يمكن اقناعهم بشيء ، لانه كان مشهورا بشدة الانتقاد والتشكك ، ولكن لامر يريده الله ، حبب اليه بحث هذا المذهب ، فظل يحاول خمس عشرة سنة ، لا ليعتقده ان كان صحيحا ، ولكن ليجد الوسيلة التجريبية التي دحضه فلم يسعه — رغم انفه — الا الانقياد للحق واعتقاده ، وكتب مقرا بغلطه عن نفسه يقول : اني تحصلت في بيتي الخاص ، وبمعزل عن كل واسطة «للتحضير» ، غير اصحاب لي ، لديهم قوة استحضار الارواح على البرهان الذي يستحيل دحضه والذي هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت بان المخاطبات التي حصلت عليها هي من احباب واقارب ميتين .

2 — اما الاستاذ « لودج » الذي يلقبه العلماء « داروين الطبيعة » فقد وقف امام الجمعية العلمية الانكليزية وقفة الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ، وترجى اخوانه ان يهتموا غاية الاهتمام بهذه المسائل الروحية التي هي كما يقول : تاسر الباحث بغرائبها المدهشة اسرا .

3 — ومثل هؤلاء كان حال الدكتور «شامبير» الذي له القدح المعلى في العلوم الطبية .

4 — والدكتور « جمس جللي » صاحب كتاب «القانون الصحي للامراض المزمنة» الذي طار صيته في جميع اقطار العالم الطبي .

5 — ومثلهم الاساتذة «اكسون» استاذ كلية اوكسفورد اشهر المدارس الانكليزية .

6 — « وسيرجون كوكس » الفيلسوف المشترع الانكليزي الشهير .

7 — والاستاذ «باركس» الجيولوجي الانكليزي الشهير . كل هؤلاء غير الثلاثين عالما الذين كلفتهم جمعية العلوم بتحقيق خوارق هذه المسائل كما تقدم تفصيلا قبل قليل .

8 ــ وكان المستر «غلادستون» من كبار المصدقين بهذا المذهب ، قال فى بعض كتاباته كما هو مكتوب فى المجلة الروحية « ادرس مشاهدات الاسبرتزم . فاذا وجدت فيها غشا وتدليسا ، فاهزأ بسائر المصدقين بها ، واسخر بي فى مقدمتهم .

9 ــ قال اللورد «بالفور» ، وهو السياسي المشهور : عندي الاسبرتزم افضل من السياسة لانها تفيدني اكثر منها » ونحن لم ننقل كلام هذين الرجلين الاخيرين الا لكونهما معدودين من رجال العلم .

10 ــ وقال العلامة « كرمويل فارلي » المتقدم ذكره : ان الشتائم والسخرية التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد بالاسبرتزم لم تات الا من جهة الذين لا يحصل لديهم اقدام على البحث والتنقيب الا بعد معادات ما يجهلونه .

11 ــ وكتب الاستاذ الشهير « باركس » فى مجلة « بوتلنيس اوف انفستيجشن انتومودرن سبيرتواليزم » اي فائدة البحث فى علم الروح العصري . قائلا انه قبل ان يعتقد حقيقة الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه او فى دحضه ، وجادل كل متكلم فيه ، ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشرة سنوات ، قال وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم في مشاهداته ، واخطب فيه بعلم ودراية .

12 ــ وكتب العلامة « اجست مورجان » المتقدم ذكره فى مجلة « فروم ماستر اوف سبيريت » من معلمي الروح ــ قال : انا مقتنع بصحة الاسبرتزم مما رايته بعيني وسمعته بأذني ، اقتناعا يجعل تطرق الشك الي مستحيلا عندي ، وان الروحيين لعلى الطريق الذي تقدم العلوم الطبيعية ، وليس اضدادهم الا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات فى سبيل الترقي .

13 ــ وكتب الاستاذ «اكرومويل فارلي» الى الاستاذ الشهير «تندل» يقول : انا لندرس الان من «الاسبيرتزم» ما كان قبل الفي عام ، الشغل الشاغل للفلاسفة ، ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليوناني واللاتيني والواقعين على حقيقة المشاهدات الروحية ما كتبه رجال الماضي لراينا ان الذي يحصل الان ليس هو الا جانبا قديما من التاريخ ، لدرجة تعلي مقام اولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التي كانت سائدة فى زمانهم ، ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسالة بتوسع يفوق فى اشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها .

14 ــ وقال القس « سنتون موزس » مدرس علم اللاهوت بلندن بعد فحص الاسبرتزم عدة سنين هو وطائفة من رجال العلم معه قال : ان وضوح وجود هذه القوة المحكمة بعقل يرتكز على ما يأتي :

ا» وضوحها لحكم الحواس . ب» تكلمها غالبا بلغة يجهلها المستحضر . ج» سمو الموضوع الذي تتكلم فيه على معلومات المستحضر غالبا . د» ثبوت استحالة انتاج هذه النتائج بواسطة الغش فى الشروط التي حصلت فيها .

15 ــ وقال الاستاذ «كروكس» احد رؤساء جمعية العلماء الانكليزية : انا اقول بغاية البساطة ، كل ما رايته ، وكل ما ثبت لي بالتجارب المتكررة المدققة ــ وانا لا اقول : ان هذا ممكن ، ولكني اقول انه ثابت محقق .

16 ــ وقال العلامة الفسيولوجي «ولاس» مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع دارون فى كتابه المسمى « خوارق العصر الحالي » : لقد كنت دهريا صرفا مقتنعا بمذهبي تمام الاقتناع ، ولم يكن فى ذهني ادنى محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل فى هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رايت ان المشاهدات الحسية لا تغالب ، فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها اشياء مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة ، ثم اخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا . ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة اخرى « اي بغير نسبتها الى الارواح » .

17 ــ وقال الاستاذ «اليوت» رئيس جمعية العلماء الامريكية فى مجلة « انال بسيشك » ما يأتي : منذ مدة وجيزة كان يشق علي الامر كلما افتكر فى انني ساكون كاتبا لتاريخ مثل هذا « تاريخ مشاهدات الاسبيرتزم» ولكني اراني لا استطيع ان اخون اعتقادي بدون ان اهبط من كمالي العقلي ، ولا يمكنني السكوت امام هذه المشاهدات الحقة ، لئلا انسب للجبن الادبي .

18 ــ ومن ضمن مشهوري انصار هذا المذهب الاستاذ « تسولنر » الفلكي الالماني الشهير المعدود نادرة الزمان فى الذكاء ، اعتنى هذا العلامة بالبحث فيه ومعه الاساتذة الالمانيون المشهورون :

19 ـ « ويبر » .
20 ـ « فيشنر » .
21 ـ « شيبنر »
22 ـ « التريسي »
23 ـ « وينـدت » .

24 ـ وكان الواسطة معهم « سلاد » المشهور. بعد شدة البحث والتدقيق اعتقد هو ورفاقه صحة الاسبرتزم كما اعتقدها الوف غيره من العلماء . ولم يكد ينتشر اعتقاده بذلك المذهب حتى تصدى له الاساتذة :

25 ـ « فيرخو »
26 ـ « هلمولتز »

27 ـ « هيكل » . ونشروا في بعض الجرائد العلمية ان الاستاذ زولنر قد انخدع وانغش ، وكادوا يؤثرون على مقامه العلمي تأثيرا سيئا فبرز اليهم « زولنر » ودعاهم لمناظرته ، ثم نشر كتابه المسمى « اوراق علمية » اثبت فيه بغاية الوضوح والدقة ما رآه هو ورفاقه من المشاهدات الحسية، فلم يسع اولئك الاساتذة الا السكوت والانهزام امام تلك الحجج الناطقة .

28 ـ وكتب الاستاذ « شارل فوفتسي » في كتابه المسمى « الوحي الجديد ـ الحياة » يقول : لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الارواح ، صارت الحياة الادبية مهددة بالزوال ، واحس المجتمع الانساني من نفسه بانه قد دخل في دور الفتن والانحلال الذي يجب ان يعقبه الخراب التام ، ولكن لما اشرقت في الاذهان هذه الفكرة الجديدة « الاسبرتزم » وان لم تكن بينة الحدود للان ـ احست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الافكار ، في المؤتمر الاسبيرتي العام الذي انعقد في لندن 22 يونيه 1898 قام العلامة .

29 ـ « دوروشاس » وتلا مقالة عنوانها « حدود الطبيعة » جاء منها « والحاصل فان هذه المشاهدات الخارقة للمادة ، والتي يغضب النطق بها رجالا يحسبون انفسهم علماء ببحثهم الكثير او القليل في بعض الفروع العلمية ، ليست هي بالنسبة لنا الا امتدادا للمشاهدات التي رأيناها بانفسنا ، وصار الشك فيها من قبيل المستحيلات .

وقام الاستاذ « لودج » الرياضي الشهير الذي يفخر به الانكليز في مؤتمر جمعية تقدم العلوم الانكليزية الذي انعقد في سنة 1891 وتلا مقالة كان لها تأثير عظيم في العالم كله ، قال منها مشيرا للاسبيرتزم : ان الحد الفاصل بين العالمين المادي والروحاني قد قرب ان ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره ، وبهذا سنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة ، وان الاشياء الممكنة لا حد لها ، كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية ، وان الذي نعلمه الان منه لا يساوي شيئا بالنسبة لما غاب عنا علمه ؛ ولو اكتفينا بما كشفناه للان واقتنعنا به ، نكون قد خنا اقدس الواجبات العلمية .

اجتمع في سنة 1893 عند الاستاذ :

30 ـ « فنزي » في ميلان الاساتذة :

31 ـ «الكسندر اكزاكوف» مستشار القيصر الروسي ومدير مجلة « بسيشيش ستوديان »

32 ـ والاستاذ « جيوفاني » مدير مرصد ميلان الفلكي .

33 ـ والدكتور الالماني الطائر الصيت «كارل دوبرل » .

34 ـ والاستاذ « انجلو بروفيربو » .

35 ـ والاستاذ «جيوزب جيروزل» مدرس الطبيعيات في مدرسة « بورتيسي » العليا .

36 ـ والاستاذ الشهير « شارل ريشه » المدرس بمدرسة الطب ، ومدير المجلة العلمية .

37 ـ والاستاذ « لومبروزو » اجتمع كل هؤلاء العلماء ، وفحصوا المشاهدات الاسبيرتية في سبعة عشر مجلسا ، وكانت الواسطة « مدام اوزانيا بلادينو » فكتبوا تقريرا ، وقع برمته في مجلد سنة 1893 من المجلة الروحية ، وفيه يشهدون علنا امام العالم بان كل ما شاهدوه من الخوارق لا غش ولا تدليس فيه ، وان هذه المشاهدات جديرة بالدخول في سلك المسائل العلمية .

تقدم قبل بضع صفحات ان الاستاذين « هيزلوب » و « هودسن » وعدا بان يكشفا اللثام عن معتقدهما في الاسبيرتزم ويثبتا للعالم براهين دامغة خلود الروح ففعل كلاهما ما وعد به . وابتدا الاستاذ « هيزلوب » فسرد مشاهداته المدققة وختمها بهذه العبارة : لا يمكن تفسير هذه المشاهدات بغير الاسبرتزم . اي بغير نسبتها الى ارواح الموتى .

اما الدكتور « هودسن » فقد كتب تقريره في الجزء 22 من نشرة جمعية الابحاث النفسية الانجليزية نقتطف منه ما يأتي مترجما عن اللغة الفرنسية . قال في صحيفة 396 : لقد جربت « التلباتيا » بين الاحياء مدة سنين عديدة ، وها انا لا اتاخر عن التأكيد بطريقة مدققة ، بان الفرض الاسبريتي « أي كون هذه المشاهدات منسوبة للارواح » حق لا شبهة فيه ، وتدل عليه نتائجه بخلاف الفرض الاول .

وجاء في صحيفة 405 ان وضوح هذه المسائل هذا الوضوح التام قد ازال عني كل ما كان يصرفني عن التصديق بان هذه الظواهر نتيجة افعال الموتى .

وجاء في صحيفة 406 : الان لا يمكنني ان اقول بان لدي ادنى شك او ارتياب في ان المرائي المهمة التي تكلمت عنها في الصحائف المتقدمة ، هي حقيقة عين الاشخاص الذين تدعي هي انها هم ، وانهم لم يزالوا احياء بعد تلك الاستحالة التي نسميها نحن الموت ، وانهم بواسطة جسم مدام « بيبر » المتشنجة يتعرفون مباشرة الينا نحن الذين نسمي انفسنا احياء .

39 — اما الدكتور « جيبيه » المؤلف الفرنسي الطائر الصيت ، ومعتمد الاستاذ « باستور » في مكتشفاته البديعة ، حبب اليه البحث في الاسبرتزم منذ زمان طويل . وله في هذه المسالة كتابان جليلان جدا ، احدهما اسمه « الاسبرتزم » والاخر اسمه « تحليل الاشياء » ظهر الاول في سنة 1886 والثاني في سنة 1890 .

اخذ هذا الدكتور في فحص الاسبرتزم مدة ثلاثين سنة ، فدقق النظر فيه ، وجرب بنفسه تجارب يقصر عنها من لم يكن على شاكلته ، ثم الف كتابيه المذكورين على التعاقب ، فيرى المطالع لهما انه لم يصل الى نتيجته الاخيرة الا بعد تردد عظيم من كثرة تشككه ودقة نظره .

فاذا تصفحت كتابه المطبوع في سنة 1886 تجد انه لم يكن لذلك الوقت حاصلا على البرهان القاطع بخلود الروح ، ولو كان فكره « المادي » قد تحول عن مركزه تماما . فانه قال في آخر مقدمته : لتعلن على رؤوس الاشهاد باننا اول ما بدانا درس هذه المباحث النفسية ، كنا نعتقد من صميم فؤادنا باننا امام عالم من خيالات واباطيل يجب علينا كشف الستار عنها وفضحها . وقد صرفنا كثيرا من الزمن للتخلص من هذه الفكرة « اي فكرة كونها خيالات واباطيل » .

ولكنه مع اعترافه ، بان مشاهدات الاسبرتزم ليست بخيالات ولا اباطيل لم يحصل على البرهان القاطع بخلود الروح ، لانه ختم عبارته بقوله : فلنصرح اذن بفكرنا ونقول : كلا ، ان كل هذه الظواهر المدهشة التي لا يمكن تفسيرها بمقارنتها بالشيء القليل الذي نعلمه لا تثبت لنا بطريقة مطلقة ان الموت يهب الحرية للذات الانسانية المدركة الباقية .

ولكنه لم يجبن امام صعوبات هذا البحث ، ولم يكتف بهذا الموقف المشكك ، بل مشى للامام بقدم الشجاع الثابت الجاش ، ثم كتب بعد اربع سنوات كتابه الجليل المسمى « تحليل الاشياء » فصرح فيه بعقيدته حيث قال : في جلسات التجسد « اي التي تتجسد الارواح فيها ، وتظهر في جسم يلمس ويحس » يمكن لكل انسان ان يرى شخصا من اسرته قد مات منذ زمان بعيد او قريب ، فيظهر له عيانا ويكلمه .

نعم يكلمك بسريرته الخاصة التي لا يعلمها غيرك، وترى ان صورته لم تتغير ولم تتبدل ، وان له قلبا يخفق ، ويمكن ان تاخذ صورته الفوتوغرافية ، ويترك لك شكل يده ، بل وشكل راسه بالجبس . كل هذه الاشياء الفوتوغرافية والجبسية تبقى لك برهانا محسوسا دامغا على انك لم تر ذلك في الحلم ، بل يقظة .

ولنضف لك هنا ان هذا التسجيل يحصل بواسطة الارواح العاملة على قوة الواسطة المستعارة منها . فثبت من هنا لدى العلماء الذين راوا هذه الآثار الخارجية الحاصلة بحضور الواسطة ، بان هذه المرئيات تحتوي على البرهان المفحم الذي لا نتحصل على مثله قط ، بان لنا روحا مدركة ومتميزة ومخلدة بعد الموت .

بعد الموت يجد الانسان نفسه في عالم اسميه «ما بعد الحياة » في حالة ليست في الحقيقة الا ذاته الكاملة . اما هذه الحالة التي يعيش فيها الآن فليست الا حالة وقتية ولا اقول بدون فائدة .

واذا اراد المطالع ان يتحقق من صدق هذه المشاهدات بنفسه ، فانه سيقتنع بسرعة ، باني لم ابالغ فيما قلته وانه سيرى اعتقاده يقوى ويشتد على قدر ما تكون ابحاثه حازمة ومتكررة ، ولو كانت هذه المرئيات باطلة لحصل عكس ذلك .

توضيحات لما تقدم

نقلت ما تقدم من دائرة المعارف ، وقراته مرارا فرايته واضحا لا يحتاج الى شرح الا قول الدكتور جيبيه في كتابه الاول « الاسبرتزم » : ان الموت يهب الحرية للذات الانسانية المدركة الباقية اهـ. يعني ان الدكتور جيبيه لم يحصل على نتيجة تامة عندما الف كتابه « الاسبرتزم » ولم يقم عنده البرهان القاطع على الموت يعطي الحرية الذات الباقية المدركة .

فان قلت : كيف يتصور ان الموت يعطي الانسان شيئا ، والذي يظهر لنا انه يسلبه كل شيء ، فالجواب: اذا كانت الروح مستقلة بوجودها قبل الموت وبعده وخالدة لاتفنى يمكننا ان نتصور ان الانسان في حال حياته يكون في اسر وقيود ترابية منها حاجته الى المعيشة الى المكان والزمان والغذاء ، ومنها خوفه على حياته وعلى جسمه من المرض والموت والمصائب التي تنغص عليه عيشه ، فاذا مات تحرر من تلك المخاوف كلها .

ثم ان كثافة الجسم الترابي تضيق معلوماته ، وتصعب عليه فهم الحقائق حتى اذا تخلصت الروح من الجسم الترابي يعود لها صفاؤها ، وتدرك حقائق المعلومات بدون تعب ، ويكون اتصالها بخالقها ، وبالعالم العلوي تاما ، وترتفع عنها الحجب. وانشد علماء الزهد في هذا المعنى :

سبيت الورى طرا وانت محجب / فكيف بمن يهواك ان زالت الحجب

واصبحت محبوب القلوب بأسرها / ولا ذرة في الكون الا لها قلب

وقد ثبت الدكتور جيبيه بعد دراسة اربع سنين اخرى ان الموت يهب تلك الحرية للانسان على اكمل وجه كما رأيت .

قال المحقق نعمان خير الدين ، الشهير بابن الالوسي البغدادي في كتابه « جلاء العينين » في محاكمة الاحمدين » ص 148 .

اختلف الناس ايضا في الروح : هل تموت ام لا ؟ فذهب طائفة الى انها تموت ، لانها نفس ، وكل نفس ذائقة الموت . واذا كانت الملائكة يموتون ، فالارواح البشرية اولى .

وقالت طائفة : انها لا تموت ، للاحاديث الدالة على نعيمها وعذابها بعد المفارقة الى ان يرجعها الله تعالى الى الجسد .

قال في روح المعاني : والصواب ان يقال : موت الروح هومفارقتها الجسد ، فان اريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت ، وان اريد انها تعدم وتضمحل ، فهي لا تموت ، بل تبقى مفارقة ما شاء الله تعالى ، ثم تعود الى الجسد وتبقى معه في نعيم او عذاب ابد الابدين اهـ.

وللروح معان اخر ، ليس هذا موضع ذكرها ، من ارادها فليرجع الى كتب التفسير . والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق .اهـ

وقد اجاد الرئيس ابو علي ابن سينا عميد فلاسفة الاسلام في قصيدته العينية فوصف الروح وصفا دقيقا جدا بطريق الاشارة . انقل هنا بعض ابياتها . قال رحمه الله تعالى :

هبطت اليك من المحل الارفع / ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف / وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما / كرهت فراقك وهي ذات تفجع
انفت وما انست فلما واصلت / الفت مجاورة الخراب البلقع
واظنها نسيت عهودا بالحمى / ومنازل بفراقها لم تقنع
حتى اذا اتصلت بهاء هبوطها / عن ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها تاء الثقيل فأصبحت / بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهودا بالحمى / بمدامع تهمي ولم تتقطع
وتظل ساجعة على الدمن التي / درست بتكرار الرياح الاربع
اذ عاقها الشرك الكثيف فصدها / قفص عن الاوج الفسيح المربع
حتى اذا قرب المسير عن الحمى / ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت / ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق / والعلم يرفع كل من لم يرفع

واخرج البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من احب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه – فقالت عائشة او بعض ازواجه : انا لنكره الموت ، قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس احب اليه مما امامه ، فاحب لقاء الله واحب الله لقاءه ، وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء اكره اليه مما امامه ، فكره لقاء الله ، وكره الله لقاءه.

وقال تعالى في سورة فصلت 30 – 31 « ان الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الاخرة ، ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » .

قال ائمة التفسير في قوله تعالى ، قالوا ربنا الله ، اي وحدوه في ربوبيته وعبادته ، ودعائه ، والرغبة اليه والرهبة منه ، والالتجاء اليه وحده لا شريك له في تفريج الكربات وقضاء الحاجات . «ثم استقاموا» على طاعته واتباع سنة رسوله «تتنزل عليهم الملائكة» عند موتهم يبشرونهم قائلين لا تخافوا مما تقدمون عليه ، فانكم مقدمون على سعادة لا حد لها « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من اهل ، فالله يخلفكم فيهم « وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون » في كتاب الله وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الاخرة » معناه ان الملائكة لم يزالوا مع المؤمنين في حياته الدنيا يثبتونه ويستغفرون له ، ولن يزالوا معه بعد موته يؤنسونه ، غير انه لا يراهم الا عند خروج روحه حين يتغلب سلطان الروح على الجسد . اما بعد الموت فانه يشاهدهم عيانا دائما «ولكم» في الاخرة كل ما تشتهي انفسكم ، وكل ما تريدونه اكراما وضيافة من رب عظيم المغفرة واسع الرحمة . انتهى تفسير الآية .

وهذا برهان قاطع على بقاء الروح ونعيمها وسعادتها بعد الموت كما قرره اولئك الفلاسفة . وقال تعالى في سورة الواقعة 83 – 95 « فلولا اذا بلغت الحلقوم، وانتم حينئذ تنظرون .. ونحن اقرب اليه منكم ، ولكن لاتبصرون . فلولا ان كنتم غير مدينين . ترجعونها ان كنتم صادقين . فاما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . واما ان كان من اصحاب اليمين ، فسلام لك من اصحاب اليمين . واما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم ، ان هذا لهو حق اليقين . »

يقول الله تعالى : فلولا ، اي هلا « اذا بلغت الحلقوم ، اي الروح المفهومة من السياق وانتم ايها الحاضرون عند الميت تنظرون اليه ولا تدركون حقيقة امره . ونحن اقرب اليه بعلمنا منكم . لكن لا تبصرون. كما قال تعالى في سورة الانعام 103 « لاتدركه الابصار، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير » هذا في الدنيا ، واما في الاخرة فيراه المؤمنون في دار الكرامة بابصارهم كما يرون القمر ليلة البدر ، صحت الاخبار بذلك .

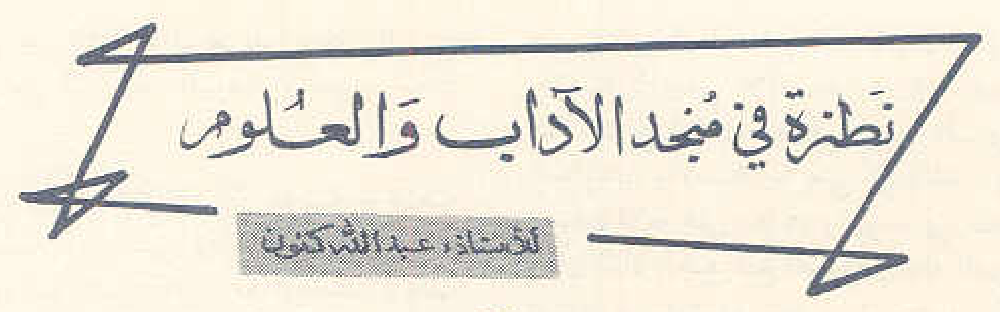
فلولا ، هلا ، ان كنتم غير مدينين محكومين ومجزيين – كما تزعمون ايها الكفرة ، ترجعونها ، اي تردون الروح وتدفعون عنها الموت ، ان كنتم صادقين في زعمكم انه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، ولا حياة بعد الموت . فاما ان كان ، اي الميت من المقربين اي السابقين من الاصناف الثلاثة المذكورة في اول السورة ، فروح ، اي فله راحة ، وريحان ، اي رزق كريم ، وجنة نعيم ، فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واما ان كان الميت من اصحاب اليمين فسلام لك ايها المخاطب من اصحاب اليمين ، اي سلامة لهم ، او سلام يصلك منهم ، او ناهيك بما هم فيه من الكرامة كما يقال بالعامية : يا سلام عليه . واما ان كان من المكذبين لله ولرسله الجاحدين ربوبيته او الهيته ، او ارسال رسله الى خلقه ، فنزل من حميم ، اي فلهم ضيافة من الماء الحميم البالغ درجة الغليان . وتصلية جحيم، اي احراق بنار جهنم ، ان هذا الذي ذكر لهو حق اليقين ، اي اليقين الحق الذي لاشك فيه .

وقد تبين الان ان الروح بعد الموت باقية خالدة ، اما في نعيم ، واما في جحيم ، وفي القرآن آيات كثيرة تدل على هذا المعنى . وقد توصل الفلاسفة بطرقهم الخاصة الى بقاء الروح وخلودها بعد الموت ، ولكن ما توصلوا اليه بالنسبة الى ما جاء به رسل الله نقطة في بحر . فالحمد لله الذي احق الحق وازهق الباطل ولو كره المجرمون ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

مكناس : تقي الدين الهلالي

أبحاث ودراسات



نظرة في منجد الآداب والعلوم

للأستاذ عبد الله كنون

- 10 -

حــرف السيــن :

247) في ص 244 ، ع ل ترجمـة للشيخ سالـم السنهوري الفقيه المالكي المصري لم يذكر فيها نسبه الذي يعرف به وهو السنهوري وانما اقتصر على تعريفه سالم بن محمد وهو لا يتعرف بذلك .

248) في المكـان نفســه ترجمـة لعبد الحكيـم السيالكوتي . تحرف فيها نسبه الى السالكوتي وهو كما ذكرنا ، نسبه الى سيالكوت مدينة بالهند ، واقتصر على ذكر رسالة له في تحقيق بحث العلم قال انها مخطوطة في برلين ، مع ان له كتبا مهمة مطبوعة تعتبر من المراجع الأساسية في الدراسة العليا كحاشيته على المطول وحاشيته على شرح القطب للشمسية وغيرهما .

249) في ص 247 ، ع ل تعريف براس اسبارطيل المعروف في طنجة جاء فيه انه يواجـه في الاندلـس موقع طرف الغر وصواب هذا الاسم الطرف الاغر .

250) في ص 249 ، ع ل تعريف بسجاح التميمية المتنبئة ضبط فيه اسمها بكسر السين وهو بفتحهـا على وزن حــذام .

251) وفي عين المكان ترجمة للشيـخ احمـد السجاعي ضبط فيها نسبه بكسر السين وهو بضمها وقال انه نثر منظومة في بيان الانبياء المذكورين في القرءان ورسالة في اثبات كرامات الاولياء وصحة العبارة ان يقول الف منظومة الخ لان النثر قد اختصر الان بالطبع ، على ان اهم موءلفات السجاعي هي حاشية على ابن عقيــل وحاشيته على شرح القطر وغيرهما مما هو متداول لا ما اقتصر عليه المنجد . وذكر بعد هذه الترجمة قريـــة السجاعية التي ينتسب اليها السجاعي بضبطها بكسر السين ومقتضى الضم في نسبه ان تكون هي ايضا مضمومة .

252) وفيه ايضا تعريف بالسراج السجاوندي قال فيه انه فقيه حنفي عاش نحو (1200) يعـني في القرن الثاني عشر وان كانت عبارته لا توءدي ذلك ، وليتـه استعمل عبارة دائرة المعارف الاسلامية التي ينقل منها وهي قولها : « لمع نجمه حوالي عام 1200 م » فحددت تاريخ ظهوره وبينت ان المراد التاريخ الميلادي . ثم قال المنجد : له الفرائض السراجية في احكام الارث في المذاهب الاربعة وهذا من زياداته ، فالسراجيـــة خاصة بمذهب ابي حنيفة كما ان الرحبية خاصة بمذهب الشافعي ، وقد سبق ان قال فيها مثل ما قال في السراجية .

253)وفي ع ن . من هذه الصفحة تعريف بسجلماسة جاء فيه : «اثار مدينة في المغرب عاصمة بلاد تافيلالت وكان صوابا لو نقل عبارة الدائرة كما هي ولم يحورها، ونصها : بلدة قديمة في بلاد المغرب كانت قاعدة اقليم تافيلالت واصبحت الان اطلالا، ثم انه ضبطها بفتح السين اولها وهي بكسرها ، وترجم بعدها لاحمد بن مبارك السجلماسي فضبطه بفتح السين تبعا لذلك وصوابه الكسر .

254) وفيه كذلك تعريف بعلم الدين السخاوي وصف فيه بالمغربي بضم الميم وفتح الراء ، ولا ندري ما هذه النسبة فان كان يريد انه مغربي اي منسوب الى بلاد المغرب فان ذلك ليس بصحيح لانه بنسبه السخاوي تحددت نسبته الى مصر ، فان سخا بلدة مصرية يذكره هو هذا زيادة على ان النسبة الى المغرب لا تكون بذلك الضبط ، ولعل هذا ان يكون تحريفا عن المصري

255) في ص 250 ، ع ل تعريف بنـي سـراج الغرناطيين قال فيه انهم قبيلة عاشت في غرناطة في القرن 15 م والصواب ان يقول اسرة بدل قبيلة كما في الدائرة

256) في ص 251 ، ع ل تعريف بجعفر السراج القاري وذكر من كتبه زهد السودان والصواب مناقب السودان .

257) في نفس المكـان ذكر مدينـة سرقسطـة الاندلسية وضبطها بكسر السين وفتح الراء مع تشديدها والمعروف فيها فتح السين والراء مع التخفيف ونطقها الاسباني Saragosta يوذن بذلك .

258) وذكر باثرها سرقوسة قاعدة صقلية مضبوطة بكسر السين ايضا وهي بالفتح في النطق العربي .

259) وفي نفس الصفحة ع ن ذكر مدينة سروج فضبطها بضم السين وهي بالفتح ،قال في معجم البلدان : « فعول بفتح اوله من السـرج وهو من ابنية المبالغة » .

وذكر بعدها السروجي بطل المقامات الحريرية فضبطه كذلك بالضم والصواب الفتح .

260) في ص 253 ، ع ل ترجمة لسري السقطـي قال فيها اولا انه صوفي سني ، فقلنا حسن ، ثم نسب اليه القول بان حروف القرءان مخلوقة وان المحبين يغوقون في النعيم اتباع الانبياء ، من موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام فاذا كان سنيا فان هذه الاقوال ليست من مذهب اهل السنة . والوارد في السنة ان المتحابيـن في الله يظلهم الله بظله يوم القيامة ، ولكن لا خصوصية لهـم بذلك فان خصالا اخرى كثيرة تناهز المائة قد ورد في السنة ان اصحابها لهم هذه المزية ايضا . ثم قال المنجد: « وقد لامه احمد بن حنبل على تلك الاقوال » ولو صح ما نسب اليه في حروف القرءان لما اقتصر ابن حنبـل على لومه بالبدعة وهجره ، كيف وهو الذي امتحن في هذه المسالة اشد الامتحان وصبر رضي الله عنه ولـم يتزحزح عن عقيدته ، على ان الثابت عن الامام احمد هو انه كان يصف سريا بالشيخ المعروف بطيب المطعم كالمنكر لذلك من حاله ليس غيره . وقيل بلغه عنه انه قال : « ان الله لما خلق الحروف سجدت الباء ، فقال : « نفروا الناس منه » وهذا ليس معناه حتما القول بخلق القرءان او حروفه بالذات ، وانما هو شيء مما ينطق به الصوفية في منازلاتهم ولا دليل له من السنة ، فهو الذي استنكره الامام وامر بتنفير الناس عنه من اجله .

وعلى كل فما مقام هذه الاقوال الشاذة في ترجمة مختصرة لا تتعدى ثلاثة اسطر من احد عمودي الصفحة الواحدة من المنجد ، ان في ترجمة السـري السقطي من المعلومات والاحوال ما يغني عن ذلك ، وهـو شخص اجمعت الامة على صلاحه ورسوخه في مقام المعرفـة وكان استاذ الجنيد شيخ الصوفية وخاله الذي رباه ، ولو لم يكن من باعث على تحرير ترجمته وتركيزها على ما ذكرنا الا تجنب التناقض بين ما جاء في اولها من انه صوفي سني وما تستلزمه تلـك الاقـوال من الابتـداع ومخالفة السـنة ، لكان ذلك خليقا بصاحـب المنجـد ، ولكن هل يدرك حضرته هذا ؟ .

261) في نفس الصفحة ع نى كلام على السعديين ملـوك المغرب في القرن العاشـر الهجري قال فيـه : كانت عاصمتهم مدينة فاس ، وليـس بصحيح على اطلاقه، والصحيح ان عاصمتهم مراكش ، وقال ان ءاخرهم هو محمد شيخ الاصغر هكذا بتجريد شيخ من اداة التعريف، الامر الذي يقتضي اضافته الى الاصغر والصواب محمد الشيخ الاصغـر .

262) في ص 254 ، ع نى . تراجم لافراد من ءال سعود ملوك نجد والحجاز وللمعبر ابي السعود وسواهم، ضبط اسماءهم جميعا بفتح السيـن ، اما ءال سعود فمـا ضبطهم الاستاذ الزركلي في الاعلام الا بالفتح وهـو اعرف بهم.واما ابو السعود فهو بالضم ايضا على المعروف والمنطوق به بين العلماء .

263) في ص 256 ، ع ل كتب اسم مدينـة صقـرو بالسين وهو من خطا الترجمة .

264) وفي نفس المكان كلمة عن ابي سفيان بن حرب قال فيها : « عادى النبي وحاربه في بدر واحد » وابو سفيان لم يحضر غزوة بدر كما هو معروف اذ كان من اصحاب العير لا من اصحاب النفير ، ثم قال : « وقاد جناحا من الجيش الكبير الذي زحف لحصار المدينة في وقعة موءتة » وهذا خطا واضح فموءتة ليست بالمدينة

وانما هي باطراف الشام، وظاهر انه يعني غزوة الخندق او الاحزاب كما تسمى ايضا وهي التي حاصر فيها ابو سفيان المدينة ، وزاد المنجد قائلا : « ثم اعتزل الحرب وصالح محمدا في معاهدة الحديبية وسلمه مكة » وابو سفيان لم يسلم مكة للنبي (ص) بل ان النبي دخلها عنوة ولم يكن ذلك في معاهدة الحديبية كما يشعر به كلامه بل بعدها بسنتين .

265) في ص 258 ، ع ل ترجمة للناصري صاحب الاستقصاء اقتصر فيها على وصفه بالسلاوي ، هكذا كما يفعل الكتاب الاوربيون مع ان نسبه الذي يعرف به هو الناصري ، وذكر انه استند في تاليف كتابه الاستقصاء الى المراجع الاوربية ، وهذا ليس بصحيح على اطلاقه ، فانه انما فعل ذلك في تاريخ الفترات الغامضة المتعلقة بالحروب الناشئة بين المغرب ودولتي الاسبان والبرتغال المجاورتين له ، وعلى نطاق محدود في بعض الكتب الخاصة بذلك العهد ، بخلاف ما يوهمه كلام المنجد من ان تاليف الاستقصا كان بالاعتماد على تلك المراجع، فالعبارة فيها ابهام ولو قال : استفاد في تاليفه من بعض المراجع الاوربية وكان اول من فعل ذلك من مؤرخي المغرب لاصاب الصواب وانصف الرجل .

266)في الصفحة نفسها ع ل في ترجمة سلطان اسحاق قال : انه رجل اجتمعت عليه ءاراء اهل الحق او مذهب «على الهي»، فقالوا انه عاش في القرن 14 واليه يرجعون في طقوسهم ومعتقداتهم ، وهذا الكلام يزيف ءاخره اوله فلو كان هذا الرجل ممن اجتمعت عليه ءاراء اهل الحق لما كان بهذه الدرجة من النكارة . فلو انه قال كما في دائرة المعارف : « شخصية هامة في معتقد فرقة (اهل الحق) او ما يعرف بمذهب «على الهي» لأبان المقصود ولما وقع قارىء كتابه وخصوصا من الشباب في حيرة حين يرى ان هذا رجل اجتمعت عليه ءاراء هذا الحق هكذا بالتعريف الذي يشمل جميع اهل الحق في كل زمان ومكان ، مع انه غير محقق التاريخ وصاحب طقوس ومعتقدات خاصة ، والعجب من المؤلف كيف ارتكب التعريف هنا ومن عادته ان يجرد كثيرا من الاسماء المعرفة من اداته ، فيقول في الجنيد مثلا : جنيد ، ومر بنا ءانفا انه قال في محمد الشيخ الاصغر : شيخ الاصغر ؟

267) في ص و ر ن تعريف بالحافظ السلفي عنون له بسلفة ، مع انه لقب لجده وليس لقبا له وقد احسن في ضبطه بكسر ففتح لا كما يغلط فيه بعضهم فيجعله بفتح السين ظنا منه انه منسوب الى السلف ولكن الغريب هو قوله بعد ذلك : اليه ينسب المذهب السلفي بكسر ففتح كما ضبطه ، فليت شعري ما هو هذا المذهب؟ ومن ذكره من اصحاب التاليف في المذاهب والفرق ، ولعله يقرا المذهب السلفي بذلك الضبط المعوج ، فلذلك ظن انه منسوب اليه .

268) والطامة الكبرى انه في العمود نفسه ذكر السلفية بكسر فسكون كما ضبطها وعرفها بما يلي « بدعة يعرفون (كذا) ايضا باصحاب السلف الصالح يتمسكون بالسنة وينبذون كل تجديد دونها ، اشهرهم ابن تيمية ، ومنهم الوهابيون في الجزيرة ، « واهل القرءان » ! واهل الحديث ! « والفرائضيون » في الهند . فما ادرى ما هذا الخبط ؟ ومن اي امره اعجب ؟ امن جهله حتى باحكام العربية ، ام من اقحامه نفسه بمثل هذه الوقاحة فيما لا يحسنه من الكلام على السنة والبدعة حتى وقع من حيث لا يشعر في ائمة العلم والدين والمسلمين عموما ؟

ومع ذلك فان كتابه ينشر ويروج في بلاد الاسلام وهو مشحون بهذه الفضائح التي تستوجب طرحه وعدم تداولــــــــــه .

269) وفيه ايضا تعريف بابي سلمة الخلال ضبطه بسكون اللام وهو بفتحها .

270) في ص 261 ، ع ل ترجمة للسليك بن السلكة الشاعر العداء المعروف ، ضبط اسمه بفتح السين وهو بضمها على صورة المصغر ، وكذا السلكة اسم ابيه هو بضم السين وفتح اللام وقد ضبطه خطأ بفتح السين ايضا .

271) في ص 266 ، ع ل تحت عنوان « سنن » ذكر انه اسم لعدة كتب في الحديث اشهرها سنن ابن حنبل ، وكتاب احمد بن حنبل يعرف بالمسند لا غير ، ثم قال وابن ماجة وابي داود والبخاري ، وكتاب البخاري يعرف بالصحيح لا غير ، ثم قال والبيهقي والترمذي ، وكتاب الترمذي يعرف اكثر ما يعرف بالجامع لا بالسنن ثم قال والدارمي ومالك ، وكتاب مالك يعرف باسمه

العلم : الموطأ ، ثم قال ومسلم والنسائي ، وكتاب مسلم يعرف ايضا بالصحيح لا غير .

272) وفي ع ن من هذه الصفحة تعريف بالشيخ سالم السنهوري يدل على ان المؤلف لا يفرق بينه وبين سالم بن محمد ، الذي ترجم له في هذا الحرف بدون نسب ونبهنا سابقا على انه هو السنهوري

273) في ص 267 ، ع ل ترجمة لسهل بن هارون الكاتب المعروف قال فيها من مؤلفاته ثعلة وعفرى على نسق كليلة ودمنة وهي ثعلة وعفرة

274) في ص 269 ، ع ل تحت ترجمة احمد سودة المري ضبط المري بكسر الميم وهو بضمها نسبة الى مرة بن كعب بن لؤي ، من بطون قريش وهي بضم الميم، وقال ان له بغية الادباء الاكياس في معرفة قسمة وادي فاس ، والذي له هذا الكتاب هو العابد ابن سودة ولد احمد فليصحح .

275) وفي نفس الصفحة ، ع نى بترجمة السوس قال مدينة ومرفأ في تونس ، وهي سوسة لا سوس .

276) في ص 271، ع نى ذكر سوق اهراس من مدن الجزائر فسماها سوق اخرس بالخاء وهو خطأ في الترجمة .

277 في ص 274 ، ع نى اعادة ترجمة عبد الحكيم السالكوتي على الصواب في نسبه ، ويظهر انه لم يفرق بينه وبين من سماه بالسالكوتي فيما سبق ، وقلنا انه تحرف عليه من السيالكوتي ، بدليل ان ما ذكره له ثم من التاليف لم يعد ذكره هنا ، وانما ذكر ما نبهنا في التصحيح المتقدم على انه اهمله مع كونه اهم مؤلفاته

278) في ص 276 ، ع ل ترجمة لسيبويه امام النحاة قال فيها انه بشر عمرو بن عثمان ـ والصواب ابو بشر ابن عمرو بن عثمان

279) وفي نفس الصفحة ع نى ذكر مدينة بلعباس الجزائرية فسماها سيدي بن العباس والصواب ما ذكرنا

280) في ص 280 ، ع ل ترجمة للسيد « الكومبدور » المترعم الاسباني المشهور ضبط فيها لقبه السيد بفتح السين وتشديد الياء على انه من السيادة مفرد سادة ، وليس بصحيح بل هو بكسر السين وسكون الياء لا غير ، وفي الاندلس جاء هذا اللفظ حتى في القاب المسلمين كابن السيد البطليوس فليعرف

281) وفيها ع نى ترجمة سيد الناس اليعمري عنون لها هكذا : سيد ابن الناس الاندلسي العربي فخلط اسمه خلطا لا نظير له

282) وفي هذا المكان ايضا ذكر ابن سيده اللغوي الاندلسي الشهير فضبط اسمه بفتح السين وتشديد الياء المكسورة على انه مفرد سيدات وليس كذلك بل هو بكسر السين وسكون الياء ثم دال بعدها هاء .

طنجة : عبد الله كنون



وقلما ابصرت عيناك ذا لقب
الا ومعناه ان فكرت فى لقبه

ذلك هو البيت السائر ، الذي لم يكن يجد له من مصدق حقيقي اكمل مما وجد فى الغزالي وكتابه . فان النظر فى الاثر الذي احدثه الغزالي بعلمه وقلمه، ومقدار ما استمد من واقع التطور الاسلامي فى الاربعة القرون والنصف التي سبقت ميلاده ، ومقدار ما احدث من اثر فى التسعة القرون التي اتت بعد وفاته الى اليوم، ليمكن له الحق كل الحق فى ان ينعت « بحجة الاسلام » .

وان النظر فى ذلك الاثر المتولد من قلم الغزالي وعلمه ، المتناول ما تباعد من العلوم المتصلة بالاسلام تناول التقريب والتأليف ، حتى اخرج من مجموعها مدارك عائدة على جميعها ، تبصر بالغايات ، وتكشف عن اسرار الحياة ، لحقيق ، بان توصف العلوم قبله كما لح الى ذلك بكونها « مواتا » وان يعتبر ذلك الاثر « احياء لعلوم الدين » .

فان من يتصور مقام الحكمة الاسلامية التي ابتدات بنشأة علم الكلام ، واكتملت بالدور الذي بلغه علم الكلام على يد الامام الاشعري ليوقن بان تلك الحكمة اصبحت من مجموعة عناصر الثقافة الاسلامية ، بمنزلة الحكمة العليااو حكمة الحكم،ولكنها بقيت معلقة مبتوتة، تطلب ان تتناول مواضيع النظر الذي دعا اليه الاسلام، وهي مواضيع الفكر الانساني عامة ، لتتخذ لها منها متصرفا ، وتعطيها من نفسها مستندا . فكان العمل الذي تقدم اليه اتباع الاشعري : من امثال ابي بكر الباقلاني وامام الحرمين ، عمل ايتاء تلك الحكمة متصرفها ، فى علم الاسلام بالمعنى الاخص : وهو علم الفقه ، واسناده الى الحكمة العليا بما ادرجوا عليه النظر فى احكام الدين من الجسر الواصل بين علم الكلام وعلم الفقه : اعني علم اصول الفقه على وضعه الجديد الذي وضع عليه فى كتب القاضي وامام الحرمين .

وبقدر ما قرب ذلك ما بين علم الفقه وعلم الكلام، والف بين الفقهاء والمتكلمين ، فانه قد باعد بين علم الفقه وبين العلوم الاسلامية الاخرى ، التي لم تصل حبلها بعلم الكلام ، وكاد ان يحيد بعلم الكلام عن الغاية التي نشأ من اجلها ، وهي غاية اقامة حكمة عقلية جديدة : تقوم مناهج الحكمة العامة التي جمعت الثقافة الاسلامية اطرافها من الغرب والشرق .

فما كان الاسلام ليتخذ من الحكمة القديمة آلة له ولا ليعطيها آلة من نفسه ، وهو الذي جاء مصلحا لخطاها ، ومهيمنا عليها .

ولقد نقل المسلمون الحكمة فى بغداد ، وجمعوا من فنونها ، ومذاهبها ، وانحائها ، ما لم يجتمع لها من قبل، ولخصوها ، وهذبوها ، واحسنوا سبكها ، وجودوا تصنيفها ، فلم يبلغوا بكل ذلك ما يقتضيه طبع الكيان الحكمي للاسلام ، ولم يزيدوا النظر فى الاسلام بضوئها، الا اضطرابا وغشاوة على غشاوة .

وكما احدث المتكلمون فى الاسلام ، حين ارادوا توجيهه بالحكمة المستعارة ، ازمة فى التفكير الاسلامي ، فان المتكلمين فى الحكمة ، حين ارادوا توجيهها بالاسلام، وتعريبها بعباراته قد احدثوا ازمة اخرى .

فالكندي والفارابي ، واخوان الصفا ، وابن سيناء ما منهم الا من حام بحكمته حول الدين واسراره، وكشف فى الدين ما لم يكن يعرف ، واتى الى الحكمة بما لم يكن معهودا ، فما اعتبر ذلك فى نظر الحكماء الا عبثا بالحكمة ، وفى نظر ايمة الدين الا تطفلا عليه وذلك اقل ما وصف به هذا العمل من شر .

فان ابا حيان التوحيدي يقول فى شأن اخـــوان الصفا : « صنفوا خمسين رسالة فى جميع اجـزاء الفلسفــة علميها وعمليهــا ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والامثال الشرعية ، والحـــروف المحتملة ، والطرق الموهمة ، وقد رايت جملة منها وهي مبثوثة فى كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات ، وتلزيقات ، وحملت جملة منها الى شيخنا ابي سليمان المنطقي ، وعرضتها عليه فنظر فيها اياما ، وتبحرها طويلا ، ثم ردها علي وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا فما اطربوا » .

هكذا تتمثل خيبة المحاولة التي اكد بها اخـــوان الصفا انفسهم ، فى شهادة شاهد من الاقربين اليهم ، فما الظن بها عند البعداء عنهم من اهل الدين مثل الامام المازري الذي قال فى تلك الرسائل متهما : « ان مصنفها مزج بين علم الشرع وعلم العقل ، وذكر الفلسفـــة ، ليحسنها فى قلوب أهل الشرع بآيات يتلوها عندهــا واحاديث يذكرها .

وهل من اسراف ، فى تجاهل الحكمة الاسلامية ومنزلتها من عموم المعرفة ، اكثر من الذي اخذ به نفسه المعلم الثاني ، ابو نصر الفارابي ، فى كتاب « احصـاء العلوم » على ما اجاد فى ابتكاره وتصنيفه اذ انزل علم الكلام فضلا عن علم الفقه الى منزلة العلم المدنـــي ففصلهما بتاتا عن كل صلة بالحكمة العقلية .

وحاول ابن سيناء بعده أن يرتق هذا الفتق .

فقسم الحكمة الى نظري غايته الحق ، وعملـي غايته الخير ، ووضع علم الكلام فى النظري المحض مثل علم الهياة ، ووضع علم الفقه فى العملي المحض مثـل سياسة المنزل وسياسة المدينة .

ولقد كان ابن سيناء اطول هؤلاء باعا واوغلهــم سيرا فى تصنيف المعارف الدينية من عموم المعـــارف الحكمية ورد اصول العقائد الى الفلسفة حتى « تم له ما لم يتم لغيره » كما قال الامام المازري . ومع ذلك لـم تنته به خطاه الى طائل يقنعه ولا حصلت له حركتـــه محصلا يعول عليه حتى كانت الازمة أشد وطأة عليه من كل احد ، اذ لم تنتج له حكمته فى نهايتها الا الحيرة المريرة التي وصفها بقوله :

لقد طفت فى تلك المعاهد كلهــا
وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم ار الا واضعا كف حائـــر
على ذقن أو قارعا سن نادم

ولعل فى هذين البيتين ابلغ ناطق بان الحكماء منذ اعتقدوا أن الحكمة اليونانية ، تجتمع مع الحكمـــة الاسلامية ، على ما هي عليها ، وتشرحها وتوجهها ، ما حصلوا من ذلك على طائل منذ انتجت لهم التجربة : ان احدى الحكمتين اما أن تصلح الاخرى واما أن تغني عنها فاحتاروا فى الاخذ باحد المنهجين ، ووقفــوا فى حيرتهم واجمين ، حتى انفتح منهج الحق المبيـــن ، بمصحح الفلسفة ومحيي علوم الدين .

لما ضربت الثقافة الاسلامية قبتها ، واقامت عمادها فى بغداد ، مدت اروقتها يمنا وشمالا ، وضربت أطنابها مترامية بين المشرق والمغرب . فتكونت فى ظل تلـك الاروقة الوارفة ، اوتاد راسية بين العماد المركزي وبين مضارب الاطناب القاصية : اوتاد تعين العماد المركزي وتسانده فتحمل الاروقة فى امتدادها ، مجددة لها نقطة الارتكاز ، حتى لا تثقل ، بطول ما بين اصلها وطرفها ، فتتدلى حتى تقع على الارض .

كانت هذه الاوتاد هي عواصم الثقافة الاسلامية الكبرى : من حلب ، ودمشق ، ومصر ، والقيروان ، وتلمسان ، وفاس ، وسبتة ، وقرطبة ، تحت الرواق الغربي ، وهمذان ، واصبهان ، وشيراز ، ونيسابور ، وهراة ، وبخارى ، وسمرقند ، تحت الرواق الشرقي .

وكانت المذاهب والفرق والنحل ، التي نشأت فى بغداد أو آوت اليها ، قد انتشرت تحت تلك الاروقة : متزاحمة ، متصارعة ، متسابقة ، فى سبيل البحـث عن المتسع الحيوي .

فتحت الرواق الشرقي ، فى طرف الهضبـــة الايرانية المشرف على سهول آسيا الوسطى ، تطل خراسان ، قامت مدينة نيسابور ، وتدا ثابتا فى منعطف ذي شأن ، هو منتهى العالم الايراني ، ومبتدا العالم الطوراني . فاحتضنت بين اسوارها الآجرية ، من كل ما فى بغداد من خصائص فكرية وروحية بمثل او قريب من الغليان الذي كانت تجيش به بغداد .

فالشيعة العلوية قد كانت لها بلاد خراســان وطنا اصليا ، وقلعة حامية، والمعتزلة كانوا قد التحقوا بها يضايقونها بسطوة العصبية العباسية ، والاشاعرة بعد أن اصطدموا بالفريقين معا فى بغداد ، وتصارعوا واياهم طويلا ، قد تتبعوهم الى خراسان ، يريدون أن يثأروا لانفسهم منهم ، بعد أن ردوا عن انفسهم كيد الفتنة الكبرى ، بملك السلطان السلجوقي البارسلان ووزارة نظام الملك .

وكذلك كان شأن المذاهب الفقهية فى ما بين بعضها وبعض .

فالمذهب العراقي ، وهو المذهب الحنفي ، كانت قد نشأت الى جنبه فى بغداد مذاهب تختلف اصولها عن اصوله . فقامت المناظرات الفقهية ، والمراجعات والمجادلات ، بين الحنيفية والشافعية ثم امتدت فى العراق العجمي واستمرت الى خراسان متقدمة الى بلاد ما وراء النهر .

وكانت روح من التعصب قد نفخت فى تلك المناظرات العلمية ، التي نشأت طاهرة زكية فى بغداد، فقلبتها الى جدل ، لا يسير نحو طلب الحقيقة والانصاف فيها ، بل نحو فرض المذاهب بالاعتساف فكادت ان تقوم بين السنيين ، فيما بينبعضهم وبعض، الفتن التي قامت بينهم وبين المعتزلة وظهرت بينهم المنافرات التي اصابت حركة علم الفقه ، فى القرن الرابع ، ولاسيما عند بعض المذاهب بضيق خانق ، اذ أن مجامع الجدل ، ومجالس المناظرة ، وابهاء القصور الملكية ، وفساطيط المعسكرات حرصا على اكتساب الجماهير والملوك كانت قد صرفتهم عما كان الفقه سائرا نحوه من قبل من اتساع فى النظر ، وعمق فى البحث ، وتلاقح بين المذاهب ، بمقابلة الاصول ، ومقايسة الفروع ، ولم يكن اقل من ذلك ما قام بين الصوفية والمحدثين ، والحكماء والمتكلمين ، مما عرض بمدينة نيسابور فى القرن الخامس الى فتنة عظيمة كانت سببا فى جلاء كثير من أعلامها عنها ، حتى قرت عجاجة تلك الفتنة فى عهد الب ارسلان منتصف القرن الخامس ، فعاود مدينة نيسابور الذين هجروها من ابنائها وعلى راسهم امام الحرمين عبد الملك الجويني .

وانشئت المدرسة النظامية بنيسابور ، وقام امام الحرمين على راسها ، وانتشرت المدارس الفرعية فى ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي ، وغلبت عظمة امام الحرمين ، واستبد به ساعد الاشاعرة ، واصبحت الحكمة الكلامية الاشعرية محورا لفنون الثقافة الاسلامية على المنهج الذيخططه امام الحرمين فى المدرسة النظامية بنيسابور ، وسارت عليه المدارس الصغرى فى بلاد خراسان وغيرها . وبنيت عليه المدرسة النظامية ايضا ببغداد دار الخلافة . ولكن الروح الجدلية والضيق التعصبي ، لم يزالا مسيطرين على ذلك المنهج بحكم الظروف القاسية التي تولدت فيها فكرة ذلك المنهج ، ومقاصد الحماية وتمكين المنعة للحركة العقلية الدينية التي خطط المنهج سيرها وتقدمها .

وفى مدينة طوس الشهيرة فى التاريخ ، التي تسمى اليوم مدينة « مشهد » ، وكانت قد دخلت فى محيط الاشعاع الفكري لمدينة نيسابور ولد فى منتصف القرن الخامس تماما — سنة اربعمائة وخمسين — حجة الاسلام الامام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي، فى بيت خير وفقر ، وكان والده الامي يتمنى أن ينشأ ولده عارفا بالقراءة والكتابة خارجا عن ربقة الامية المطبقة ، فتوفي وتركه صغيرا ، واقبل ابو حامد تحقيقا لرغبة أبيه على مدارس العلم بطوس ، ثم بجرجان ، ثم عاد الى طوس ومن هنالك خرج فى طائفة من اقرانه : شبان طوس ، قاصدين نيسابور تجذبهم اليها سمعة امام الحرمين والمدرسة النظامية . وهنالك ، فى نيسابور اتم الغزالي تخرجه فى الفقه والاصول والكلام والمنطق والفلسفة ، وتشرب علم امام الحرمين وطريقته ، وظهرت قواه الروحية والعقلية والبيانية ، ففاق فى الخطابة والتدريس والمناظرة ، واشتهر بالمعرفة الواسعة ، والفكر الوقاد ، والقلم السيال ، والفصاحة السحبانية ، والتمكن من اللغتين العربية والفارسية حتى كأنه «البحر المغدق» كما عبر عنه استاذه امام الحرمين . فكان هذا الجمع العجيب من المواهب ، والمزاج البديع من الفنون والمعارف ، مبدأ التناكر بينه وبين الدنيا التي حوله ، وخاصة من الاقران والاساتيذ ، فكلما لمح فيه انسان من المتصلين به فى شبابه نزعة الى طريقة ، أو سيرا على منهج ، ظن أنه عرفه وضبط ملكته فاذا هو يفجأه بلمحة معاكسة تلوح بطريقة اخرى وملكة غير الملكة التي تفرسها فيه اولا ، فشخص الناظر اليه محتارا فيه ، وشخص هو محتارا منقبضا من شخص الناظر اليه وهكذا لم يلبث الغزالي ان اصبح سرا مكنونا وسؤالا دائما مترددا يجيش فى الصدور فلا يشفي غليلها جواب عنه كما قال ابو الطيب .

يقولون لي من انت ؟ فى كل بلدة
وما تبتغي ؟ ما ابتغي جل ان يسما

ولعل فى هذا ما يبين لنا حقيقة التطور الذي تطورت به علاقة الغزالي باستاذه امام الحرمين : فان كثيرا من مترجميه ينقلون فى احتراز ان امام الحرمين فى آخر الامر ربما كان يمتعض من الغزالي ، على شدة اعجابه به وعظيم افتخاره . ولسنا ممن يحمل هذا الامتعاض — اذا صح — محمل الامر العادي السخيف، بل ان نستطيع أن نرجعه الى أمر ذي شأن خطير فى حياة كل من الامامين العظيمين يرجع الى أن للغزالي وراء المنهج الذي تتبع فيه امام الحرمين روحا تأخذ

المعرفة وتذوقها على ما يختلف عن اخذ امام الحرمين لها ، وتذوقه اياها ، فهلا يكون بروحه تلك قد تطلع الى غايات من العلوم ومقاصد من النظر والبحث على غير ما كان يتطلع اليه استاذه . فكان مع ما بينهما من ود واعجاب كلما بدرت لامام الحرمين بادرة من البوادر الغزالية بهت من ماهيتها وغايتها ، فامتعض لتلك البهتة ، واشفق على جواهر علومه الغالية من أن تصرف فى غاية لما يتبين له اعبث هي أم حكمة . وكان من وثوق الغزالي بنفسه ما يثبت به جامدا امام ذلك الامتعاض حتى يدرك الناس ان بينهما شيئا يذهبون فى تأويله كل مذهب ، وما هم بمدركين حقيقته الا بان يكشف عنها الغزالي بنفسه .

ان من يقرا لامام الحرمين قوله : انه يجب على كافة العاقلين ، وعامة المسلمين شرقا وغربا بعدا وقربا ، انتحال مذهب الشافعي . ويجب على العوام الطغام ، والجهال الانذال ، ايضا انتحال مذهبه بحيث لا يبغون عنه حولا ولا يريدون به بدلا . ثم يزيد فيقرأ للامام الجويني ايضا قوله : « كان الشافعي من قريش وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قدموا قريشا ولا تقدموها وقال عليه الصلاة والسلام الايمة من قريش » فهذه كلها شهادات عامة تدل على أن اتباع مذهبه أولى من اتباع غيره وغيره نبطي والشافعي عربي فضلا عن ان يكون قرشيا من قريش : ثم يزيد تقدما فى الكتاب الذي سماه امام الحرمين « مغيث الخلق فى ترجيح القول الحق » حتى ينتهي الى اعجابه واستحسانه ما فعل القفال المروزي فى مجلس السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي من اداء صلاتين على صورة مقبولة وصورة نابية لاجل حمل السلطان على المذهب الذي يريد حمله عليه . من وقف على ذلك ادرك اي نزعة من العصبية والتعسف استولت على طائفة من فقهاء ذلك الدور فدفعت بهم الى فتح باب الجدل والمناظرة ترويجا للمذاهب لدى الملوك والسلاطين ، وتمكينا لها بين الجماهير ، بطرائق من الخطابة والاقناع ، تنتهي الى ان يغضي النظر عظيم مثل امام الحرمين عن سخافة مثل تلك التي اتاها فى مجلس السلطان من اتخذ آيات الله هزؤا .

تلك أزمة اصيب بها الفقه فتضاءل لها نتاجه ، وانحرف مزاجه ، بحيث كادت الآثار الفقهية أن تنحصر فى المجادلة الذاهبة بذهاب مجالسها .

فى غمار تلك الامواج الصاخبة ، نشأ الغزالي فقيها شافعيا ، وفى تلك العاصفة بدت ثمرته فى بستان امام الحرمين .

ومهما قيل فى الغزالي من اختلاف فى نسبته الى مختلف فنونه : هل كان متكلما ، او اصوليا ، او متصوفا ، او فيلسوفا ، فانه كان فوق ذلك كله محكما فى النصاب الاصلي الذي وضعت فيه نشأته الاساسية وهو نصاب الفقه الشافعي . فمن تلك الصفة — صفة فقيه شافعي — تولدت للغزالي شخصيته الواسعة التي مست مختلف الفنون حتى جرت الناس فى توزيع شخصيته ما بينها ، وذلك التوزع الذي تفنن بعبقرية الغزالي فوصل بينها وبين كل ناحية من نواحي الثقافة الاسلامية ، وكون منه علما من اعلام تلك الناحية ، هو التوزع الذي كون من الغزالي الاصولي الاعظم فى كتاب المستصفى ، والمتكلم الحكيم فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، والصوفي الاول فى كتاب احياء علوم الدين ، والفيلسوف المبدع فى كتاب تهافت الفلاسفة ، وما كانت هذه الشخصيات المتكاثرة المتوالدة للغزالي الا مواليد شخصيته الاصلية : شخصية الفقيه الشافعي ، صاحب البسيط والوسيط والوجيز ، وتلميذ امام الحرمين وابي شجاع ، والقيم على مصنفيهما الفقهيين : نهاية المطلب لامام الحرمين ، وغاية التقريب لابي شجاع .

كان الغزالي قد تناول الفقه موسعا ، مذللا ، مدروسا ، متقن العرض ، محكم التصنيف ، فتغذى به حتى تقومت قواه العقلية ، وهضمه حتى نبضت به عروقه ، واشتدت به مفاصله ، فوجدت ملكاته العقلية فى قواه الخطابية والتدريسية والقلمية متصرفا وتم المتصرف .

واقبل على الناس من حياة استاذه امام الحرمين يفيض بتصرفه فى ملكاته وقواه ، تعليما ، ووعظا وحكمة بليغة ، وادراكا شيقا ، فلم يكن ذلك يشفي غليل الناس الذين يستمعون اليه متلقين ، ولا يقر اعين الذين يلاحظونه مشرفين ، لان الغاية التي اصبح الفقه مستخدما فيها قبل الغزالي بنحو من القرنين كانت غير الغاية التي يتجه اليها الغزالي . فاين براعة المناظرة ، واين قوة الجدل ، واين نصر المذهب الفقهي وهو يصرع مذهبا فقهيا آخر . ذلك ما اعتاد الفقهاء أن يبرزوا فيه مواهبهم ، وذلك ما اعتاد الناس أن يمنحوا الفقهاء اعجابهم واكبارهم من أجله .

ثم مجالس القضاء التي يتصدر الفقهاء فيها مستشارين ومفتين ، فيبدون من الذكاء ، وحسن البصر بالنوازل ، والاغراب فى تطبيق النصوص الفقهية عليها ، ما يرفع منزلتهم بين القضاة والمتقاضين ، ويمكن لهم من حقوق السيادة ما للرعاة على رعاياهم.

ذلك هو الفقه عندهم وذلك هو المراد من الفقيه .

ومن هنالك نشأ ما بين الغزالي وبين بيئته من التنابي والتجافي ، تنابيا وتجافيا ناشئين من صورة العمل العلمي وشكل تصريفه لا من جوهر العلم ومباني هيكله .

وكذلك كان الغزالي يرى في امام الحرمين كنز تلك المعارف ومنبعها ، ويرى امام الحرمين في الغزالي وارث تلك العلوم ومستودعها ، ولكن هذا يرى في ذاك تصرفا بها غير وجيه ، والاخر ينظر الى ذلك نظرة الى من اخذ الجوهر النفيس ولكنه لم يأخذ طريقة صياغته .

وتوفي امام الحرمين ، فأصبح الغزالي ، من اتباعه ومريديه وشيعته وانصاره ، بالمنزلة التي كانت لامام الحرمين ، ولكن النبوة لم تزل ظاهرة بينهم وبينه، بل لم تزل نامية زائدة ، وكانهم اصبحوا امامه جامدين ينتظرون منه أن يحركهم ، واصبح امامهم حائرا لا يدري لم لا يتحركون فاذا هو يهجر الدرس والوعظ ويترك المتعلمين والمستفيدين ويفر مقبلا على السياحة والخلوة والعزة وهو ينشد :

غزلت لهم غزلا دقيقا فلم اجد

لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

وهنالك في تلك الخلوة برحاب بيت الله الحرام وعند حرم نبيه عليه الصلاة والسلام وبين دمشق وبيت المقدس ومصر واسكندرية ، قضى الغزالي سنين خلص فيها الى نفسه ، وانس بعلمه ، يطلب — كما قال في كتابه المنقذ من الضلال — تزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلوب ، وانبثقت انوار تلك الحالة الطاهرة في نفسه ، فاذا هو يتبين في العلم الذي كان معه من قديم وجها لم يكن عرفه من قبل هو الوجه الذي اقبل عليه محدثا بان العلم ليس محمودا على الاطلاق وان المحمود من العلم له قدر محدود ووضع وصرف في غايات طاهرة ، وان العلم المذموم انما يذم في حق بعض المشتغلين به بملابسات خاصة بهم تجعل العلم عائدا عليهم بالضرر فهي مذمة راجعة الى الاعراض الوضعية ، لا الى الذات الجوهرية . ولذلك فان الناس تصرفوا في الفاظ الفقه ، والعلم ، والحكمة ، والتوحيد ، والذكر ، والتذكير ، تصرفا صور لهم معاني هذه الالفاظ على غير حقائقها فطلبو منها الزائف ، وخلطوه بالصحيح النقي ، ثم تجاوزوا في التصرف بذلك المجموع المختلط الحد المطلوب وصرفوه في أوجه من طلب غير الحق والاستجابة الى المقاصد غير الطاهرة

فأصبح الجوهر النقي ، في اختلاطه بالزائف ، وفي الذهول عن ادراك قيمته ، وفي تبذيره على غير وجه الاقتصاد والرشاد ، مضرا بأصحابه موقعا اياهم في مهاوي الخسار ، مع ان نفاسة تلك الجواهر لا تنكر لكنها تتوقف على من يدرك قيمتها ، ويعرف حقها ويفصلها عن الزيوف والبهارج ، ويعرف أين يضعها وكيف يتصرف بها . ولقد كان ذلك الجوهر النفيس الذي عرفه الغزالي وآمن بنفاسته : هو الكنز الذي استودعه اياه امام الحرمين من العلوم الشرعية لكنه ينبغي أن يصان عما قد يلتبس به مما يظن انه شرعي وهو في الواقع غير شرعي ، ثم ينبغي أن يصان عن آفات المناظرة التي كانت قوادح تنخر في تلك الجواهر . وكل ذلك يقتضي على حامل هذا الكنز بأن يصون نفسه عن أن يكون له وزرا وعليه وترا . فاذا كان حملة الامانة العلمية اقساما فان الكنز المكنون يقول لصاحبه : انظر من أي الاقسام انت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له فلا تظنن أن الله يقبل غيرالخالص لوجههمن العلم والعمل.

وعلى ذلك اقبل حجة الاسلام على الامانة يحميها ويخلصها ويرد عليها نقاءها وصفاءها . فعاد الى بغداد ثم الى نيسابور ، وآخر عام من القرن الخامس ، ليقضي الخمس سنين الاخيرة من حياته في نشر العلم على غير النحو الذي كان ينشره عليه اولا ، وللغاية الطاهرة التي اطمأن الى أن نشر العلم لا يحمد الا اذا توجه اليها.

كان القرن الخامس قرن الانتاج الخصب ، والتحقيق العميق ، والبحث الواسع ، والتحرير البديع، في العلوم الاصلية للثقافة الاسلامية : الفقه ، واصول الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والكلام والتصوف . وكان المبرز في كل فن من هذه الفنون ، قد اخذ فنه باصلاح منهجي: اخرجه به منطريقةكان سائراعليها، الى طريقة جديدة يرى ذلك المبرز ويرى الناس : انها الطريقة الاقوم والاسع والاوضح . كان ذلك واضحا في فقه القدوري والحلواني والسرخسي من الحنفية ، وعبد الوهاب والباجي واللخمي من المالكية ، والماوردي وابي شجاع وابي اسحاق الشيرازي من الشافعية ، وفي كتاب البرهان لامام الحرمين في اصول الفقه ، وكتاب الارشاد لامام الحرمين ايضا في علم الكلام ، والتفسير لامام الحرمين نفسه ، وسنن البيهقي ، ورسالة القشيري .

وكان الغزالي قد نشأ نشأته العلمية متمرسا بهذه الآثار قيما عليها وعلى امثالها شهيدا على ما زخرت به مدرستاه النظاميتان : بنيسابور وببغداد ، من علوم ضمنتهذه الكتب وأمثالها وفاضت في مجالس الدروس،

والتذكير ، والمناظرات . ولكنه لم يكد يبتعد عن تلك البيئة العلمية ويخلو الى نفسه فى طور العزلة ، حتى نظر الى تلك الانهار الجياشة من العلم والبحث فاذا هـــي فى نظره مثل سيل العرم : اتت طاغية على جنتي البحث والتحصيل ، اللتين تكتنفان حياة العقل الاسلامـــي ، فابدلته بهما جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل ، كما وصف الله تعالى فى كتابه العزيز وقع سيل العرم فى ارض سبأ . فاذا الغزالي يتحرق على ما آلت اليه جنة العلوم من موات ، بعد ينعها وازدهارهـا ، ويزيد حرقته لوعة لو ان هذا الموات انما حدث من حيث اريد الخير ، وظن الخصب ، وتسبب عن صنيع الذين هم رعاة تلك الجنات ومتعهدو غراسها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا او يلم » .

كان امامنا ابو حامد يعتبر الاسلام ، باعتباره دين الله ، موجها الى مطالب اعتقادية وعملية مبدؤها روح الدين وغايتها روح الدين وان تلك المطالب ، الاعتقادية والعملية ، ارتبطت بمعارف واستدعـت مباحـث ، واقتضت تأصيل اصول وتفريع فروع ، وضبط معاقد . مما يرجع الى عموم نواحي المعرفة ، بما ينتظم فيها من علوم شرعية ، تستفاد من النبوءة ، وعلوم غير شرعية مما يرشد اليه العقل او التجربة او السماع ، وانه اذا كان اتساع دائرة الثقافة الاسلامية على هذا النحو قد قرن الشرعي من المعارف بغير الشرعي ، فان الحقيقة الدينية ، والروح الاعتقادية اللذين خطت بهما تلـك الدائرة ، يجب ان يبقيا ملاك ادارتها وتصريفها ، بحيث تتمازج المعارف وتنتظم حركتها برجوع كل منها الـــى ملاحظة الغاية التي من اجلها تقاربت فى تلك الدائرة ، فاذا فوتت هذا المرجع ، وانفرطت عن ذلك المعقد ، اتجه كل فن منها بدواعي العلائق الذاتية التي بينه وبين اصناف اخرى من المعارف الى استمداد قضايـــا ، والاصطباغ بأساليب ، تفصل ما بينه وبين الفنـــون المنتظمة معه فى دائرة الثقافة الاسلامية ، فصار لكل منها ، بذلك ، مادة لا تتجانس مع مواد الفنون الاخرى ، واسلوب لا يتناسب مع اساليبها ، ففسد التوازن الذي قامت عليه حركة الدائرة وامتلكتها الفوضى والاضطراب حتى تعطلت او اوشكت ، فأصبح الفقه يبطل التصوف ، والتصوف يهدم السنة ، والكلام ينقض التفسيـــر ، والحديث يعطل اصول الفقه . وكلما توفر الانتاج على تلك الصورة فى علم من العلوم كان قاضيا عليه بالعقم ، وعلى انتظام حركته مع غيره بالتعطيل ، ومن هنا تولدت فى نفس الغزالي للعلوم الاسلامية صورتان متباينتان :

احداهما هي الحق والاخرى هي الرسم ، واصبح اهل العلم عنده صنفين : صنف العلماء ، وصنف المترسمين وان الغاية المقصودة من حركة الثقافة الاسلامية انمـا هي البلوغ الى ذروة من المعرفة يقصر دون الانتهـاء اليها المترسمون، ولا يستطيع ان يبلغها الا علماء الحق الذين لهم وراثة الانبياء وتلك الذروة هي التي سماهـا الله تعالى فى كتابه : فقها ، وحكمة ، وعلما ، وضياء ونورا ، وهداية ، ورشدا .

فكانت غلبة المترسمين ، وغيبة العلماء ، موقعة فى القصور عن تلك الذروة حتى اصبحت الحكمــة الموضوعة عليها المسماة بتلك الاسماء المترادفة نسيـا منسيا .

كان هذا الشعور هو الذي حل عن لسان حجـة الاسلام عقدة الصمت وطوته عهدة الكلم ، فأقبل على تصنيف كتابه الذي توجه فيه الى احياء العلوم . مبتدئا بضبط حقيقة العلم وغايته ضبطا يتحكم فى تمييز الصحيح من السقيم ، والحميد من الذميم ، لما كانت تزخر به يومئذ بحار التدريس والتأليف ، ثم رتبه على الارباع الاربعة المشهورة : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات ، بحيث انه لم يـورد معلومات جديدة ولكنه رتب ترتيبا جديدا المعلومـات الرائجة بحل المعقد ، ونظم المفرق ، وايجاز المطول ، وحذف المكرر ، وتحقيق الغامض ، واخذ من كل فـن مكملا ضروريا للفن الآخر ، كان المترسمون فى كل فن غافلين عن تكميل هذا بالآخر منهما ، فقدم الى اصحاب كل فن فنه بصورة جديدة احتاروا: ايقبلونها ام ينكرونها لان من قال انها هي التي عندهم صدق ، ومن قال انها ليست التي عندهم لم يكذب .

طلع على الناس ، فى أواخر القرن الخامس، كتاب احياء علوم الدين للغزالي فكان كتابا عجبا ، ما تناوله عالم من العلماء ، فى اي فن من الفنون ، الا وجد فيه علمه ، ورأى من خلاله نفسه ، فتشكك فى ما الفت به من قضايا علمه ، وانكر ما كان يعرف من نفسه ، فظن ان صاحب علم آخر لا يشككه كلام الغزالي فى علمه ، ولا يحمله على أن ينظر من نفسه ما عرف ، فـاذا الآخر يجد من الشك والانكار مثل ما وجد الاول ، وهكذا الثالث والرابع والخامس وهلم جرا .

فاذا هو تجاوب عام فى قضية ، ابتدات فرديـة فصارت اجماعية ، على ان هذا الكتاب لا ينسب الى علم من العلوم الاسلامية على الوجه الواضح فى النسبة الى تلك العلوم ، ولا يخيل الى صاحب علم ان مؤلف

الكتاب أسكته بضلاعته في علم آخر حتى يقف صاحب العلم المضنون انه أسكت بضلاعته فيه فيكشف على أن موقفه من علمه كموقفه من علم الآخر .

أما الخيام فانها كخيامهـــم

وأرى نساء الحي غير نسائــه

وسرعان ما التهبت بذلك نار حرب ضروس ، بين صاحب الاحياء وبين طوائف متحزبة من الفقهــاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية جاسوا بانظارهم خلال الاحياء ، وتتبعوا مراجع كلامه ، ومرامي اغراضه فتبين لكل طائفة انه يأخذ من طائفة اخرى ما لاجله اختلفت عتبا وجفتها ، فيدخله في العلم الذي هو بصدد الخوض فيه ، ويلزم اهله بتسليمه ، مدعيا انه الذي لا يتضح قصد الحق في ذلك العلم الا بملاحظة ما استعاره له من العلم الآخر .

ولما كانت لكل علم اصول ومبادىء وقواعــد ، تقررت ورسخت وبني هيكل العلم عليها ، فان هذه المحاولة الجديدة التي مست بالاصول ، وخالفت المبادىء وزعزعت القواعد ، قد أوشكت ان تنقض هيكل العلم ، وان تعيد الاخطاء والاغاليــط التي ما وضع ذلــك العلم الا للعصمة منها ، وتقويمها ، فاذا السواعــد بذلك تشتد ، والحركة تشتد ، والهجمة تندفع زاحفة على كتاب الغزالي من بين اهل المذاهب السنية ، كما تزحف لهجات الانكار في كل عصر من عصور التاريخ على المحاولات التي تتجه الى البحث في مسلمات ، ونقــض مشهورات ، هجمات يكون للحق فيها شياع بين جانب الهاجمين وجانب المهجوم عليه اذ يكون المهجوم عليه قد اجرى من الاختيارات الذاتية ، والمباحث الفردية ، مــا يقرب لنظره شيئا بعد عن انظار الآخرين الذين لــم يشتركوا معه في اختباراته التمهيدية ، وبحوثه الاولى .

ولما كانت الملابسات ، التي لابست أوضاع العلم فانكره الغزالي وانبرى لاجلها يقوم العلم بطريقتــه الجديدة ، ملابسات شرقية شاعت في الاوطان التــي مارس فيها الغزالي الحياة الفكرية بالبلاد العربيــة والبلاد الاعجمية ، وبهذه الاخيرة على الوجه الاخص ، وكان المغرب العربي مختلفا عن المشرق في تلك الملابسات فقد كان من الواضح أن يكون الانكار على هذا الكتاب وجفوته ، والازورار عنه امورا متجلية في البلاد المغربية باكثر مما هي في البلاد الشرقية وأن تكون قيادة الهجمة على الاحياء ، ومقدمتها مغربيتين .

فقد كان يصل بين ايمة الاسلام بالمشرق وأيمته في المغرب ، في ذلك الطور ، نابغ عبقري حلق في الافقين بجناحي العلم والذكاء : هو الامام الشهير القاضي ابو بكر ابن العربي ، وكان قد عرف الغزالي واحبه وتتلمذ له وانطوى على حسن الوفاء بعهده ، كما تتلمذ عند عودته الى المغرب على قطبي دائرة العلم به بين افريقيــة والاندلس وهما الامام ابوعبد الله المازري ، والقاضي ابو الفضل عياض ، فكان بهذه الصلة المزدوجة وبما عرف منه الفقيهان المغربيان من نزعات تأثر فيها بالغزالي قد مكن لهما بمراجعته والبحث معه من أن يتعرفا الــى مناهج الغزالي وافكاره ، ومكن لنفسه من أن يعرض ما تأثر به من استاذه أبي حامد الذي يسميه « ذا نشمند » على اختبار وفحص جديدين حملاه على ان يثبت علــى بعض ذلك وان يتحلل من بعضه ، ثم على أن يلاحظ ما بين المناهج التي طاف الغزالي فيها من تناقض يجعل المتقلب بالغزالي في احدها منقطعا عنه في الآخر فكان يقول : « نحن وان كنا قطرة في بحره فانا لا نرد عليه الا بقوله فسبحان من اكمل شيخنا هذا بفواضل الخلائق ثم صرف به عن هذه الواضحة من الطرائق » .

وهكذا حملت جميع النزعات المنكرة على الغزالي عنه هؤلاء على كتاب احياء علوم الدين من بين كتبه كلها وشن المازري وعياض وابن العربي ومن التحق بهم غارته على ذلك الكتاب .

وانه لجسر رفيع ، ثابت القواعد ، متين المباني ذلك الذي وصل بين قطبي الثقافة الاسلامية بالمشــرق والمغرب : اواخر القرن الخامس ، واوائل القــرن السادس ، في شخص القاضي ابي بكر ابن العربــي الاشبيلي ، الذي تخرج بالمشرق ، ولقي الامام الغزالي واختص به ، واحبه ، وأكبره ، ووفى له بعهد الصحبة والمحبة ، ورعى له منزلة الجلالة ، ومقام الشيخوخة على ما انكر عليه ، من جهة اخرى ، مقالات له ترجع الى نظرية المعرفة: اتصلت بمذاهب الباطنية والاشراقيين من طريق غلاة الصوفية ، هي التي كانت مجلبة الانكار الشديد ، والهجوم العنيف اللذين تناولا الغزالي ببلاد الاندلس والمغرب وقضيا قضاءهما على كتاب الاحياء .

كان ابن العربي قد عرف كتاب الاحياء عن ثقة وبينة اذ كان قد سمعه من الغزالي مشافهة ببغداد سنة اربعمائة وتسعين ، وكان حكمه عليه حكم تمحيص وانصاف ، كحكمه على الغزالي في ذاته ، وعلى كتب الغزالي الاخرى ، غير كتاب الاحياء . كان يكبر ما قام به الغزالي في تجديد الدين ، واحيائه ، والذود عنه ،

واضاءة المسالك المؤدية الى حق فهم الدين ، وصحيح العمل به ، فكان يقول فيه انه : « بدر فى ظلمة الليالي ، وعقد فى لبة المعالي ، اذا لقيته لقيت رجلا قد علا فى نفسه ، ابن وقته لا يبالي بغده ولا امسه » ، وكان ابن العربي يرى « ان الهاجمين للاسلام من الفلاسفة لما رد عليهم رجال من اعيان الامة لم يكلموهم بلغتهم ، ولا ردوا عليهم بطريقتهم ، وانما ردوا عليهم بما ذكر الله فى كتابه ، وعلمه على لسان رسوله ، فلم يفهموا تلك الاغراض وطفقوا يهزءون بتلك الردود ، ويضحكون منها ، فانتدب ابو حامد الغزالي للرد عليهم بلغتهم ، ومكافحتهم بسلاحهم ، والنقض عليهم بادلتهم فاجاد فيما افاد ، وابدع فى ذلك كما اراد الله واراد » وبذلك اثنى على جملة من كتب الغزالي فى تقويم الحكمة ونقدها وتمحيصها ، مثل كتاب « تهافت الفلاسفة » وكتاب « القسطاس » وكتاب « معيار العلوم » واثنى على سعة علمه ، وبعد نظره ، وبراعة تقريره لما أخذ عنه فى غير كتاب من اصول الاسلام الثابتة ممثلا بكتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » وكتاب « المستصفى » فى أصول الفقه ومنوها بما قيد عنه فى ذلك مما رواه هو عن امام الحرمين ، ولكن ابن العربي منذ دخل بغداد ، احس بأن الغزالي قد أصبح فى نظر علمائها غير ما كان فى نظرهم من قبل ، وذلك بعد أن راض نفسه بالطريقة الصوفية ، وتجرد للعزلة ، « واخذ يستعمل فى كلامه رموزا يومىء اليها بالفاظ لا تطاق ، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق » فاخذته الحيرة فى شأن ذلك الامام العظيم ، واستشكل وجه الجمع بين مرامي تلك الرموز الغريبة ، ومعاني الحقائق الجلية الواضحة التي تضمنتها كتبه الاصولية والحكمية . فلما لقيه وخلص اليه طفق يسأله سؤال المسترشد المستكشف ليقف من سر تلك الرموز على موقف تام المعرفة ، واخذ الغزالي يجيبه شفاها ، ويكتب له اجوبته كتابة : بما يرجع الى بيان تلك الرموز ، فاذا هو جانح الى مناح صوفية مبنية فى الباطن على عقائد اختيارية مركبة بزعمهم على قواعد عقلية . ولما انكر ابن العربي سلوك استاذه العظيم تلك الطرائق ، فانه لم ينس عظيم منزلته ، وشهير مواقفه فى دعم الحكمة الاسلامية ، ولم ينحل ما انعقد له فى قلبه من محبة واجلال ، فلما رجع يتأمل فى ما سمع وما قيد من ذلك البيان جعل مبنى تأمله على ان القصد الى نقض المقالات الباطلة ، والدعاوي الفاسدة ، هو قصد لا جدال فى انه مشترك بينه وبين شيخه ، وانما يبقى النظر فى ان الطريق التي سلكها ابو حامد محققة للقصد من نقض دعوى المخالفين او ليست محققة له ، فجعل وجهة نقده لذلك الكلام الى انه يمكن المقالة المراد نقضها ولا يرفعها ، واخذ يحلل عناصر البيان الذي كتبه عن الغزالي ، بما يبين فى اثنائها من مداخل الشبه المقصودة بالرد ، ومزالق الاباطيل الحقيقة بالدحض حتى اذا نقض عرى تلك الشبه التفت الى شيخه واثقا من صحة علمه ، وصواب نظره ، يذكره بما استفاد فى دروسه ، وقيد من اماليه مما يشهد بفساد تلك المقالات التي لم يهتم بسد مداخلها الى بيانه فكانه لا يأخذ على الغزالي الا تسليم مقدمات كان مقتضى صناعة البحث منعها ، والاعتماد على لغة فى رد الشبه تجرنا تعابيرها الى ما نحن فارون منه ، او ما هو اشد واشنع ولعله لذلك يذكر ان الامام حجة الاسلام قد اعتاد أن يرد على المبطلين بلغتهم ، ويكافحهم بسلاحهم ، بيد انه فى مواقف من ذلك قد يغلو ويفرط ويوغل ، فنخالفه فى ما اوغل فيه ، وان كنا لا نتولى عن قصده ، ولا نتنكب عن سبيله . كذلك كان القاضي ابو بكر بن العربي يذكر الغزالي ويباحثه على هذا الاسلوب فى كتاب « العواصم من القواصم » الذي املاه سنة خمسمائة وست وثلاثين — اي بعد وفاة الغزالي بواحد وثلاثين عاما ، وبعد ان تنفس ابن العربي فى عجاجة تلك الفتنة التي قامت فى وجه كتاب الاحياء ، واصطلى بنيرانها ، وليس فى ما يؤخذ من ذلك التمحيص الذي محص به ابن العربي كتاب الاحياء ، الا ان له موقفا ، من كتاب الاحياء ، غير الموقف الذي قامت به الفتنة ، واسف فيه علي بن يوسف ابن تاشفين ، وكأننا بالغزالي نفسه انتصب يدافع عن كتابه الجليل فى وجه تلك الفتنة الشعواء ، لما اتى فى دفاعه بغير ما اتى به ابو بكر ابن العربي فى نقده وتمحيصه ، فاننا اذا عدلنا عن الاتهامات المبهمة الموجهة الى شخص الغزالي والظنون التي لا تغني من الحق شيئا مما ظن بالكتاب ، وجدنا ما تعلق به من نقد موضوعي ، مسند مدلل ، يرجع الى نقطتين لا ثالثة لهما: **هما تساهله فى ايراد احاديث غير صحيحة بل ليست ذات اصل تماما** ، وسلوكه فى اثبات طائفة من الحقائق مسلك الاستغناء عن الدليل بالمعارف الحاصلة بما يدعى من الفيض والاشراق الحاصلين بتجرد النفس وانكشاف المعلومات لها عند ذلك بدون طريق الاكتساب وهذه هي التي يجعلها الغزالي امورا « لا تدرك الا بالتجربة لها عند اربابها بالكون معهم والصحبة لهم » .

اما النقطة الاولى وهي ترك التحري فى رواية الحديث فقد ذكر ابن العربي أن حجة الاسلام اعتذر فيها بما لا يقبل من انه ليس من اهل صناعة الحديث ، وعلى كل حال فالصناعة قائمة ، واهلها المرجوع اليهم موجودون ، وقد اهتم الناس بتتبع

الاحاديث الواردة في كتاب الاحياء على كثرتها وتتبعها تتبعا متقنا الحافظ زين الدين العراقي في القرن الثامن فتتبعها بابا بابا وعزاها الى الرواة والكتب وبين درجاتها ونبه على ما ليس له اصل منها وذلك في كتابه المسمى « المغني عن حمل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار » كما اعتنى بتجريد ما ليس له اصل من تلك الاحاديث الشيخ تاج الدين السبكي في ذيل ترجمته للامام الغزالي في الجزء الرابع من كتاب طبقات الشافعية فكانت هذه التخاريج مكملة لنقض الكتاب ، ومصححة لوضعه من الناحية الاثرية .

واما النقطة الثانية ، من النقطتين اللتين يرجع اليهما النقد الموضوعي لكتاب الاحياء ، وهي **مسألة حصول المعلومات بالانكشاف الاشراقي** ، فهي النقطة التي قامت فيها المشادات من قديم بين ايمة الاسلاميين الذين خلطوا التصرف بالحكمة الاشراقية وصدرت عنهم في ذلك المقالات النابية التي انكرها عليهم علماء الملة وان لم ينكروا على سلوكهم ، من لدن الحسين الحلاج الى السهروردي صاحب « حكمة الاشراق » «وهياكل النور» حتى انتهت الى الشيخ محيي الدين فكان تركز نقد الاحياء على ما يجنح الى القرب من تلك الطريقة حاديا بالغزالي الى محاولة الكشف عن المصطلحات الصوفية بما يرجع الخلاف في ذلك الى صورة من الخلاف اللفظي ، على ما بينه في كتابه الذي رد به تلك المطاعن ، وسماه « الاملاء عن اشكالات الاحياء » كما حدا قبل بالامام القشيري في منتصف القرن الخامس الى بناء رسالته على ذلك الاساس نفسه ، فكما كانت رسالة القشيري قاطعة ، ولو الى حد ما ، ما بين الصوفية وبين الحكماء الاشراقيين من صلات ، ومجددة ما بين اهل الشريعة وبين الصوفية من روابط ، فكذلك كان كتاب الغزالي بعد تمحيصه ونقد ما ورد فيه من نظرية المعرفة الانكشافية ، مفككا بين ما عند الصوفية من سلوك مقبول ، وما عندهم من نظريات غير مقبولة ، بما فتح الباب لتجديد التصوف بعد الغزالي على اساس السلوك المحض المتحري من نظريات الاشراقيين ، اعني تصوف الجنيديين من امثال الجيلاني وابي مدين وابي سعيد الباجي وعبد العزيز المهدوي وابن حرزهم والشاذلي ، ومن جاء على طريقته من بعده وهو التصوف الذي انتسب الى الاصول الكلامية الاسلامية وتولاها . فكان البخور الصاعد من نسخ الاحياء وهي في اللهب كان يملأ الاجواء من روح الحق المحصة عن الشكوك والظنون فيصدق فيه ذلك البيت الذي امتلأ كتاب الاحياء ترديدا له وهو قول العباس بن الاحنف .

كنت كأني ذبالة نصبت
تضيء للناس وهي تحترق

تونس : **محمد الفاضل بن عاشور**

الاستاذ مصطفى الصباغ في ذمة الله

انتقل الى ذمة الله ورحمته الاستاذ الودود الاديب الصحفي السيد مصطفى الصباغ اثر حادث سيارة مروع ، اودى بحياة الفقيد في الحين .

ولقد روع هذا الحادث المؤلم جميع من اتصل بالاستاذ مصطفى الصباغ الذي عرف بلطف المعشر ، وحسن الاحدوثة ، ودماثة الاخلاق

واسرة مجلة « دعوة الحق » اذ تنعي لقرائها هذا الخبر المؤلم تضرع الى العلي القدير ، ان يتغمد الفقيد برحمته ورضوانه ، ويلهم اسرته الصغيرة والكبيرة الصبر الجميل ، ويسكنه فسيح جناته في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ألم يحن الوقت لنكف عن وصف البلاد والناس والحضارات بانها شرق وغرب

بقلم: احمد حسين المحامي

لا يمكن ان يكون الانسان مهما تصور نفسه انه قد تقدم او تطور، الا حصيلة للتاريخ الانساني السابق عليه، فهو يتكلم بلغة قد تلقاها عمن سبقوه، وهو مهما حاول ان يجدد فى الافكار والاراء، فهو يرتد ابدا للمفاهيم القديمة التي ورثها .

وليس ادل على ذلك من اننا لا زلنا فى النصف الثاني من القرن العشرين نتحدث عن شرق وغرب فى الوقت الذي يتهيأ فيه الانسان لغزو الفضاء والوصول الى القمر وبقية كواكب المجموعة الشمسية وما وراء ذلك، فى الوقت الذي اصبح فيه دوران الارض حول نفسها وحول الشمس حقيقة ثابتة يتعلمها الاطفال فى المدارس، ويستخدمها ملاحو السفن والطيران وسفن الفضاء فى حياتهم اليومية .

فى الوقت الذي انحسر فيه سلطان اوربا وما كانت تدعيه لنفسها وشعوبها من تفوق، وتفككت امبراطورياتها الاستعمارية، فزالت الامبراطورية الانجليزية التي وصفت يوما بان الشمس لا تغرب عنها وزالت دولة بقية امبراطوريات اوربا من فرنسية وبلجيكية وهولندية، بعد ان هزمت عسكريا وسياسيا وروحيا .

على الرغم من هذه الحقائق العلمية المقررة، والتطورات التاريخية التي اصبحت واقع اليوم، فما زال الانسان يتحدث عن الشرق والغرب كما لو كانا موقعين ثابتين، ولا يزال المفكرون والكتاب والصحفيون والادباء بل ومن يزعمون لانفسهم صفة الفلسفة، يرددون عبارات الشعوب الشرقية، والمجتمع الشرقي والمدنية الشرقية والاديان الشرقية، فى مقابل الشعوب الغربية والمدنية الغربية والفلسفات الغربية، وما اكثر ما ينزلق المعلقون وخاصة فى البلاد العربية والاسيوية الى ترديد كلمة شاعر من غلاة المستعمرين وهو ريارد كبلنج عندما قال « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » .

وقد بدا هذا الحديث منذ العصور الوسطى، حيث كان يظن ان الارض ثابتة وان لها شرقا دائما وغربا دائما، وقد ظلت المصورات الجغرافية حتى الان ترسم على خريطة مبسوطة تعلق على الجدران، او تبسط على المكاتب، او ترسم فى الكتب حيث تبدو آسيا فى الشرق واوربا وامريكا فى الغرب ..

وجمد الفكر الانساني على هذه الصورة، ولو انه وقف عند حد القول بان هذا البلد او ذاك يقع الى الشرق من هذا المكان المعين، لكان ذلك مفهوما الى حد ما فلا مناص من تحديد الموقع الجغرافي لاي مكان بالنسبة لاي مكان آخر، وهل هو يقع الى الشرق منه او الى الغرب، ولكن المسالة قد خرجت ولا تزال خارجة، عن هذا التحديد الجغرافي، الى القول بان هناك شرقا جغرافيا ابدا يتميز بخصائص طبيعية تضفيها عليه شرقيته، وهناك غرب جغرافي له بدوره خصائص يستمدها من غربيته .

وقد تعدى ذلك الى الحديث عن روحانيات الشرق، وماديات الغرب، وثقافة الشرق والغرب، وخصائص الاجناس الشرقية فى مواجهة خصائص الاجناس الغربية، الى آخر هذا الخلط الذي جاءت به اوربا فى نهضتها الاخيرة فى القرنين الثامن والتاسع عشر .

كل موقع على الارض هو شرق وغرب

ونقول ان الوقت قد حان لمواجهة الحقائق العلمية وتطوير الفاظنا واحاديثنا فضلا عن كتاباتنا

واسس تفكيرنا ، على ضوء المفاهيم العلمية الحديثة ..
فما دامت الارض تدور فان كل نقطة تشرق عليها الشمس بحيث تكون مشرقا فهي لا تلبث في ذات اللحظة ان تكون مغربا ، ومعنى غروب الشمس كما نراها في الافق ، هو شروقها على اماكن جديدة ، لا تلبث ان تغرب عنها الشمس بدورها ، وهكذا دواليك ، هكذا كانت الارض منذ الخليقة كرة مستديرة تدور حول الشمس وحول نفسها ، فليس بها مكان يمكن ان يوصف بانه شرق دائم او غرب دائم ، وانما هو شروق وغروب متلاحقان ابدا في كل من اجزاء الكرة الارضية الدائمة الدوران ، وملاحو الفضاء وهم يدورون الان حول الكرة الارضية مرة في كل تسعين دقيقة يشهدون في كل مرة شروقا وغروبا جديدين ، وهذه الان من الامور المتفق عليها والمسلم بها .

واذن فكل حديث عن الشرق الاقصى والشرق الاوسط والشرق الادنى ، ليس الا بقية من بقايا اخطاء اوربا واوهامها وجهلها الذي كانت غارقة فيه من ناحية ، ثم مظهر غرورها وصلفها بعد ان تعلمت ، فظلت تعتبر موقعها هو مركز العالم ومحوره ، وتتحدث عن الشرق باعتباره دونها في مقومات الحياة ، وليس اعجب من ان نظل نردد هذه المسميات ، بعد ان اصبحنا نعرف ان هذا الشرق الذي نصفه بالاقصى ، انما يقع غرب امريكا ولكي تصل امريكا الى آسيا فهي تبحر او تطير اليها بان تتجه صوب الغرب ، والاتحاد السوفياتي انما يقع الغرب من امريكا ، واوربا هي الشرق بالنسبة لامريكا ، وكل بلد بالنسبة لاي بلد آخر هي شرق بالنسبة للبعض وغرب بالنسبة للبعض الاخر ، وتكون عبارات الشرق الاقصى ، والاوسط والادنى والغرب ، هي كلمات خاوية لا مدلول لها من الناحية العلمية الجغرافية والتطبيقية .

لا افكار او حضارات شرقية او غربية

وهذا الذي يقرره علم الطبيعة والجغرافيا ، بحيث يدحض هذه التسميات الخاطئة الشائعة ، فان علوم التاريخ والاجتماع والاجناس واللغات والاقتصاد تدحض بدورها كل هذا الذي لا زلنا نردده من خصائص نفردها للشرق واخرى تخص الغرب ، وروحانيات شرقية وماديات غربية ومفاهيم شرقية واخرى غربية ، واجناس من البشر قد اختص بها الشرق واجناس اخرى قد عاشت في الغرب ، فكل هذه قد اصبحت من تخليطات الجهل والتعصب والاستعلاء الذي غرقت فيه اوربا حينا من الزمان .

فالاجماع الان قد اصبح منعقدا بين علماء الاجناس ، ان ليس ثمة ما يمكن ان يوصف بأنه جنس نقي ، فضلا عن ان يكون بطبيعته ارقى من اجناس البشر ، وما من جنس على ظهر البسيطة «فيما خلا بعض الجزر المنعزلة في محيط او غابة او في اعماق صحراء» الا وهو خليط من كل ما نعرف من الاجناس ، سواء كانت هذه الاجناس كما كانت توصف في القديم بانها من نسل سام وحام ويافت او كما اصبحت توصف في الحديث ، بانها مغولية او بيضاء او زنجية ، وقد تبددت الخرافات التي تفرد للرجل الابيض خصائص لا تتوفر في الزنجي مثلا ، من حيث الطول والقصر ، او من حيث محيط الجمجمة او من حيث الاستعداد العقلي ، فما من جنس على ظهر الارض في الوقت الحاضر الا ويوجد فيه كل الطرز المختلفة من بقية اجناس البشر ، فاقصر اناس في الوجود واطولهم على السواء قد وجدوا بين زنوج وسط افريقيا .

وما يقال عن الاجناس وخصائصها الفسيولوجية، قد اصبح يقال بدوره عن اللغات التي يتحدث بها البشر ، فليست هناك لغة يمكن ان لا تكون هي حصيلة البشرية كلها من اللغات التي سبقتها والتي تعاصرها ، حيث تجري عملية التلقيح والاخذ والعطاء بين سائر اللغات بدون انقطاع في كل وقت وآن.

ومثل ذلك يقال عن الافكار والثقافة وكل مقومات الحضارة الاخرى من اديان وتشريعات ونظم وفنون ومعارف .

واي حضارة عرفها بنو البشر في الحديث او القديم ، لا يمكن الا ان تكون حصيلة التراث الانساني كله السابق عليها ، ابتداء من حضارة مصر القديمة فالاغريق فالرومان من ناحية والصين والهنود والفرس من ناحية ثانية ، ثم الحضارة الاسلامية فالاوربية فالامريكية اخيرا . ودراسة مفصلة لاي من هذه الحضارات ، لا تلبث ان تطلعنا على الروافد الجانبية التي صبت فيها وتآلفت منها . وبحسبنا ان ننظر في شيء من التبصر لما يسمى الحضارة العربية الاسلامية لنرى كيف انها بالرغم من انها حضارة قد قامت على جوهر من الاسلام وتعاليم الاسلام الذي ينفرد بدعوة صارمة للتوحيد وعبادة اله منزه عن التشبيه والتجسيد يعلو على سائر الكائنات ، فانها لم

تلبث ان استوعبت كل ما سبقوها من تراث الحضارات القديمة صينية او هندية او فارسية او افريقية او رومانية و افريقية او اوربية ، وهي ما كان لها ان تكون غير ذلك وقد استقرت في هذه الرقعة الكبيرة من الارض وراحت تتفاعل مع كل مقوماتها .

ونحن نعلم اليوم ، ان اوربا الحديثة قد بدات نهضتها بعد ان نهلت من المعارف الاسلامية واذا كانت اوربا يحلو لها عن طريق التعصب ان تزعم انها وليدة الحضارة الاغريقية ، فانها لم تعرف تراث هذه الحضارة وتتاثر به الا من خلال اللغة العربية والمعارف الاسلامية ، وان الانسان لا يفتا يذهل من حين لآخر ، عندما يطالع يوما بعد آخر ، انه ما من اختراع ، ما من فرع من فروع العلم ، ما من لون من الوان الفن ، ما من ضرب من ضروب الصناعة ، الا وبذوره وجذوره راسختان في افريقيا وآسيا باعتبارهما كانتا سابقتين على اوربا ؛ وكثيرا ما يشار في هذا الصدد بالنسبة للمخترعات الحديثة الى الورق ، والمطبعة ، والبارود ، وقد بقي ان نعرف ان آخر ما وصل اليه فن التكنيك والاختراع كما يتمثل في الصاروخ هو من صنع الصين التي استعملته اول ما استعملته في الحروب ، وهذه الصواريخ التي سعدنا ونحن اطفال وما زلنا نسعد بها وهي تنطلق في الفضاء محدثة هذه الاضواء الملونة البهيجة هي من اختراع الصين ، ونظرية الصاروخ التي ينطلق بها الى القمر هي ذات النظرية التي كانت تطلق هذه الالعاب النارية في الفضاء .

فالعلم اي علم ، والفكر اي فكر ، هو علم انساني يسهم فيه البشر جميعا منذ وجد الانسان على ظهر هذه الارض في التطور به واغنائه واثرائه ، والحضارة في شمولها ، هي حضارة انسانية لا يمكن ان توصف بانها شرقية او غربية ، وما من مجتمع من المجتمعات على ظهر الارض في كل زمان ومكان ، الا ويتقلب حظه ، بين الخفض والرفع ، بين العلم والجهل ، بين القوة والضعف ، بين الايمان والالحاد ، ومن العبث بل من المحال ، ان يوصف مجتمع من المجتمعات بانطوائه على صفات او ملكات او خصائص تفرقه عن غيره من بني الانسان ، من الناحية الجسدية او الفكرية او السيكولوجية او الوجدانية .. وفي اي مجتمع ، صغيرا كان او كبيرا ، ستجد فيه الطويل والقصير والابيض والاحمر ، والاسود العينين والازرقها ، والسبط الشعر والجعد ، والرقيق المشاعر والجاف ، والجبان والشجاع ، والمحب للعلم والكاره للعلم ، والمؤمن بالله والكافر به ، والمثالي في تفكيره ، او صاحب التفكير المادي .

وليس هناك ما هو امعن في الخطأ من وصف شعب من الشعوب باكمله من انه مغرق في المادية او ممعن في الروحانية ، وان ذلك يرجع الى موقعه الجغرافي او بسبب جنسه او اصول ثقافته ، فان اوربا التي توصف اليوم بالمادية قد غرقت الف من السنين او يزيد فيما يصفه كتابها بالعصور المظلمة ، حيث اوشكت اوربا كلها ان تكون كنيسة واحدة او ديرا مسيحيا واحدا ، او بمعنى ادق اوشكت ان تتحول الى ضيعة يديرها البابا باسم المسيح ، وحيث كان كل حديث عن العلم او الفكر الحر ، يعرض للاضطهاد والسجن والحرق ، تحت معاول محاكم التفتيش وهي ظاهرة لم يسبق لها مثيل ، ولم تقع من قبل في هذا المجتمع الذي يصفونه الان بالشرقي ويصمونه بالجمود والتعلق بالاوهام والخرافات والروحانيات ، فلم يحدث في تاريخ الشعوب في آسيا وافريقيا كلها ان حرق انسان لانه قال بنظرية علمية قيل انها تضاد العقيدة الدينية .

وليس امعن من الخطأ من ان تتصور ان اوربا اليوم ، مادية بالصورة التي تحاول ان تضعها في مقابل روحانية آسيا ، فشعوب اوربا بل وامريكا لا تزال مسيحية ممعنة في مسيحيتها ، لا اوربا الغرب الراسمالية ، بل واوربا الشرق التي تأخذ حكوماتها بالمبادىء الشيوعية ، وما اكثر ما طالعت وحدثني رواد بولندا الشيوعية ، عن تماثيل العذراء القامة في كل شارع وعلى كل عمارة بل ان اسقف بولندا يخطب اخيرا ليصف بولندا بانها حصن الكثلكة في اوربا ، وجماهير الشعب في كل مكان من انحاء اوربا تتردد على الكنائس ، وتشعل الشموع حول تماثيل العذراء ، وتتزوج في الكنائس ، والاطفال تعمد بالمياه المقدسة لتكون مسيحية ، ولقد اذهلني مرة ان اجد في انجلترا مئات الالوف من الانجليز المتعلمين المثقفين ، يكفرون بالتداوي عن طريق الطب الحديث ويرون السبيل الوحيد للتداوي عن طريق تلاوة آيات من الانجيل على يد معالج بتلاوة الانجيل ، وسرعان ما اكتشفت ان هذه طائفة كبيرة لها مئات الكنائس في انجلترا او الولايات المتحدة ، وتصدر عشرات الصحف ما بين اسبوعية وشهرية ويومية وعلى رأسها الجريدة الامريكية المشهورة الكريستيان مانيس مونتور .. اما هذه الجماعة المسيحية فتطلق على نفسها جماعة « العلم المسيحي » .

وليس ذلك الا نموذجا او عينة لمختلف الافكار الروحية الممعنة فى روحانياتها فى اوربا وامريكا .

بل ان ما اصبح يطلق عليه اسم علم الارواح وتحضير الارواح ، هو نبات اصبح ينمو ويترعرع فى اوربا وامريكا ، حيث اصبح يدرس فى الجامعات ، وتنشأ له المعاهد وتصدر فيه عشرات الالوف من الكتب .. وتؤمن به عشرات الملايين ، وبالرغم من ذلك فما اسهل ان يقال ان اوربا مادية لان حضارتها مادية ، اما الشرق فروحاني لان حضارته روحية .

وما الراي فى بلد الان كالصين وهي اقصى الشرق كما كان يحلو للاوربيين ان يسموه ، وقد اصبح من الناحية الرسمية يدين بالماركسية التي هي اعلى صور المادية ، وقد بدات الصين تحقق تقدما علميا ساحقا ، حتى لقد فجرت قنبلتها الذرية الاولى والثانية ، اليس هذا يهدم خرافة روحانية الشرق، ومادية الغرب .

ومع ذلك فانه ليكون خطأ ما بعده خطا ان بتصور متصور ان الصين قد اصبحت ما بين غمضة عين وانتباهتها مادية مغرقة فى المادية ، فالصين بملايينها الستمائة او السبعمائة ستظل هي الصين ، حيث البوذية والكونفشوسية والاسلام والمسيحية ، وكل فكر ومعتقد انساني عرفه البشر .

نهضة اليابان

ولعل الكثيرين من ابناء الجيل الحديث ، لا يعرفون مدى الصدمة التي اذهلت الاوربيين عندما هزمت اليابان روسيا عام 1905 فقد كانوا لا يستطيعون ان يتصوروا كيف يمكن لشعب يوصف بانه شرقي ان يهزم قوة كبرى من قوى اوربا الغربية، وسرعان ماراحت الاقلام والعقول الادبية ، تبحث عن تعليل لهذه الظاهرة ، وانتهت الى ان ذلك استثناء محض من القاعدة ، وان السر فى نهضة اليابان هي كونها جزرا تشبه الجزر البريطانية ، وهكذا ترى ان مجرد المشابهة لدولة اوربية قد اعتبر سببا للنهوض .

مع ان مصر قد سبقت اليابان فى النهضة بنصف قرن فى اعقاب الحملة الفرنسية عليها ، ولو تركت مصر وشأنها ولم تتألب دول اوربا الاستعمارية عليها لاستطاعت ان تنهض بافريقيا كلها .

الحرب الفيتنامية

ولعله ليس هناك ما يهدم هذه الخصائص التي عزيت للجنس الاوربي من الشجاعة والصلابة والعزم والاستعداد للتضحية حيث لا توجد هذه الصفات فى الشعوب التي توصف بالشرقية «عدا اليابان» من هذا الذي حدث فى الهند الصينية عندما دحرت قوى فرنسا وهزمتها شر هزيمة منكرة فى دبان بيان فو وعندما قسمت الهند الصينية الى فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية ، وتصورت الولايات المتحدة الامريكية ، ان باستطاعتها ان تنجح حيث فشلت فرنسا باعتبارها الاقوى والاغنى والاعز نفرا، فهاهي تلقى نفس العناء والمصير من هذا الشعب الصغير ، بحيث تشهد البشرية اليوم عجبا من اشد العجب ، فثمة شعب صغير يواصل الحرب عشر سنوات دون ان تلين قناته ، ويرفض كل مساومة حول الصلح او التفاهم الا ان يجلو الامريكان عن ارضه .. ويرتفع صوت امريكا بالشكوى والاستجداء والتوسل لتجد لنفسها مخرجا من هذا المأزق الذي تداس فيه كرامتها ، وهي لا تستطيع بكل حولها وطولها وجيوشها واساطيلها ان تخضع هذا الشعب الصغير الذي يتحداها .

وما اكثر ما حدثونا عن الشرق الذي يمتهن المراة ، بخلاف الغرب الذي يكرمها ويرفع من شأنها وما اكثر ما صدعوا رؤوسنا بتحليل اسباب ذلك .. وان ذلك آية التخلف عند الشرقيين ، ومظهر السمو عند الغربيين .. وها نحن اولا نرى ان اول امراتين تولتا رئاسة الحكومة فى العصر الحديث يجيئان من هذا الذي يسمونه شرقا متخلفا ، لا من الغرب المتحضر .. فبالامس فى سيلان واليوم فى الهند ، تتربع انديرا غاندي فى منصب رئيس الوزراء لشعب من اربعمائة مليون من البشر ، وهي ظاهرة لا يفكر فيها ، ولا يمكن ان يفكر الامريكان او الروس الذين يزعمون ان المراة عندهم قد وصلت الى ارقى ما يمكن ان تصل اليه فى اي مكان فى العالم .

وليس ذلك الا الدليل القاطع من الواقع العملي عن فساد ما زعموه من خصائص شرقية ، واخرى غربية ، ومدنيات وقيم شرقية واخرى غربية ، فانما هو كوكب واحد يدور باستمرار ولن يكف عن الدوران وهي انسانية واحدة ذات خصائص واحدة ، تنتهي الى نفس النتائج فى ظل الظروف الواحدة ، وليست هناك صفات جامدة يمكن ان يوصف بها مجتمع للتفريق بينه وبين مجتمع آخر .

ومن هنا فقد حان الوقت ، لنكف عن هذا الخلط من التحدث عن الشرق والغرب واختصاص كل منهما بمدنيات وحضارات وافكار تتصل بشرقيته وغربيته . وحان الوقت لنؤمن انما هو انسان واحد ، له خصائص الانسانية ، مصيره ومصلحته لا تتحقق فى عصرنا الحديث الا فى تعاون انساني كامل شامل .

احمد حسين المحامي



ازدهرت الثقافة العربية الاسلامية بعد الفتوحات التي قام بها المسلمون في شتى انحاء العالم وربطت اللغة العربية بين جميع الاجزاء فكانت الكتب تتناقل بين الامصار ويتبارى الخلفاء والملوك في جمعها وتشجيع مؤلفيها .

وقد كانت هاته الكتب الآصرة الكبرى التي تجمع بين المثقفين العرب في مختلف الاصقاع والسجل الذي يصور التطورات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في كل مكان .

وقد اهتم العرب بتسجيل ثقافتهم وتدوين معالمها سواء كانت ثقافة دينية او ادبية او علمية واحتدم التنافس بين الشرق والغرب حينا من الدهر فكان ملوك الاندلس والمغرب يتعهدون كثيرا من الادباء الوافدين من الشرق ويغدقون عليهم الاموال لينشروا كتبهم ببلاد المغرب ويذيعوا علومهم بين اطرافه وقد بلغ التنافس حدا جعل بعض الكتب الشرقية تنتشر بالمغرب والاندلس قبل نشرها ببلادها الاصلية وكذلك كان الامر بالنسبة لخلفاء بغداد وغيرهم من ملوك الشرق فقد كانوا ايضا يعملون على نشر الكتب الاندلسية والمغربية بين ربوعهم وينفقون بسخاء على العلماء الاندلسيين والمغاربة الذين يتوجهون اليهم .

وكان لهذا التنافس السياسي فضل على الثقافة العربية الاسلامية لانه كان تشجيعا عمليا لكثير من العلماء والادباء في نشر آرائهم واظهار نبوغهم .

ولقد تنوعت شعب الثقافة العربية وتعددت اختصاصاتها وكثر المنتمون الى كل فن حتى اصبح من الضروري كتابة تاريخ لهؤلاء الادباء والعلماء على اختلاف اقاليمهم ومناهجهم وزمنهم .

ومن هنا ظهرت فكرة كتب الطبقات والتراجم التي ذاعت في شتى الاقاليم الاسلامية والتي كان الاهتمام بها يدفع بعض المؤلفين الى وضع ذيول وتتمات لكتبهم او كتب مؤلفين سبقوهم .

وقد اختلفت الطريقة التاليفية بالنسبة الى ذكر التراجم والآثار فمن المؤلفين من اهتم بمادة دون أخرى ومنهم من اهتم بعصر من الاعصر ومنهم من اعتنى بأمة من الامم او مدينة من المدن وجمع بعضهم بين الاقاليم فتحدث عنها اقليما اقليما ومنهم من لم يراع الا الترتيب الحرفي دون اعتبار للزمن او الاقليم .

ومن بين هؤلاء ابو عبد الله ياقوت الحموي المتوفى سنة 626 هـ فقد الف كتبا مختلفة في التراجم من بينها كتاب « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » الذي اعتنى بنشره لاول مرة المستشرق الانجليزي مرجليوت باسم **معجم الادباء** ثم طبع مرة اخرى طبعة أنيقة مشكولة بعناية الدكتور أحمد فريد الرفاعي سنة 1936م مجزاة على عشرين سفرا ، وقد ذيلت هاته الطبعة بفهارس للاعلام مفيدة واهتم ناشرها بتصحيح اخطائها وايضاح مشكلها ولكنه رغم ذلك وقعت في الكتاب اخطاء عامة ناتجة عن أمرين :

الامر الاول : شكل الكتاب والشكل في المطبعة العربية يقتضي الالمام المطلق بالمادة المشكولة ويتطلب العناية الكبرى من المصففين والا اضطربت الروايات واختلفت .

الامر الثاني : عدم تمكن المصححين من الاطلاع على بعض النصوص في اصولها وعدم اختصاصهم في بعض ما يتعلق بالتاريخ المغربي والاندلسي لذلك نجدهم احيانا يضطربون في تصحيح بعض الاعلام والتعريف ببعض المدن والوقائع المتصلة بتاريخنا .

وكتاب معجم الادباء هذا كتاب حافل بذكر اشهر المؤلفين والمصنفين فى مختلف الفنون الادبية والتاريخية واللغوية والدينية قال مؤلفه فى مقدمة كتابه (1) :

« وجمعت فى هذا الكتاب ما وقع الي من اخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة والمعينة وكل من صنف فى الادب تصنيفا او جمع فى فنه تاليفا مع ايثار الاختصار والاعجاز فىنهاية الايجاز ولم آل جهدا فى اثبات الوفيات وتبيين المواليد والاوقات وذكر تصانيفهم ومستحسن اخبارهم والاخبار بأنسابهم وشيء من اشعارهم فاما من لقيته أو لقيت من لقيه فاورد لك من اخباره وحقائق أموره ما لا اترك لك بعده تشوفا الى شيء من خبره واما من تقدم زمانه وبعد اوانه فاورد من خبره ما ادت الاستطاعة اليه ووفقني النقل عليه فى ترددادي الى البلاد ومخالطتي للعباد وحذفت الاسانيد الا ما قل رجاله وقرب مناله مع الاستطاعة لاثباتها سماعا واجازة الا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع واثبت مواضع نقلي ومواطن اخذي من كتب العلماء المعول فى هذا الشأن عليهم والمرجوع فى صحة النقل اليهم » .

من هذه المقدمة نتعرف على موضوع الكتاب ونعرف الخطة التي سار عليها مؤلفه فهو يهتم بالملاحظة والمشاهدة والمخاطبة من جهة ويعتمد على المصادر التاريخية المعتمد عليها من جهة أخرى وقد ذكر فى مقدمة كتابه بعض الكتب التي استفاد منها كأخبار النحويين لابي بكر محمد بن عبد الملك التاريخي ومسند النحويين للمرزباني وطبقات النحويين لابي بكر الزبيدي الاشبيلي الاندلسي ونزهة الالباء فى أخبار الادبا ، لابن الانباري .

كما ذكر بعض المصادر الاخرى داخل كتابه وهي كثيرة من بينها كتب اهتمت بالاندلسيين ككتاب ابن حيان وكتاريخ ابن الفرضي وكتاب الصلة لابن بشكوال والمنتظم لابن الجوزي وأخبار الحكماء لصاعد الجياني وفرحة الانفس لمحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي **وجذوة المقتبس للحميدي** وغير ذلك من الكتب القيمة .

ولما كانت بعض هذه المصادر لم يتم طبعها الا بعد نشر الكتاب كان من الواجب اعادة النظر فى كتاب معجم الادباء للبحث عن التوافق بينه وبين مصادره فاذا كان اختلاف وجب البحث عن تحقيق الصواب من الخطا وتلك مهمة الباحثين بها نستطيع أن نصحح كثيرا من نصوص وكتبنا وهي التي تيسر لنا معرفة المجهودات التي قام بها بعض المؤلفين حين تاليفهم .

وقد اردت ان اقوم بهذه التجربة بالنسبة لمصدر معين ذلك هو جذوة المقتبس للحميدي فقد طبع هذا الكتاب بتحقيق الاستاذ المحترم محمد بن تاويت الطنجي

ومما لا يخفى على القراء أن كتاب الحميدي هذا يعد من أهم المراجع التاريخية والادبية فى التراث الاندلسي وقد كان منتشرا فى الشرق يعتمدون عليه فى جل ما يتعلق بتاريخ الاندلس منذ فتحها الى ما بعد الفتنة البربرية فقد نزح مؤلفه الى العراق بعد اضطراب الامر ببلاد الاندلس وبعد تمكن ملوك الطوائف من الحكم وبعد مناهضة كثير من هؤلاء لابن حزم استاذ الحميدي وصديقه فقد اضطر آنذاك كثير من أنصار ابن حزم الى الخروج من الاندلس فرارا بمذهبهم الفكري والسياسي وكان من بينهم مؤلف الجذوة .

ولما وصل الى الشرق اراد التعريف بعلماء الاندلس وابراز فضلهم فى البحث العلمي والدراسات الدينية واللغوية فالف كتابه هذا وتهافت الشرقيون على نسخه واختزانه وظل منتشرا بين طبقات المثقفين يقتبسون منه كلما شاؤوا الحديث عن بلاد الاندلس وقد اعتمد عليه الحموي فيما يقرب من اربعين ترجمة من اعلامه .

ولكنني لاحظت بعد المقارنة بين كتاب معجم الادباء وكتاب الجذوة وجود بعض الاختلافات اغلبها ناشيء عن تحريف فى النسخ ادى الى تغيير بعض الروايات الشعرية وتبديل بعض الحقائق التاريخية لا باس ان أورد بعضها فيما ياتي :

1) فى ترجمة ابراهيم بن محمد بن زكريا الزهري الاندلسي المعروف بابن الافليلي (2) هذا الاديب الشهير الذي حدثت بينه وبين ابن شهيد منافسات عدة دفعت ابن شهيد مرارا الى التعريض به والاستخفاف بمناهجه نقد لقيه فى كتاب التوابع والزوابع بأنف الناقة واعتبره فاقدا للاستعداد الفني لا يحسن التصرف فى معلوماته

---

1) معجم الادباء . مطبعة دار المأمون الجزء الاول صفحة 48 .

2) لم يذكر كل من الحميدي والحموي تاريخ ولادته ووفاته . قال السيوطي فى كتابه بغية الوعاة فى طبقة اللغويين والنحاة : .. كانت ولادته فى شوال سنة 352 هـ وتوفي فى ذي القعدة سنة 441 هـ .

الادبية واللغوية لان البيان عند ابن شهيد الهام واستعداد فطري لا يصل اليه الفرد بمجرد اطلاعه على كتب اللغويين والنحويين وعلماء البلاغة ورغم ذلك فان الحميدي زكاه في كتابه وقال عنه : « حدث عن ابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي بكتاب النوادر لابي علي القالي عنه وكان متصدرا في علم الادب يقرأ عليه ويختلف فيه اليه وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر واقسام البلاغة والنقد لهما وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي قال لنا ابو محمد علي بن احمد وهو كتاب حسن » (1) .

في هذا النص نجد جذوة المقتبس شكلت **الزبيدي** بضم الزاي وفتح الباء بعدها وهو المشهور بالنسبة الى الروايات المختلفة التي ترجمت للزبيدي اما في كتاب المعجم فنحن نلاحظ ان الشكل وضعه المصحح بفتح الزاي مع كسر الباء . ومن المعلوم انه يوجد باليمن موضعان يسمى احدهما بزبيد ويسمى الآخر بزبيد جاء في مراصد الاطلاع (2) : « ان زبيد بفتح الزاي اسم واد به مدينة يقال لها الخصيب وهي التي تسمى اليوم زبيد وهي مشهورة محدثة في ايام المأمون وبازائها ساحل غلافقة وساحل المندب . وزبيد بالضم ثم الفتح موضع آخر . »

والزبيدي لا ينسب لهذين الموضعين وانما ينسب لبطن من مذحج وهم رهط عمرو بن معد يكرب قال الشيخ مرتضى عند حديثه عن زبيد بالتصغير (3) : « ... ومنهم محمد بن الحسين الاندلسي صاحب القالي وابناه اللغويون » .

وعليه فان شكل الزبيدي في كتاب الحموي لا يستند على اساس علمي وانما هو خطأ من المصحح ليس غير .

2) عندما ينسب الحموي في كتابه أمرا الى صاحب الجذوة يقول : « قال الحميدي ولكن الناشر بعد شكل الكتاب كان يفتح الحاء وقد استمر عمله هذا في جميع اجزاء الكتاب ولم يخالفه الا حين ترجم للحميدي (4) وقال المصحح آنذاك ويقال انه قيل له الحميدي لانه في اجداده من اسمه حميد بالتصغير .

وهذه الالتفاتة التي قام بها المصحح قد تكون تكثيرا عن تحريف الشكل في باقي الاجزاء . وهذا امر ضروري بالنسبة لعلم من اعلام الادب الاندلسي رحل الى المشرق حينما اضطرب أمر الاندلس وعبثتبها الايام وعمت بها الفتن وضاعت وحدتها وانتثر عقدها وانهارت السيطرة المركزية التي كانت تحميها الدولة الاموية .

وقد كان الحميدي من المؤازرين لابن حزم الظاهري المعجبين بفزارة علمه وقوة برهانه ورجاحة عقله وصموده في الدفاع عن آرائه وقد نظم الاسس التي ينبني عليها المذهب الظاهري فيما يأتي :

كلام الله عز وجل قولي ... وما صحت به الآثار ديني
وما اتفق الجميع عليه بدءا ... وعودا فهو عن حق مبين
فدع ما صد عن هذا وهذا ... تكن منها على عين اليقين

فهو هنا قد ذكر الاصول التي يعتمد عليها الظاهرية وهي القرآن والسنة والاجماع ولم يذكر الاصل الرابع عندهم وهو المعروف بالدليل لان الظاهرية لا يعتبرونه شيئا خارجا عن النصوص .

ان شخصا كالحميدي قام بالتعريف بالاندلس وشارك في نشر الثقافة العربية وكان راوية لابن حزم لا ينبغي ان نهمل تصحيح اسمه في كتاب يعد من المصادر الادبية الهامة .

3) لم يقتصر الحموي في ترجمة ابن الافليلي على كتاب الحميدي وانما اخذ نصوصا أخرى من كتاب ابن حيان فقال : « كان ابو القاسم المعروف بابن الافليلي فريد اهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي والضبط لغريب اللغة في الفاظ الاشعار الجاهلية والاسلامية

---

1) جذوة المقتبس صفحة 142 والنص موجود ايضا بكتاب معجم الادباء الجزء الثاني صفحة 5 .
2) مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع لصفي الدين عبد المومن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة 739 هـ وهو مختصر معجم البلدان للحموي .
3) الجزء الثاني من شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس للشيخ مرتضى الحسين الواسطي الزبيدي صفحة 361 .
4) انظر ترجمة الحميدي بالجزء الثامن عشر من كتاب معجم الادباء صفحة 282 فقد ولد قبل العشرين واربعمائة بجزيرة ميورقة وتوفي سنة 448 هـ . ترجم له ابن تاويت ايضا في مقدمة كتاب الجذوة .

والمشاركة فى بعض معانيها وكان غيورا على ما يحمل من ذلك الفن كثير الحسد فيه راكبا راسه فى الخطا البين اذا تقلده أو نشب فيه يجادل عنه ولا يصرفه صارف عنه وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه اليه لاكمال صناعته به ولم يكن له شروع فيه وكان لحق **الفتنة اليزيدية بقرطبة** (1) ومضى الناس بين حائر وطاعن فازدلف الامراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم الى ان نال الجاه واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن برد فوقع كلامه جانبا من البلاغة لانه كان على طريقة المعلمين المتكلمين فلم يجر فى أساليب الكتاب المطبوعين فزهد فيه ».

ونحن عندما بحثنا عن الفتنة اليزيدية الموجودة فى هذا النص لم نجد لها فى تاريخ الاندلس أثرا **وانما هي الفتنة البربرية** اضطرب الناسخون فى اخذها ولم ينتبه المصحح لذلك فقدم الفتنة الى الناس محرفة وفتنهم فى معرفتهم ومثل هذا الخطا الفادح يجب التنبيه عليه فى كتب اصبحت مصادر معتمدة عند الادباء وطلاب الادب ولو تنبه المصحح الى سياق الكلام والى المؤلف فى مناسبات اخرى عند حديثه عمن لحق هذه الفتنة لما اوقع القراء فى هذا الخطا.

ان الفتنة اليزيدية لا وجود لها فى هذه الحقبة فى تاريخ الاندلس وانما هي الفتنة البربرية التي اشتهرت بهذا الاسم بعد أن قامت الفتن بين أنصار الامويين وانصار العامريين وبعد أن وقعت الفتن بين الامويين انفسهم واستعان بعضهم ببعض البرابرة الذين كانوا يسكنون ببلاد الاندلس.

فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الاموي الملقب بالمهدي على هشام بن الحكم المؤيد بالله سنة 399 هـ ثم قام ضد الثائر ثائر آخر، هو هشام بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر فى نفس السنة ولكنه لم ينتصر فالقي القبض عليه وقتل ولكن البربر اجتمع امرهم على تولية ملك آخر هو سليمان بن الحكم بن سليمان أخي هشام القائم المذكور وتلقب بالمستعين بالله واستبد بالحكم ما يقرب من سبع سنوات الى ان تغلب عليه علي بن حمود الادريسي الذي أسس الدولة الحمودية ببلاد الاندلس وتعددت الفتن بعد ذلك فادت الى تأسيس دويلات متعددة لم ينقذ الاندلس منها الا تغلب يوسف ابن تاشفين على ملوك الطوائف واخذه زمام الحكم بيد من حديد.

4) ومما يجب التنبيه اليه أن الحموي لم يكن سلبيا فى كتابه فقد كان يعرض بعض الآراء ثم يدلي بنظريته فيها دون ان يقتصر على ما اورد.

من ذلك انه بعد ان نقل من كتاب الحميدي ما روى عن ابن الافليلي من أن شيوخه من اهل الادب كانوا يتعالمون ان الحرف اذا كتب عليه صح (بصاد وحاء) كان ذلك علامة لصحة الحرف لئلا يتوهم متوهم عليه خللا او نقصا فوضع حرف كامل على حرف صحيح واذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة ان الحرف سقيم اذ وضع عليه حرف غير تام ليدل نقص الحرف على اختلال الحرف ويسمى ذلك الحرف ضبة اي ان الحرف مقفل بها لم يتجه لقراءة كما ان الضبة مقفل لها. قال بعد ذلك : « وهذا كلام على طلاوة من غير فائدة تامة وانما قصدوا بكتبهم على الحرف صح انه كان شاكا فى صحة اللفظ فلما صحت له بالبحث خشي أن يعاوده الشك فكتب عليها صح ليزول شكه فيما بعد ويعلم انه لا يكتب عليها صح الا وقد انقضى اجتهاده فى تصحيحها واما الضبة التي صورتها (ص) فانما هو نصف صح كتبه على شيء فيه شك .. »

وانما نقلت هذا النص رغم طوله لانه ذكرني ببحث طريف قراته قديما فى مجلة الكتاب اعتمد فيه الباحث (2) على هذا النص نفسه ليستدل على أن علامة الاستفهام التي يستعملها الاوربيون انما هي تحوير لهذه الضبة التي ذكرها الحموي والتي كان يستعملها الاندلسيون فى الشك وهو اكبر مصادر الاستفهام اذ يوجد تقارب بين (ص) وبين (؟) وما بينهما من يشبه التباعد انما هو وليد الاستعمال.

هذه ملاحظة قدمناها للقارىء ليشاركنا فيما احسسنا به بعد المقارنة بين كتابين اتمنى أن يجد فيها متعة وفيما سنقدمه من ملاحظات اخرى ان شاء الله.

فاس : **محمد بن عبد العزيز الدباغ**

---

1) الجزء الثاني من معجم الادباء صفحة 7.

2) عن مجلة الكتاب السنة الثالثة العدد السادس يونيو 1948 - المقال : علامة الاستفهام من اختراع العرب للسيد ابي النصر أحمد الحسيني الهندي.

أحداء البيئة الطبيعية في اللغة

للدكتور احمد الحوفي
أستاذ الادب العربي بكلية
دار العلوم بالقاهرة

— ١ —

خلق الانسان من الارض ، وعاش على الارض ، والى امه الارض يعود .

هذه قضية لا جدال فيها ولا نزاع .

وكيف يعتريها جدال او نزاع ، والانسان يجد نفسه ابن الارض ، جسمه من عناصرها ، وغذاؤه من ثمراتها ومائها وهوائها ، وهي مسرحه في جده وفي لهوه ، وفي طفولته وشبابه وكبره ، ثم هي مثواه الاخير بعد جهاده وجهوده ، يعود اليها كما نشأ منها .

وهل يمتري احد في ان الحضارة التي تنعم بها ثمرة لتسخير القوى والمواد التي في الارض وعلى الارض ؟

وهل البيئة الطبيعية للانسان الا حيز محدود من هذه الام الكبرى الارض ؟

واذا كان الانسان يصطبغ بصبغات شتى ، ويتأثر بعوامل عدة في حياته ، فان البيئة الطبيعية في صدارتها .

نعم في الصدارة ، لان اثرها عظيم في الجسوم والعقول والاخلاق ، حتى ان الباحثين يرجعون الى البيئة تفاصيل الخلقة كألوان البشرة والعيون والشعر ، وسعة العيون وضيقها .

انظر الى سكان الاقليم الاستوائي تجدهم سودا ، والى سكان المناطق الشمالية تجدهم بيضا ، والى سكان الجزيرة العربية مثلا تراهم سمرا .

وقديما زعم الاخباريون ان الزنوج اسود لونهم ، لان نوحا عليه السلام دعا على ابنه حام ، ثم جاء ابن خلدون ففند هذا الزعم ، ورجعه الى تاثير البيئة فقال : في هذا غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني (من خط الاستواء الى الدرجة 23 ومن الدرجة 24 الى 29) من امتزاج هوائهم بالحرارة المتضاعفة ، فيكثر الضوء لاجلها ، ويلح القيظ الشديد عليهم ، وتسود جلودهم ، لافراط الحر ، لان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين متقاربتين في كل سنة ، فتسفعهم بحرارتها وضوئها ، وتلوح جلودهم بنارها .

اما سكان الاقليم السادس والسابع (من 48 الى 53 ومن 54 الى 59) فهم بيض البشرة ، لان هواءهم بارد ، والشمس لا تتجاوز افاقهم في اوجها ، فيضعف الحر ، ويشتد البرد في عامة الفصول ، فتبيض الالوان ، وتزرق العيون ، وتصهب الشعور ، وتبرص الجلود ، لهذا قال ابن سينا في ارجوزته :

بالزنج حر غير الاجسادا
حتى كسا جلودها سوادا

والمقلب اكتست البياضا
حتى غدت جلودها بضاضا (1)

والبيئة هي التي صاغت ابناء الصحراء على ما يلائمها ، من نحولة في الاجسام ، وسمرة في الالوان ، وحدة في البصر ، وقناعة بالقليل ، وعزة في النفس ، وصلابة في العزيمة ، وصبر على المشقات ، وصراحة في المقال ، وايثار للايجاز ، واكتفاء باللمح والرمز .

وهي التي اكسبت سكان الشواطيء قوة في السواعد، ومتانة في الصدور ، ليجوسوا البحار بسفنهم ، ويحركوا مجاذيفها بسواعدهم

وهي التي زودت سكان الجبال بقوة في ارجلهم، تسهل عليهم ان يتسلقوها ، ويطاردوا حيوانها

كذلك اثرت في تتر منغوليا ، فصارت اكتافهم مرتفعة ، واعناقهم قصيرة ، لان بلادهم ذات ريح باردة، لا بد لهم من اتقائها ، وخير وسيلة عندهم رفع اكتافهم، وجمع اعناقهم ، وضم بعضها الى بعض . وهم ذوو عيون ضيقة واجفان غلاظ منتفخة ، نتيجة لهذه البيئة نفسها ، لان الريح الباردة لا تلائمها العيون الواسعة ، اما غلظ الاجفان فهو الوقاية من الريح ومن برودتها ، على ان بلادهم مملوءة بالثلج الذي يتلألأ في ضوء الشمس ، فياخذ بالابصار ، فالعيون الضيقة هي التي تستطيع الابصار في هذا اللألاء .

— 2 —

وليس من شك في ان الانسان يخضع لمؤثرات اخرى ، تشكل طباعه واخلاقه وعاداته ومزاجه ، فينطبع اتجاهه الفني بهذه المؤثرات ، ويتشكل بالمزاج والاخلاق والعادات ، فهنالك النظم السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ، لكن البيئة الطبيعية هي المؤثر الاول ، والعامل الفعال ، حتى ليصح ان نشبه النفس الانسانية بالقيثارة، توقع عليها الطبيعة وغيرها ضروبا من الالحان والانغام ، هي رجع لما في البيئة الطبيعية من مظاهر الخير والشر والجمال والقبح اكثر مما هي صدى للمؤثرات الاخرى

وليس يخفى على الباحثين ان للبيئة اثرها العظيم في مفردات اللغة ، لان اللغة وسيلة التفاهم والتعليم والاخبار ، والذين يعيشون في بيئة واحدة يتواضعون على كلمات خاصة تابعة من بيئتهم ، ويطلقون اسماء معينة على مسميات يعرفونها

ومن هنا نجد البيئة الصحراوية غنية بكلمات متصلة بالرمال والتلال والخيام ، وغنية بكلمات متصلة بالابل والخيل والغنم وحيوان الصحراء ، على حين انها فقيرة فيما يتصل بالبحر والسفن والملاحة والزراعة .

ونجد البيئة الزراعية ثرية بمفردات دالة على الزروع والات الزرع والحصاد ، وهي في الوقت نفسه قليلة الكلمات الدالة على ما يتصل بالصحراء

اما البيئة البحرية فان في لغتها كثيرا من الكلمات الدالة على البحر والموج وحيوان البحر ، وعلى السفن والملاحة ، لكن كلماتها الدالة على البيئة الصحراوية او الزراعية قليلة ضيقة النطاق

فاذا ما تجاوزنا المفردات الى العبارات والى الخيال تبين لنا انها مطبوعة بالبيئة

فسكان الصحراء ينتزعون منها صورهم وخيالهم من تشبيه واستعارة وكناية ، ولهذا شبهوا الشجاع بالاسد ، والكريم بالغيث ، والحليم بالجبل ، والقوى بالصخر ، وانتزعوا من البيئة صورا شتى في غزلهم وفخرهم ورثائهم ومدحهم ووصفهم .

وجاءت كناياتهم مستمدة من بيئتهم البدوية ، فهم في توثيقهم للحلف والمعاهدة الدائمة كانوا يقولون : « ما بل بحر صوفة ، وما اقام رضوى — ان كان جبلهم رضوى ، وكل قوم يذكرون جبلهم او المشهور من جبالهم — في مكانه ، على حين ان القضاة في جزيرة الرجل Isle of Man كانوا اذا حلفوا على مراعاتهم للعدالة والقانون قالوا : اننا سنستقيم في تطبيق القانون استقامة العمود الفقري في ظهر سمكة الهرنج

كذلك كنى العرب عن العبث في تقديم شيء لمن يملك منه الكثير بقولهم : كمستبضع التمر الى هجر ،

1) المقدمة 71

على حين ان الانجليز يعبرون عن هذا بقولهم : كحامل الفحم الى نيوكاسل .

وشبه العرب الابيض بضوء الشمس او بشعاعها ، كقول سويد بن ابي كاهل اليشكري :

حرة تجلو شتيتا واضحا
كشعاع الشمس في الغيم سطع

اما الانجليز فشبهوا الابيض بالثلج As white as snow وهكذا يستمد كل قوم من بيئتهم ، ويتاثرون بها في تخيلهم وفي تصويرهم .

على ان للبيئة اثرها في ذوق اهلها ، وفي مقاييسهم للجمال والقبح . فالعرب مثلا استملحوا العيون الدعج والعيون الحور ، واعجبوا بالدعج في الابكار وبالحور (1) في الغزلان ، وشبهوا بهذا وذاك عيون الحسان . لكن التركمان استملحوا العيون الخزر - الضيقة - والوجوه العريضة المستديرة ، والاعناق القصار ، لان البيئة صاغتهم على هذا الغرار .

ثم ان العرب ابغضوا اللون الاسود ، وعدوه رمزا للكا بة والحزن ، ونفروا من الغراب ، وتشاءموا به ، لانه نذير الفرقة ، ولكن الزنوج يميلون الى اللون الاسود ، ويؤثرون المراة السوداء ، وكلما كان سوادها حالكا ازدادت في نظرهم جمالا واغراء وفتنة .

لكن تعميم الاحكام على العرب الجاهليين لا يخلو من اسراف وتزيد ، لان اتساع الجزيرة ، وتباعد اطرافها ، واختلافها في البيئة والجو ، وفي القرب والبعد من الممالك المجاورة ، واختلاف سكانها في الحضارة والبداوة ، كل هذا لا يكفل الصدق للاحكام العامة التي تشمل العرب جميعا .

فقد كانوا ينقسمون الى طبقات شتى ، تجمعها طبقتان كبريان : اهل المدر واهل الوبر ، فاما الاولون فهم سكان الحواضر والقرى ، وكان عماد حياتهم على الزرع والنخل وتربية الماشية والتنقل بالمتاجر ، واما الاخرون فهم قطان الصحارى ، وكانوا يعيشون على البان الابل والغنم ولحومها ، وينتجعون منابت الكلاء ، ويرتادون مواقع المطر ، فيخيمون بها ما وجدوا خصبا ومرعى ، فاذا نضب الماء ونفد العشب يمموا مكانا اخر فيه عشب وماء ، فهم لا يزالون في حل وترحال .

وكانت القبيلة الواحدة تنقسم احيانا هذين القسمين ، فيتحضر بعضها ، ويتبدى بعضها ، فهنالك قريش البطاح المقيمون بمكة ، وقريش الظواهر المقيمون بالبادية ، الاولون متحضرون والاخرون اعراب .

وهنالك عبد القيس ، بعضهم حضر اقاموا في عمان والبحرين ، وبعضهم بدو .

كذلك تغلب وبكر واياد كان بعضهم حضرا سكنوا شمالي العراق وما بين النهرين ، وبعضهم بدو في جزيرة العرب نفسها .

وجهينة كان قسم منها في البادية بنواحي جبلي رضوى وعزور ، وقسم اخر في الحاضرة بينبع ، وقسم ثالث في الصفراء وهي قرية كثيرة النخل والمزارع والماء ، وهكذا .

وكان هنالك بدو صبغتهم البداوة بصبغتها ، لانهم موغلون في البيداء ، يبعدون عن القرى ، يكاد التطور والتاثر بغيرهم لا يمسهم الا في حذر وعلى مهل وهينة ، وهؤلاء هم الاعراب الجفاة ، وهنالك بدو لم يصطبغوا بالبداوة هذا الصبغ ، لانهم يقيمون حول الحواضر والقرى ، عن كثب من سكانها ، وعلى صلات بهم ، وكثيرا ما كانوا على وشائج قرابة بسكان القرى التي يقيمون حولها ، وكثيرا ما كانوا قسما من القبيلة التي يقيم بعضها في الحاضرة او القرية ، كقريش الاباطح وقريش الظواهر ، وكجهينة ونهد ومزينة وهذيل وغيرها .

على ان هؤلاء جميعا اختلفت حرفهم واعمالهم ، فكان منهم تجار ورعاة وزراع وصيادون وصناع .

ومعنى هذا ان اللغة تاثرت بالبيئة العامة والبيئة الخاصة ، فجاءت المفردات والعبارات والصور والموضوعات صدى للبيئة الطبيعية وللاحوال الخاصة ، ولكن اثار البيئة الطبيعية اوسع واعمق .

القاهرة : الدكتور احمد الحوفي

1) الدعج : شدة سواد العين مع سعتها . الحور : شدة بياض العين وسواد سوادها مع استدارة الحدقة ورقة الجفون ، او هو اسوداد العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني ءادم بل يستعار لها

تعقيب

للعميد محمد عزيز الحبابي

سيادة المدير المحترم ....

وبعد :

في عددكم الاخير « 6-7 من السنة 9 » نشرتم للاستاذ محمد بن تاويت مقالا شرح فيه وجهة نظره عما صدر في مجلة «آفاق» «2 عام 1966» عن « فضيحة ادبية » وانا اذ اشكره على البيانات التي ادلى بها حفاظا على سمعته التي هي سمعة جامعي وباحث مغربي مرموق ، استغرب لهجته في العرض .

اظن انه لم يكن في حاجة الى ذلك الانفعال «خصوصا وانه «سماء لا تخشى» ، كما عنون مقاله.»

المفروض على كل مجلة تحترم الامانة العلمية مثل «آفاق» الا ترفض الاسهام في اظهار الحقيقة . لقد وقعت ، **بالفعل** ، لصوصية ثقافية مخزية ، وتوصلت « آفاق » بمقال مركز يتهم فيه « مؤلفان »، احدهما مشهور بالجهل والتدجيل والسطو ، فكان لزاما ان يفضح ليمحص ناسنا امره ويحتاطوا ممن تسول له نفسه ان يستغل الثقافة للكسب الحرام ، واما « المؤلف » الثاني فمغربي محترم ، قدير في ميدانه ، واستاذ بكلية الاداب ، ومعزوز لدى اسرة «آفاق» لانه من افرادها الاوائل . فكان من الواجب ان تتضح الامور بالنسبة للاول ، ويتمحص الزور فتصان كرامة الثاني من عبث العابثين « خصوصا وقد قيل ما قيل ..»

فليتأمل الصديق ابن تاويت القضية ، باعصاب هادئة : ما دامت «آفاق» تركت له الباب متسعا للاجابة عن التهمة ، لم يبق له اي عذر في الابراق والارعاد والاستعانة بـ « سماء لا تخشى » ، **ولهجات** لا مبرر لها سوى غضب غير مشروع . ان الذنب الوحيد الهائل ، او «الكبيرة» التي لم يغتفرها لافاق الزميل ابن تاويت ، هي اننا اتخذنا موقفا من التهمة ، فزكينا ابن تاويت ، علانيا باسود على ابيض ، شهادة للحق ، ودفاعا خالصا عن كرامة جامعة محمد الخامس وعن اتحاد كتاب المغرب العربي «هيآتان ينتمي اليهما ابن تاويت » ، في حين تركنا الفضيحة فوق وجه باهت ، هو وجه المتهم الآخر « المؤلف الحقيقي » تصفعه دون هوادة . وها ما قلناه بالحرف في تقديم المقال :

« احتراما للامانة العلمية ، ننشر المقال الاتي الذي يحتوي على تهمة خطيرة ، مع المحافظة بحق الاجابة للمؤلفين . واسرة «آفاق» وان كانت لا تعتبر نفسها طرفا في القضية ، ترى من واجبها الاخلاقي ان تشهد ان محمد ابن تاويت معروف في كل الاوساط المثقفة بالمغرب بمعرفته وامانته ، لذا فهي في حيرة ، وتتمنى ان تنشر في العدد المقبل ما يزيح الستار عن الحقيقة » .

انها شهادة في صالح ابن تاويت ، قلناها لصالح الصدق . فتزكية من هذا النوع افيد للحقيقة ولابن تاويت من عشرات المقالات التي يمكنه هو ان ينشرها : شهادة الحبابي على ابن تاويت خير من شهادة ابن تاويت على ابن تاويت ، وتزكية من **اسرة آفاق** خير من شهادة ابن تاويت والحبابي معا «التواتر مقدم على رواية الاثنين ، بله الرواية الاحدية » .

اذكر الزميل ابن تاويت بانه قضى ليلة عندي بالبيت ، واني اخبرته بعزم لجنة آفاق على نشر ما ورد عليها بشأن « القضية » وانها ترجو منه جوابا يرجع فيه الحق الى نصابه. تقبل الفكرة متفهما موقف

المجلة ، كما تفرضه عليها رسالتها . ووعد بتحريـر ذلك بعد العشاء ، وفى الصباح ، وعد بتحريره بعـد الفطور .. ولكن الوقت استعجله فطلب مني ان يؤجل ذلك الى ان يصل الى تطوان . فانتظرنا .. وانتظرنا .. واتصلت به فى الموضوع ، ثانيا وثالثا .. وعوضا عن ان يبعث بالرد الـى «آفاق» ، اختار ان يرافـع امام محكمة «دعوة الحق» .. وان يهاجم من كانـوا شهوده الاوفيـاء . انه حر فى اجتهاده ، كما ان اسرة آفاق كانت حرة فى اجتهادها . «الشمس لا تخشى» ولكن المريخ ، ككل رفاقـه فى السماوات العلـى ، كذلك لا يخشى .. فالانتقام والاحتساب لؤم ، وليس من بين اسرة آفاق « وفى ضمنهم ابن تاويت » مـن يعرف بوغلان او بخـوسة النفس ، ولا من يحمـل قرونـا لينطح بها الصخرة «التاويتيـة» التي هـي كالشمس «مسكنها فى السماء» « كما جاء فى رد الاخ ابـن تاويت وهو يتحدث عن نفسه الزكية .

اننا فى «آفاق» جميعا زملاء ومعارف لابن تاويت، وكلنا نعتقد انه كان ضحية لمهارة السمسار المـزور صادق عفيفي .. فالذنب لا يقع على السيدين البكار والمنصوري الذين انتقدا الكتاب المعنى بالامـر ، ولا على «آفاق» بل على غفلة ابن تاويت ذاته . فلـم يتشكك فى المقاييس والموازين حتى ينبهم عليـه امرها ؟ ليس على ابن تاويت ان يكـون « حكيما » ولا فيلسوفا « كالحبابي!..» ليفهم الوضع بوضوح ولكي لا تأخذه الصيحة ببغي المدجليـن .

نعم ، لقد نصب الاخ ابن تاويت نفسه خصما عنيدا لحرية الراي والنقد ، وهذه بالذات نقطـة الضعف فى رده : فلعن «آفاق» ، مس بكرامة اسرتها «لانها ، فى نظره بهلاء ما تزال تؤمن بحرمة حريـة النقد والرأي» . هكذا رمانا بعقد دونها ذنب الضب : ضيقات متأزمة بكل شيء وكل شخص ، لان نظريـة ابـن تاويت هي ان كل ما ليس مدحا لشخصه فهـو تشف ، وجهل ، وميل مرضي لاشباع الطبائـع الحيوانية بأشلاء الضحايا مـن «البرآء الطيبيـن المثاليـين !..» فافراد اسرة «آفاق» فى نظـره ، سامحه الله : « يحسون فى قرارتهم بتلك الفجـوات العميقة التي تتخلل شخصيتهم ، فيحاولون ان يردموا تلـك الفجـوات ..» بنقـد غيرهم !..

مسـاكين نحن ! اذا ما انبرى احدنا يحلل كتابا او يقارنـه بآخر ، اتهم فى عقله ، وعرضه ، واخلاقه ، ووطنيته ، واتهمت معه المجلة التي سمحت بنشـر المقـال ..!

انظروا كيف تحدث سيادة الاستاذ ابـن تاويت عن اسرة «آفاق» ، باكمل «تواضع» ، من اعلى قمة سمائه التي لا تخشى : «ولنصرف الان وجهنا عـن **هـؤلاء النـاس** .. » لان « الحديث يطـول اذا ما تعرضنا ، بالتفصيل والتحليل ، لهؤلاء الناس.» شكرا لصاحب المقال الرفيع ، والمعالي ، والتعالي على تلطفه الكريـم ..

اصابنا الدوران ، ولكن الله سلم . قد كـادت صواعق « تاويتية » ان تنزل بنا ، « اللهم لا علينا ولا حوالينا !.. فتنفرقع دنيانـا ، بما فيها من اخضـر ويابس ، ويصبح المغرب غير المغرب .. وتتذعر السماء تلك التي «لا تخشى» ، « الا ابـن تاويت» .

واخيـرا :

اعطت اسرة آفاق شهادة فى صالح ابن تاويت ؛ ولكنه ، وبالاسف ، ابى الا ان ينفعل انفعالا ينافـي اللياقة والوقار العلمي ، مما جعلـه يستعمل عبارات نابيـة فيرمي الاخرين باللؤم «لا شك من غير مـا ارادة منه » والبلادة ، وبكثير مـن النعوت التـي ربما يؤولها بعض القراء ، او جلهم ، بسوء نيـة الاستاذ ابن تاويت ، او بانـه غير مقتنـع بموقفـه ؛ فكما يقول المثل العامي : « اللي فيه الفز تايقفز » .

فبـاسم اسرة آفاق ، اؤكد ان تزكيتنا للاستـاذ ابن تاويت ما زالت هي هي ، رضي ام غضب ، لانهـا صادرة عن وعي واقتنـاع .

وتفضلوا ، سيـادة المدير ، بقبول عبـارات التقديـر والزمالـة .

عـن اسـرة آفاق
محمد عزيـز الحبابـي



للأستاذ : محمد بن تاويت

قرات فى العدد الصادر من مجلة « دعوة الحق » العامرة ، بحثا للدكتور محمد عزيز الحبابي ، عن شكسبير بعنوان (شمولية شكسبير) فاسترعى نظري منه ، هذا العنوان الذي لاينسجم تماما مع ما ورد فى صلب البحث . ولي بعد هذا كله ملاحظة على ما ورد فى البحث المذكور ، يمكن ان نجملها فيما يلي :

يقول الباحث « منذ عدة قرون خلت ، قبل عصر شكسبير ، حاولت بريطانيا تاسيس علاقات تجارية ودبلوماسية مع المغرب »

واني بالرغم من اتصالي بهذه العلاقات والبحث فيها منذ سنة 1951 ، حيث نشرت فى مجلة « رسالة المغرب » بحثا عن الزابث والمنصور ، لم استطع التوصل الى هذه الحقيقة التاريخية التي سجلها الباحث ، فى كون العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع المغرب كانت من قبل شكسبير بعدة قرون خلت ... فهل لباحثنا الكريم ان يدلنا على المصدر الذي اعتمد عليه فى هذا ؟ ثم يقول « فمنذ سنة 1577 اقامت الملكة اليزابث علاقات ديبلوماسية مع المغرب حين عينت ادموند هوكان سفيرا لدى السلطان عبد الملك ، فحسب حولية قديمة وصلت اول بعثة دبلوماسية انجليزية الى المغرب بتاريخ 1211 وقد وفدت باسم الملك جون تلتمس عون الامبراطور المغربي محمد الناصر ، لقد كانت انجلترا آنذاك تبحث عن وسائل دبلوماسية وحربية المحافظة على ممتلكاتها باكتين (مقاطعة بالجنوب الغربي لفرنسا ، التي كانت مهددة من قبل جيوش اسبانيا ... »

ففي هذا النسق تشويش ، حيث يبني بالفاء في (فحسب) على ما اقامت الملكة اليزابث سنة 1577، تلك العلاقة التي حاولها الملك جون سنة 1211 ، ثم انه يجعل مقاطعة اكتين مهددة من قبل جيوش اسبانيا، وهذا ما لم يذكره التاريخ ، بل ذكر ما نشرناه فى العدد 1958 ـ 59 من مجلة تطوان ، ان الملك جون احس بان بارونات Barons فرنسا ـ لاجيوش اسبانيا ـ يفسدون عليه جهاز الحكم فى هذه المقاطعة . وهذا لفرنسيس ميثال Frances Maenal اسمه الذي قلناه يعتمد على عدة مصادر ، منها كتاب A Ride in Morocco ومنها بحث كان صديقنا نبل بربر قد القاه فى مؤتمر بموسكو وعربناه فنشرناه بالعدد الصادر من المجلة المذكورة 1960 ، وهو الذي احال على المدونة الكبرى ، التي اشار اليها الباحث الدكتور ، وكتاب لصاحب البحث صدر بعنوان A Survey of North West Africa اما كتابه الذي صدر اخيرا بعنوان « Morocco » والذي أحال عليه باحثنا الدكتور ، فانه لم يذكر هذا التهديد من قبل جيوش اسبانيا ، ولا نحن ذكرناه ، كما احال عليه منشورا بمجلة تطوان 8 ، عام 1963 وفقه الله ..

ولهذا نرى ان هذه الحقائق التاريخية تنقصها الواقعية ، كما ينقصها النظام فى عرضها والوئام بينها وبين عنوانها .

تطوان : محمد بن تاويت



للأستاذ : أحمد زياد

- 3 -

ان الديمقراطية الموجهة او التخطيط المركزي قد وضعا في امتحان عسير ببعض البلاد النامية - ان لم نقل باكثرها - وان الاتهام الذي وجه الى هذه الديمقراطية كان مكه هو نفس التخطيط المركزي الذي مني بالفشل التام في البعض من تلك البلاد ، وباخطاء وخيمة العواقب في البعض الاخر منها .

وشيء اخر لا بد من الاشارة اليه ، الا وهو ان الاشتراكية قد تعرضت خلال مدة طويلة الى شيء غير قليل من التعقيد الناشيء عن دراسات جافة لجوانبها ، هذا التعقيد الذي ورد على البلاد النامية ضمن ما ورد عليها من « الغارات الاشتراكية » التي كانت تشتمل على الكثير من الغث وعلى القليل من السمين ، فكان من شان هذا التعقيد ان وضع الكثير من اللبس والغموض حول الاشتراكية التطبيقية التي كان على البلاد الافريقية ان تمارسها ، وهي اشتراكية تخالف الاشتراكية النظرية التي لا يؤدي فيها التضارب الى ما يؤدي اليه في ميدان الاشتراكية التطبيقية ، فمئات الكتب والاف الدراسات قد وضعت في الاشتراكية ، بيد ان القليل منها هو الذي التزم مناهج تطبيقية واستمد من الواقع الذي يعيشه كل بلد يتدرج في مراحل النمو الاقتصادي ، واذا لم يكن هنالك مانع من تضارب الاراء والنظريات حول الاشتراكية فيما قبل سنوات خلت ، فان ما طرأ على الاشتراكية نفسها خلال مراحل تطبيقها يعد امرا يقضي بتبسيط تلك النظريات لكي تصبح تصاميم ومخططات تجمع فيما بين المبدأ الاشتراكي وتاخذ بعين الاعتبار مختلف البيئات والظروف .

ويمكن لمختلف التجاريب التي وقعت ممارستها ان تساعد على مثل التبسيط ، وان تكون عناصر لصياغة بناء اشتراكي محدد المعاني يرتكز على التجاريب اولا ويستعين بالنظريات ثانيا .

وبالفعل فان هذا الاتجاه قد اخذ يبدو في بعض ما ينشر وما نشر اخيرا من ابحاث ودراسات عن الاشتراكية ، هذه الاشتراكية التي تنصب في اول ما تنصب على الاقتصاد وتتناول عن طريقه مظاهر التخلف لتحقق غايتين اثنتين : اولاهما التنمية بمعناها العام ، وثانيتهما العدالة الاجتماعية ، والنمو الاقتصادي وتوزيع الثروات عاديا هما الدعامتان الاساسيتان في بناء كل هيكل اشتراكي .

وان احسن رد يمكن ان يكون مقنعا وغير قابل للجدل فيما يخص دحض ما يتضمنه ملك الاتهام ضد الديمقراطية الموجهة والتخطيط المركزي - ليكمن في انتهاج سياسة اشتراكية مبسطة المفهوم مجردة عن كل تعقيد تستمد روح فلسفتها من الواقع ومن الموازنة الدقيقة فيما بين الربح والخسارة

ومنذ زمن قليل اخذ الحديث يدور حول الاشتراكية الافريقية ، ويتزايد ما كتب فيها ويعد احسن ما كتب عن الاشتراكية الافريقية هو ما جاء في اعقاب التجاريب التي كانت عبر التطبيق فيها اوضح وانصع من مجرد التحليل الذي يعني اكثر ما يعني باستعراض مختلف النظريات وتمطيطها تمطيطا يزيد الطين بلة في التعقيد والغموض.

كتب الدكتور رشيد البراوي وهو خبير اقتصادي في موضوع الاشتراكية الافريقية بحثا يتوفر على عنصري الضبط والوضوح . ومن المناسب ان نسوق ملخصا لما كتبه الاستاذ البراوي في هذا الموضوع :

ان الاشتراكية الافريقية اراؤها في التنظيم الاقتصادي :

اولا ـ فهي تؤمن بالتخطيط ، والتخطيط كما يقول « سيكوتوري » موجود في النظام الرأسمالي وفي النظام الاستعماري وفي النظام الاشتراكي ، ولكن الاهداف تختلف حسب الظروف والغايات العامة، وعلى التخطيط الاشتراكي ان يواجه حقائق المجتمع اولا وقبل كل شيء وان يعمل على زوال العيوب والتناقضات القائمة ، فاذا فرضنا وجود موارد طبيعية مثل الحديد والبوكسيت والكهرباء مثلا ، فهذه جميعا دعامة تقوم عليها صناعات قوية ضخمة لها قيمتها من وجهة النظر الاقتصادية البحتة ، ولكن هل يفيد هذا الشعب كله الذي يقوم اغلبه على الزراعة والذي يعاني ما لا يقل عن 95 في المائة من افراده من الفقر والجهل والمرض، الجواب بالنفي ، وهنا يجب ان يراعي التخطيط الحاجيات والاهداف الاجتماعية الشاملة .

ثانيا ـ ان الارض ملكية جماعية للقرية والاساليب المتعملة عائلية واحيانا فردية فهل تقسم الارض وتوزع في ظل ملكية خاصة يقررها التشريع ، لو فعلنا هذا لادى الى انقسام المجتمع الى طبقات ونشوء الصراع ، واذا اخذنا بالنظام الجماعي في الزراعة ووسائل الانتاج والمحصول لاثار هذا العمل رد فعل عنيف يعرقل قوى الانتاج بدلا من ان يطلق سراحها ، واذن فالملكية الخاصة المطلقة كاساس للاستغلال الزراعي كما تذهب اليه الفلسفة الليبرالية والنظام الجماعي مما يطبق في الاتحاد السوفياتي ونظام الكوميزنات الذي تطبقه الصين الشعبية ـ هذه كلها لا تتفق مع حقائق المجتمع الافريقي وحاجاته واهدافه ، وهنا تنحو الاشتراكية الافريقية منحى اخر فتاخذ بالنظام التعاوني وفيه :

ا ـ القضاء على الاستغلال (ب) وتنمية الانتاج بالاستفادة من مزايا الانتاج الكبير (ج) واشراك الشعب نفسه ايجابيا في العملية الانتاجية .

ثالثا ـ وتاخذ الاشتراكية الافريقية بمبدأ التاميم بوصفه وسيلة لغايات عدة هي :

ا ـ تحرير الاقتصاد القومي من الاستغلال الاجنبي ، ولدينا امثلة على هذا من الجمهورية العربية المتحدة وغينيا ، كما ان المغرب قرر اخيرا تاميم المرافق العامة الرئيسية ويدخل فيها جهاز النقل بالسكك الحديدية

ب ـ السيطرة على العوامل المؤثرة والموجهة في البناء الاقتصادي كالبنوك وشركات التامين ومؤسسات التجارة الخارجية ، وهذا يتيح تحقيق اهداف الدولة ويعاون على الاسراع بعملية تجميع رأس المال اللازم للتنمية بسبب قصور عملية التجميع او ما يقرب من انعدامها نتيجة الاوضاع في العصر الاستعماري .

ج ـ انشاء المشروعات ذات الاهمية الاستراتيجية للاقتصاد القومي (الكهرباء صناعات الحديد والصلب) .

وهنا نقول انه لما كان التاميم وسيلة وليس غاية في حد ذاته ، لهذا فانه ينفذ في حدود معينة تختلف من بلد الى بلد ، ففي الجمهورية العربية المتحدة مثلا وحسب القوانين الصادرة في يوليه سنة 1961 قسم النشاط الاقتصادي الى فئات ثلاث ، الاولى طبق عليها التاميم الكامل ، والثانية اشتركت فيها الملكية العامة بنسبة النصف ، والثالثة حدد اقصى ما يملك الفرد فيها بما لا يتجاوز مجموعة عشرة آلاف جنيه ، والى جانب هذا كله ، هناك فئة رابعة لم يتدخل فيها القطاع العام اطلاقا، والقول بان التاميم ليس بالغاية عبر عنه مؤتمر غينيا الديمقراطي بقوله : هل التاميم الشامل هو الهدف ، الجواب بالنفي ، فالتاميم وسيلة لاهداف ولا يمكن ان يتم كيفما اتفق ، وانما يجب ان يتم حسب الظروف والاعتبارات العامة

هنا تختلف الاشتراكية الافريقية عن النظام الغربي لانها لا تعترف بالنشاط الاقتصادي الحر الطليق القائم على اسس الملكية الخاصة اصلا والمنافسة وعامل الربح وهي تختلف في الوقت نفسه عن النظرية الماركسية فلا تطبق مبدأ الملكية لادوات الانتاج لانها تعتبر الملكية وظيفة ولها حدودها ، وان هذه الملكية ينبغي الا تكون اداة للسيطرة والاحتكار والاستغلال ، ولهذا فينما تاخذ بمبدأ الملكية العامة في الحدود التي تحرسها المصلحة العامة تعترف بدور الملكية الخاصة فتترك لها الحرية في نطاق الاهداف العامة ، او تشترك معها وحتى في البلاد التي لا تقر هذا الاتجاه او تسير عليه بصورة واسعة النطاق تجد الدولة تقيم صناعات ومشروعات وتشترك مع رأس المال الخاص في اقامتها كما في نيجيريا مثلا .

وللتاميم الافريقي طابعان ، فضلا عن ذلك ، وهما انه يتم بالتدريج وفقا لمقتضيات الاحوال كما انه ياخذ بمذهب التعويض العادل كما حدث في انجلترا مثلا ويرفض فكرة المصادرة .

رابعا - وتعنى جميع المنظمات الديمقراطية في البلاد الافريقية بالتصنيع ، ويبدو من البرامج التي هي موضع التنفيذ الان او التي يجري اعدادها الواقعية التي تتصف بها ، فهي تريد اولا ارساء القاعدة التي يقوم عليها البناء الصناعي ، وترفض الطفرة التي تقضي على التوازن بين عناصر الاقتصاد القومي ، ولانها تدرك ان هناك عنصرا اخر لا يجب ان تكون لها الاولوية من وجهة نظر المصلحة الاجتماعية العامة ، وفي هذا يقول تقرير الحزب الديمقراطي الغيني مثلا « واضح ونحن نبدأ من الصفر فلا محل لان يعمل برنامج السنوات الثلاث على انشاء الصناعة الثقيلة ولو كنا نملك في ارضنا عناصرها الرئيسية » لان هذه الصناعة بحاجة الى رؤوس اموال وفنيين وخبرات مما لا يتوفر للبلاد الان ، ان قادة هذه البلدان ممن امنوا بالفلسفة الاشتراكية يدركون القيود الحالية او الحدود الحاضرة ، ومن هنا يرون ان يسير التصنيع على مراحل وان يكون وسيلة لدعم التنمية الكلية . »

ويقول الزعيم الافريقي «طومبوبا» في موضوع الاشتراكية ما معناه :

« والواقع ان في بعض اجزاء قارتنا فوضى مؤسفة حيال هذا المفهوم وغيره من المفاهيم ، وكم ارجو ان يعكف شعبنا على التفكير لنفسه بهذا الموضوع . فلقد ظهر افريقيون يدعون انفسهم اشتراكيون - « اشتراكيين افريقيين » - ولكنك ان دققت النظر في تفكيرهم وجدت انهم يتبعون تخطيط الفكر الاجنبي اتباعا اعمى . انهم في افعالهم يعتنقون مبادىء تضر جدا بمفهوم الاخوة الافريقية يردد هؤلاء المدعوون « اشتراكيين » الشعارات الاجنبية ترديدا ببغائيا » ويسمحون لانفسهم بالانحراف مع عواطف لا علاقة لها مع اماني شعبنا النبيلة ، **ويبدو لي ان مع افريقيا التي اخذت تتخلص من الاستعمار الغربي ما تزال تحارب خليفته المعروف ((بالاستعمار الجديد)) فان هناك جهادا آخر لابد من حمل رايته : هو الجهاد ضد الاستعمار الفكري، يجب الشروع بهذا الجهاد منذ الان، جنبا الى جنب مع النضال من اجل الاستقلال الاقتصادي ، هذه الحقيقة البارزة هي التي تجعلني اعلق اهمية كبرى على مفهوم ((الاشتراكية الافريقية)) .**

عند ما اتكلم عن « الاشتراكية الافريقية » فانا اعني قوانين السلوك المثبتة في المجتمعات الافريقية التي عملت خلال العصور على اعطاء ابناء شعبنا كرامة وامنا . بغض النظر عن مراكزهم في الحياة اعني المحبة الشاملة التي تتصف مجتمعاتنا بها ، واعني مجاري الفكر الافريقي والمبادىء التي لا تعتبر الانسان وسيلة اجتماعية بل نهاية للمجتمع وغاية »

وهكذا يبدو ان المذهب الاشتراكي وتحليل جوانبه وقع فيهما الشيء الكثير من «التهافة» وتهافة التهافة - بلغة علماء الكلام - فكان لهذا التهافة النظري آثاره البعيدة في تطبيق التخطيط الاشتراكي ، وانعكست هذه الاثار على اساليب الحكم واساليب التنمية فكانت النكبات التي تتوالى مشاهدها المؤسفة في بعض البلدان النامية ، بل ان الاشتراكية انقلبت الى عملة زائفة حتى في بعض النظم ذات الطابع الاقطاعي الصميم . وبذلك اصبح من الضروري ان ياتي المدلول الحقيقي للاشتراكية في تخطيط واضح المعالم تتجلى فوائده وعدالته في اصلاح زراعي واقعي رصين الاسس . متكامل الجوانب يحسب خطواته اكثر مما يكرز فقراته . وفي

ميلاد حركة التصنيع ينضبط سيرها بمقاييس تكون حالة الوسط بين قفزات الارنب الروسي وخطوات السلحفاة الهنديـــــة

المشكل رقم واحد في افريقيا

تعتبر الزيادة المطردة في عدد سكان افريقيا في طليعة القضايا التي يجب ان ينظر اليها بالكثير والاوفى من الاعتبار ، وذلك ضمن كل مخطط للنمو الاقتصادي، فالزيادة في عدد المواليد لا تساير ولو بنسبة قريبـــة تطور الانتاج وارتفاعه

ولئن كانت هذه الظاهرة لا تعتبر جديدة بالنسبة للاقطار الافريقية فان عهد الاستقلال والمسؤولية وضعها بكيفية جدية ، لان الاستعمار كان يعتبر هذه الزيادة في صفوف المواطنين تعزيزا لخطته في تشغيل اليد العاملة الافريقية بثمن بخس ، وذلك الى جانب استثمار الخيرات الافريقية ضاربا ـ في هذه الحالة ـ عصفورين بحجر واحد

فمما يلاحظ بهذا الصدد ان عدد السكان في القارة الافريقية قد ارتفع خلال النصف الاول من هذا القرن من 120 مليون الى 199 مليون ، اي بنسبة 66 في المائة ، وهذه النسبة ينتظر لها ان ترتفع بشكل حاد ومخيف خلال النصف الثاني من هذا القرن حيث ستصل الى 260 في المائة وبذلك يمكن ان يقفز عدد السكان الى 517 مليون خلال سنة 2000

ان هذه الزيادة المنتظرة لا بد وان تثير مشاكل اقتصادية يتعلق جانب منها بتوفير الغذاء ، بينما يتعلق جانب اخر منها بتوفير الشغل ، فاذا كانت افريقيا تعتبر ثانية القارات من حيث المساحة « 11مليون كلم مربع » وغزيرة الامطار في بعض المناطق فلا بد من ان يوضع في الحسبان الملاحظات الحيوية الاتية :

1) بالرغم عن غزارة الامطار في كثير من الجهات لا يسعنا اغفال الاثر الناجم عن ارتفاع نسبة البحر في بعض الانحاء مثل ليبيريا وسيراليون والسينغال

2) ان مناطق شاسعة الاطراف انما هي عبارة عن صحراء او في حالة الجفاف الكلي او نسبي ويقدر ان 36 في المائة من المساحة الكلية للقارة غزيـــر الامطار في حين ان 16 في المائة قاحل و 22 في المائة شبه قاحل

3) يجب ملاحظة مشكلة تتجلى في ظاهرتين لا تقل احداهما اهمية على الاخرى ، اولاهما الصبغة الفصلية للامطار الشيء الذي يترتب عنه ان بعض المحاصيل التي يتطلب نضجها وقتا يزيد على الفصل المطير ، فتتعذر زراعتها او تتعرض لاخطار شديدة ، اما الظاهرة الثانية فهي التفاوت الواقع في كميات المطر من سنة الى اخرى

4) تأخر الاساليب المتبعة في الزراعة وعدم الاهتمام لمقاومة الاثار المترتبة عن تآكل التربة وانهاك الارض للمغالاة في تربية الحيوان وانتشار بعض الامراض التي تفتك بانواع من النبات من مثل الكاوكاو والقطن والحبوب

5) بالرغم عن كبر مساحة القارة فانها لا تضع سوى 10 في المائة من الماشية بالنسبة للاحصائيات العالمية اكثر من ربعها من فصيلات الماعز و 15 في المائة من الاغنام

ان هذه الملاحظات الخمس تبرز المشكلة الزراعية في افريقيا وتفرض انه ينبغي وضعها في مقدمة ما يجب صرف العمل والجهود اليه اذا اريد ان نواجه الزيادة السريعة والكبيرة المنتظرة في عدد السكان فنصيب الزراعة في الاقتصاد الافريقي ما يزال ضئيلا اذا قيس بما يلقاه من عناية في بلاد اخرى وخصوصا منها البلاد المتقدمة ، ثم انه اذا كان لا بد من العمل على زيادة المساحة المزروعة ورفع مستوى الطاقة الانتاجية فلا بد من استخدام عدة وسائل ، في مقدمتها تنفيذ مشروعات الري والمحافظة على التربة والتوسع في استخدام الاسمدة وتحسين مستوى الاساليب والمعدات والالات وما اضيف الى ذلك ، كما ينبغي توفير العلف وموارد العيش للحيوانات والقيام بحملات واسعة للقضاء على الامراض والحشرات التي تضر بالحيوان والنبات . وينبغي الى جانب ذلك صرف الجهود واستغلال الموارد كلها لتوفير العمل للمواطنين ورفع مستوى الحياة ، وفي طليعة ما ينبغي تنبيه الاهتمام اليه والتوسع في استغلال الثروات المعدنية التي تعد من اعظم الامكانيات في القارة الافريقية

وهكذا يبدو من خلال هذا التحليل انه اصبح من اللازم ان تخضع مشكلة التناسل الى مقاييس التطور

التي تحتم مفاهيم القرن العشرين السير بمقتضاه ، ذلك ان التفويض والتواكل لم يعد لهما مدلول في هذا العهد الذي اصبح فيه كل شيء من طاقات بشرية وانتاجية يجب ان يخضع للاحكام التي تصدرها الاحصائيات ، هذه الاحصائيات التي تؤكد احكامها المرة تلو الاخرى ان حركة المواليد في البلاد النامية لا بد وان تتقيد بامكانيات التغذية والشغل والعكس ليس بالامر الصحيح

فحالة الفوضى المخيفة فيما يخص تزايد سكان القارة الافريقية يلحق افدح الاضرار بحركة التنمية ، وذلك بما تحدثه هذه الحالة من اخلال فيما بين التوازن الاجتماعي الذي يعد الغاية المثلى في برامج النمو الاقتصادي

ومن ثم كان من الطبيعي ان تفرض هذه المشكلة نفسها فرضا على البلاد النامية في كل من اسيا وافريقيا ، الا ان التخفيف من حدتها يتطلب شيئا من الجرأة والتجرد عن العواطف وكبت الغريزة بما يتلاءم واهمية المشكل وعواقبه الوخيمة على النمو الاجتماعي الذي من مستلزماته التنظيم البشري .

فالانتاج في الكمية البشرية عملية سهلة ، بيد ان الانتاج في الكمية الغذائية يعترضه الكثير من الصعوبات، فلا مناص اذن من ايجاد توازن فيما بين القطاعين حتى لا يطغى احدهما على الاخر فيزداد المشكل تعقيدا ، ثم سرعان ما يفضي هذا التعقيد الى كوارث جماعية وما يترتب عنها من امراض يتساوى في عواقبها المصابون والسالمون .

واذا كان صحيحا ان افريقيا تتوفر على امكانيات في باب الثروات المعدنية وان هذه الامكانيات تمثل احيانا النسبة المئوية تقفز الى 96 في المائة فان الامر صحيح كذلك بالنسبة الى انعدام الوسائل التي تجعل في الامكان استغلال هذه الثروات ، وفي مقدمة هذه الوسائل الاطر الضرورية

وتكوين الاطر رهين هو ايضا بوجود تخطيط مركزي ترتب مشاكله ترتيبا ابجديا يحول دون تقدم حروف المؤخرة على حروف المقدمة ، فالعناية بالزراعة والانصراف الى رفع مستواها يشكلان حركة النبض بالنسبة لكل هيكل في كل تخطيط للنمو الاقتصادي ثم التصنيع التدريجي ليزيد في طاقة التنفس الاوكسيجيني ان صح هذا التعبير .

لقد تحدث الخبير الاقتصادي الفرنسي (ديمون) في كتابه « الانطلاقة الخاطئة لافريقيا » عن هذا الموضوع فقال :

اخذت البلاد الافريقية الفتية عهدا على نفسها بتنظيم اسس تنميتها الاقتصادية ، وها هي ذي تباشير التصميمات في الاستثمار على اوسع نطاق ممكن حسبما تسمح به مواردها الطبيعية والبشرية ، وقد توفرت تنمية المنتوجات الفلاحية والصناعية على الحصة الاولى في مجموعة الجهود المبذولة والاهداف المتوخاة والاسبقية لا تمنح الا لما هو اكثر اهمية واشد الحاحا واستعجالا

وهنالك مقاييس فنية محضة في هذا المضمار بعيدة كل البعد عن التيارات السياسية في البلاد مثلما هو الشان في السنغال والكامرون والداهومي ، غير ان السياسة اذا كانت ذات مرونة فانها تساعد على انجاح التصاميم وذلك بالحد من عدم التساوي فيما بين الموارد الطبيعية وتعيين استثمارات راس المال ، وكذا النفوذ الذي تحظى به الامتيازات التجارية واستجلاب اقصى ما يمكن من المساعدة الخارجية ـ عند الاقتضاء ـ كما هو الشأن في الخطة التي تنهجها وزارة الفلاحة بالجمهورية الملغاشية

واعظم عامل يجعل اصناف الاقتصاد الافريقي تخطو بثقة نحو التقدم والازدهار ، هو ذلك الالتزام المشترك فيما بين الحكومة والشعب ، القائم برمته على حرية اختيار الواعي للاعمال لتي يمكن انجازها والتضحيات التي يمكن بذلها .

واذا كانت بعض الحكومات الافريقية تنتسب الى المذهب الاشتراكي من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية والنمو السريع فان تلك الحكومات كلها ، لا تنظر للامر من زاوية واحدة ، فالمفاهيم والتأويلات تختلف عن بعضها البعض ، وليس الامر بتحقيق فوري للمدلول الاشتراكي الكلي ، ولا يجعل الاقتصاد جماعيا بصورة شمولية ، تحت اشراف ادارة مركزية قوية . او بعبارة اوضح من نموذج سوفياتي ، فالصين الشيوعية التي كانت تسير بخطى حثيثة جدا كان لزاما عليها ان تقطع في هذا

المضمار مرحلة ثمان سنوات تقريبا قبل ان تصبح حركتها الثورية تكتسح البلاد الصينية من اقصاها الى اقصاها ، فلقد كان لتلك ثمرة عدة تجارب في الحكم يرجع عهدها الى اكثر من عشرين سنة على مناطق بالغة الاهمية .

ان الاناة لا بد منها في انجاز المشاريع والا اصبحت الحالة مصداقا للمثل القائل : « اذا خرج الشيء عن حده تحول الى ضده » فالاشتراكية الافريقية ليست ظروفها مشابهة لظروف اشتراكية الصين او الاتحاد السوفياتي ... فالاوضاع في الاقطار الافريقية جديدة . ولا بد من ان تكون تلك الاشتراكية المتوخاة سائرة جنبا الى جنب مع مصاعبها الذاتية وظروفها وملابساتها، فالجو السياسي تطرأ عليه تطورات هامة ، وليس النظام الشيوعي باقل قساوة وصرامة من النظام الرأسمالي ، غير ان هنالك بعض التمويهات من هذا الجانب او ذاك، تجتذب الناس بين الاونة والاخرى .

ان الاشتراكية الحق تعطي الاسبقية لارضاء الرغبات والحاجيات الاكثر الحاحا من لدن الاغلبية الساحقة من الجماهير الشعبية الكادحة فهي تفضل بناء المدارس الابتدائية والمهنية للجماهير البدوية وتفضل ذلك على استيراد السيارات الفخمة الخصوصية من الخارج كما تسعى الى اشباع الافواه الجائعة في الاوساط الفقيرة ، وذلك بالذات ما يعينها على انتهاج المراحل الجوهرية في النمو .

واكبر عامل على نهضة المناطق الغابوية ، هو التشجيع على عمليات التشجير ، وبذلك يصبح الاستثمار اعمق فعالية واوسع نطاقا .

واذا تم تحديد الاتجاه في النمو ، اصبحت الاستثمارات في زيادة مطردة ولو كانت من مصادر متعددة ، ان القروض المالية قد تاتي وفق شروط سياسية وغايات لا تتلاءم دائما مع ضرورات النمو والمصالح الخاصة المتقيدة منها ، ومن البديهي ان الروح الاستعمارية لن تموت تلقائيا بالسرعة التي ترتجيها وذلك ينبغي اتخاذ الحذر والتيقظ امام الاحابيل والوعود المعسولة ، فلربما يكون السم في الدسم .

وهنالك استثمارات مالية خصوصية ما زالت تنهال على مدغشقر والسينغال وساحل العاج والكامرون ، وهذه

الاقطار لا يمكن ان تعتمد على الرأسماليين الاوربيين والامريكيين وحدهم في تشييد صرح افريقيا الفتية ، فهنالك قبل كل شيء النفقات الضرورية في التجهيزات الاساسية الاجتماعية وهي غير ذات دخل فهي لا تجتذب الباحثين عن الربح والفائدة .

وكان الرئيس (هوفويت بواني) عند ما استقبل الرأسماليين الكنديين في نوفمبر 1959 ليفسر لهم فوائد الاستثمار في بلاده ويقصد بذلك انخفاض اجور اليد العاملة الشيء الذي يترتب عنه ضمنيا حرية تصدير الارباح ، غير ان ذلك كله ، بما فيه من نظم تجارية وجمركية متشعبة الجوانب وبما فيه من مصاريف التجهيزات اللازمة لا يجعلنا نعول كثيرا ، قبل مضي وقت طويل على الاقتصاد الفردي المحلي من اجل امداده بالاموال الضرورية .

والتصنيع وكذا توسيع نطاق النشاط الفلاحي ، يجب ان يسيرا معا في خطين متوازيين فمن دون وجود مصانع ، لا يمكن ان تكون في البلاد اية طفرة اقتصادية

ثم ان توسيع اسواق الترويج التجاري ، قد تعوقه المصاريف الباهظة في نقل المنتوجات ولذلك يجب ان تكون الاقطار الافريقية على اتم الاستعداد لتتحمل عند الاقتضاء ، اضخم التضحيات تركز وجود منتوجاتها وتتلافى كل تاخير او كساد او عجز .

واذا كانت الصعوبات الابتدائية التي تعانيها السمعة الافريقية راجعة الى العوائق الجمركية والى ضعف التجهيزات الاساسية والى انعدام الفنيين المحليين. والى نفقات النقل الباهظة وارتفاع اثمان قطع الغيار والاضطرار لبدء العمل في مصانع صغيرة جدا ، فان هذه المصاعب كلها ستزول بهمة الافارقة وطموحهم الذي تتحطم امامه السدود والقيود .

والنمو الفلاحي ضروري لتكميل النمو الصناعي من اجل الاكتفاء الذاتي اولا ثم انماء الصادرات التي ما تزال في جوهرها فلاحية ومعدنية ثانيا .

وصناعات التحويل تستلزم توسيع نطاق الفلاحة ومن ذلك انتاج المواد الاولية للصناعة كالقطن والياف القنب « الجوت » والمواد الزيتية التي تلعب دورا بالغ الخطورة في افريقيا الوسطى وافريقيا الغربية وكذا

عجين السيلولوز المعد لصناعة الورق ، وكل هذه المنتوجات لا تمكن الزيادة في حجمها وجودتها الا بالزيادة في المنتوجات الغذائية الضرورية ، ان الطاقة البشرية في حاجة الى سماد ينميها كما ان الارض الافريقية الخيرة المعطاء ، في حاجة الى سماد يزكيها ويربيها ، وبذلك يتضاعف الانتاج وتتخفف وطأة البطالة في الارياف ، ويزداد الاستثمار فعالية والانتاج الفلاحي الجيد ينمي الطاقة الشرائية المحلية ويمنح بالتالي للبلاد مناطق خارجية للتصريف التجاري

ان الفلاحين الافارقة يعملون جادين لتمويل صناعتهم الفتية بانفسهم في النهاية ، اذ ليس من السهل الوصول الى التمويل الذاتي للصناعة بسرعة كبيرة .

وتبذل في افريقيا ـ وعلى اوسع نطاق ـ جهود جبارة لتنمية صناعة السكر ، وفق المناهج الحديثة سواء في مرحلة غراسة قصب السكر ، او في حالة التكرير والداعي الاساسي لذلك هو ارتفاع مقادير الاستهلاك لهذه المادة سواء على الصعيد المحلي او الصعيد الخارجي وفي ذلك تشجيع على التصدير وبالتالي على تدعيم الكيان الاقتصادي الافريقي

وهنالك في شتى الاقطار الافريقية الناهضة حركة نشيطة في ميدان صناعة العتاد الفلاحي والاسمدة والمخصبات ، كما ان هنالك نهضة ملحوظة في الصناعات الغذائية فيما يرجع للمصبرات وعصير الفواكه ودقيق السمك وزيت النخيل التي لها اهمية عظمى في صناعة الصابون

وقد عرفت زراعة الارز هي الاخرى وكذا القطاني واشجار البن والكاوكاو ، ازدهارا لم يسبق له مثيل في كافة الاقطار الافريقية الفتية ، وساعد تربية الدواجن والمواشي والدواب على تعزيز الجانب الفلاحي والصناعي في آن واحد هناك .

ان الزراعة كاصل والتصنيع التدريجي كفرع هما اولا الدعامات في بناء هيكل النمو الاقتصادي ، وذلك مع مراعاة الترتيب السلمي لتخطيط هذا البناء ، فالاطر الضرورية والدقة في الموازنة بين الامكانيات والحاجيات ، والانقياد انقيادا تاما انطق للعمليات الاحصائية واعتبار الفوارق الشاسعة فيما بين المثل والواقع ، ان كل هذه الاشياء تكون عناصر اساسية في الترتيب السلمي للتخطيط فيما يخص النمو الاقتصادي وبالاضافة الى كل ذلك ينبغي التجرد تجردا تاما عن كل المؤثرات العاطفية ـ ومن اي شكل كانت ـ التي قد يحمل التاثير بها على الارتجال الذي من شأنه ان يعقبه الخبط العشوائي الذي تعانيه منه بعض الدول النامية مرارة الصاب .

الربـاط : احمـد زيـاد

ديوان المجلة



للشاعر: المدني الحمراوي

بالنور يشع في الافق باله ... غمر الكون بهجة وجلاله

ودعى في السماء كل ملاك ... وكسا الارض من سناء غلالة

عجبا للحياة ما ذا دهاها ... هكذا ردد الوجود سؤاله

حدث حرك الحياة فهبت ... من رقاد تود فيه اطالة

انه الحادث الذي ابهج الكو ... ن وافنى ظلامه وضلاله

اي نور واي يمن وبشرى ... وهب الله في رسول العداله

يا لفجر اتى يزف الاماني ... ناشرا من سروره اذياله

حين نادى جبريل هذا رسول ... قرن الله بالهدى ارساله

يملأ الارض رحمة وسلاما ... ويحب الانام فيه اعتداله

ويسوس الحياة بالعدل حتى ... تكبر الارض كلها اعماله

جاء بالدين فيه كل رشاد ... قرن الله بالسلام هلاله

يا رسول السلام يا خير داع ... علم الناس كل خير وقاله

انت علمت كل حر كريم ... كيف يعتاد صبره واحتماله

فصلاة عليك تستغرق الدهـ ... ـر ويطوي اريجها اجاله

يا حفيد الرسول يا خير منصو ... ر رعى الله بالهدى اعماله

يا اماما موفقا حسن اللـ ... ـه واسمى نعوته وخلاله

آية الله فيك لاح سناها ... فبهرت العقول منذ الطفالة

انت برزت في جميع المعالي وفرعت الفدى ورشت نباله

انت من دوحة النبوة غصن حسني نمته خير سلاله

انت في زمرة الائمة فرد نال بالارث والجهاد اكتماله

بحر اسرارك العظيمة وافى موجه من بحار سر الرساله

ايها العاهل العظيم المفدى لك شعب اجاد فيه ارتجاله

فتغنى بمجدك الفذ حتى اطرب القطر : سهله وتلاله

طاعة الله ان يطاع امام وصل الله بالعباد حباله

صافحت راية الجهاد بصدق وحماس بيمينه وشماله

ـن في شرعة الفداء سبيلا راع من يدعي الفداء وهاله

بارك الله همة الحسن الثا ني فكانت لخير فتح اناله

انه السابق الوحيد الى ما احرز الشعب من علاء وناله

عزمه في الكفاح عزم ابيه ادركا فضله ونالا كماله

هكذا يحرز الملوك فخارا هكذا يتقي الحمى ابطاله

بطل الامة المفدى تقبل طاعة الشعب كله وامتثاله

خصك الله بالكلاءة والحفـ ـظ فمن ذا ينال منك مناله

لك فضل على البلاد عظيم امره مدهش ولا منتهى له

حسبك الله جازيا ليس يكفي شكرنا نحن انما هو قاله

عجز الشعر ان يوفيك المد ح ولكنه ابى اغفاله

انما المدح ما صنعت لشعب قد توليت في العلا اجلاله

فلتعش للبلاد حصنا منيعا وزعيما يقودها ببساله

وليعش طلعة السنا والاماني ولي العهد ، صانه من اناله

ولتويد كما معا سطوة اللـ ـه باقوى حراسة وصياله

وتهنا بعيد جدك يامن اكسب العيد سره وجماله

الرباط : المدني الحمراوي



جادت قريحة الاستاذ الشاعر الموهوب ادريس الجاني بهذه القصيدة الوطنية بمناسبة تدشين شارع الامير فال ولد عمير فى ذكرى استشهاده فى سبيل وحدة الوطن .

لن ينهبوا منك لا شبرا ، ولا فترا   يا موريطانيا عروس الصحراء الفرا
يا ارض (يوسف) ارض العز يا بلدي   الغالي ، ويا خيمتي العالية الكبرى
شنقيط يا مهد امجادي اذا عذلو م   ني فى هوى مي او ليلى او الاخرى
وجدت للائمي فى الحب معذرة م   وفى هواك لعذالي لم اجد عذرا
الشوق ذوبني ، والبعد ارقني   وكيف اسلو بعيدا عنك يا سمرا ؟
يامنيتي شيمتي صبر ، وقد عيل صب   ري ، من يطيق على احبابه صبرا ،
يا موريطانيا ، سيفتر الزمان لنا   عن المنى ان يشأ طوعا ، والا قهرا !
سيجمع الله شملا بعد فرقتنا   وينعم البال تحت الراية الحمرا
ودوحة الحسن الثاني ، وهي وارفة   ظلالها ، اينعت باليمن والبشرى
اصولها نبتت فى الارض راسخة   وجاوز الفرع منها الجوزاء والشعرى
احفظ الهي امير المؤمنين لنا   وللبلاد ، اطل يا ربنا العمرا
هذي الامانة فى كفيه قد وضعت   من منه اولى بها ؟ من غيره احرى؟؟
سيف من الله صمصام يذوذ عن الـ   حمى ، ويحرس فيه الطود والصحرا
ان المليك اذا للدهر قال اطع   اجاب انا اطعنا سيدي الامرا
ما دام قائدنا للعز رائدنا   لا بد فى كل شبر نحرز النصرا

ان الجـــلاء لمحتوم عــن معاقلنـــا   في موريطانيا وفي الســاقية الحمــرا
وفي افني.في سبتة.في مليليا حيثما اغتصبوا   سنسترد ثراتــا شبــرا شبــرا
يا اهل شنقيط ، يا اهلي ويا رحمي   جروا الذيــول فانتم خير من جـرا
من الحرائــر ارضعتم هوى شمــم   ان الحرائــر ما ارضعنا الا حــرا
غـــدا تقر لكم عين طالمــا سخنت   وتطفئــون بعين الفاصب الجمـــرا
وحولكم من زغاريد النصر ما انطلقت   بــه الحناجــر من ام ومن عــذرا
وقد كنستم من الطاغين ساحتنــا   فــلا معــذب يشكو الظلم والجــورا
قــل لابن دادة ما سحــر بنافعــه   لنا عصا قد رفعناها تبطل الســحرا
ان كان فرعــون شنقيط فان هنــا   موســاه يقصم من امثالــه الظهـــرا
قالوا (ابن دادة) من ذا ؟ قلت : سبتنا   عــار شنيع بصقنـــا حيثما مــرا
هذا الذي تنكر البطحـــاء وطاتــه   والبيت ينكره ، ما اخزى ، ما ازرى
بالغاصبين احتفى والصدر اسكنهم   واسكن النبلاء السجــن والقبـــرا
لكنمــا سيــدور الدهــر دورتــه   وآنــذاك يرى من امــره خســـرا
لابــد عما قريب نحــرز النصــرا   لابــد عمــا قريب نأخــذ الثــارا
لابــد عمــا قريب مثلمــا خفقت   هنا .. تظلل شنقيط الراية الحمرا

الرباط : ادريس الجائي

حقيقة الناس

للشاعر محمد بن محمد العلمي

عزاء في فؤادي حيث ذابا ... وقد قاسى المرائر والعذابا

وعرفه الزمان نفوس قوم ... لقد كانوا بطبعهم ذئابا

لقد كان النفاق لهم شعارا ... وكان الغش عندهمو كتابا

واصبح في الحرام لهم مرام ... وقد رفضوا الحلال والاحتسابا

يقولون : الهناء بجمع مال ، ... وكان اللعن عندهمو ثوابا

وما كانوا ليجتنبوا ذنوبا ... وما خافوا من الله العقابا

فكم من مجرم قد عاضدوه ... وقد حسبوا لاجرتهم حسابا

وكم قد شتتوا شملا بريئا ... وهم وسعوه سبا واغتيابا

فما استحيوا وقد ضحكوا عليه ... وما عرفوا لدهرهم انقلابا

ارادوا ان يعيش الشهم وغدا ... فوفي عرضه من ان يصابا

سيصبح امرهم ويلا عليهم ... وتنتقم السماء لمن انابا

وهل يجدي شهود الزور شيئا ... وحق الناس في الاوساط غابا ؟

لقد عرف الجميع لهم امورا ... قد ارتكبوا جرائمها ارتكابا

اهانوا حرمة للدين فيهم ... وخبوا نحو شهوتهم ركابا

وقد ماتت ضمائرهم فكانوا ... يمجون الصراحة والعتابا

وتحسبهم اذا ما كنت فيهم ... قد انكبوا على الدنيا انكبابا

يطيب مقامهم في العار حتى ... قد اكتسبوا جرائمه اكتسابا

وهم كفروا بغير المال فيهم ... وقد حسبوا عقائدهم سرابا

لقد حابوا نفوسهم خداعا ... وهل رب البرايا قد يحابا ؟

وهم قد يملكون لنا رقابا ولا يخشون من ملك الرقابا !

وهم هانوا ، وهانت كل حين مطامعهم ، فما عرفوا الصوابا

وهم حسبوا بأنهمو عظام وقد حلموا بان سكنوا السحابا

ولكن في الحقيقة لا تراهم سوى العوبة تغري الذبابا

كفى يا ايها الانسان كبرا فلست كما ترى الا ترابا

ولست سوى خيال في خيال وسوف نراك مازجت الضبابا

* * *

الرثي يا زماني فيك حظي ؟ فنفسي اصبحت شهدا وصابا

تؤلف من زهور الشعر روحي رحيقا متجددا مستطابا

واقذف كل شر وانحراف واعتنق حكمة كانت رضابا

واهوى ان يكون الحق تاجا على رأسي ، فامتلك الطلابا

واكره في جميع الناس نفسا تعودت النفاق والانقلابا

ومن لطم الأماجد في حماهم فجاوز في خساسته الكلابا

* * *

عزاء يا فؤادي في حياة تولد بيننا العجب العجابا

فترفع كل وغد متهان وتسقط من سما او من انابا

عزاء في الامان فان نفسي رأت في الناس من عشق السبابا

ومن ولى قويا مشمخرا ومن اخذوا تفانينا اغتصابا

ومن ولدوا وعاشوا في غرور وما حسبوا لعاقبة حسابا

ففي بلوى (البرامكة) اتعاظ وهل (فاروق) يرتقب الايابا ؟ !

فمهلا يا بقايا من فؤادي فسوف ارى دعائي مستجابا

يعيش الظلم دهرا ثم تمحو تصاريف الزمان له قبابا

وتنتصر الفضائل والمعالي ومن ملكوا لدولتها انتسابا

ارى ما لا يرى قومي بنفسي وأفهم من فصاحتها الخطابا

فنفس الحر اعظم في البلايا وقد هزمت بهمتها الصعابا

وكانت فوق شك وارتياب ... وقد رفعت عن الجلى نقابا

تبسم فجرها فوق البرايا ... ولم تعرف ستارا او حجابا

* * *

فصبرا ان ايماني بربي ... سيمنحني النفاق والاضطرابا

فليس بعاقل من بات غرا ... ولم ياخذ من الذكرى اقترابا

فعيش الحر فوق حدود قوم ... سيصبح امرهم فيهم خرابا

لقد كان الزمان كما اراه ، ... يعلمني ، فصيرني شهابا

اذوق الناس كلهمو بقلبي ... فاعرف من يخيب ، ومن اصابا

واعلم من تميل اليه نفسي ... فانتخب الصديق لها انتخابا

واترك ما اسميه قشورا ... واحتضن الجواهر واللبابا

ولكن ، من ما جعلته صديقي ... وفي الحكماء مُن عاش اغترابا ؟ !

الرضى ان اعيش كما تراني ؟ ... سأرقب من فطانتك الجوابا !

انا اهوى الهدوء ، ولست اهوى ... نفوسا قد اشاهدها غضابا

انا اهوى انشراحا وابتساما ... ولا اهوى انتحابا واكتئابا

وارجو ان يكون من اباحوا ... مقامي ، ان يروني لن اعابا

لقد شاب الاعادي في هموم ... وقلبي عاش مذ عرف الشبابا

الرباط : محمد بن محمد العلمي



المغرب وفارس عبر التاريخ

للأستاذ محمد بن تاويت

في سنة احدى وخمسين وتسع مائة والف ، كنت قد القيت محاضرة بمنزل الاستاذ الطريس بتطوان ، وكانت حول صلة فارس بالمغرب ، الا ان اعتمادي الاساسي في هذا الموضوع كان على ما ورد في قصص الشاهنامه ، ثم على بعض الشواهد التاريخية والقائمة .

وفي سنة اثنين وخمسين عدت الى الموضوع نفسه ، لكني اعتمدت هذه المرة على التاريخ ، فنشرت عنه مقالين بالعددين التاسع والعاشر من مجلة (لسان الدين) السنة الثامنة لها ، واستمررت من ثم اتناول الموضوع المذكور تناولا تاريخيا ، وانشر عنه بمجلاتنا التي اذكر منها مجلة (الانيس) ، كما نشرت بهذه المجلة وبمجلة (الانوار) بحوثا عن الكلمات الفارسية التي دخلت لغتنا عن طريق التركية او العربية الفصيحة .

وفي سنة ست وخمسين ، نشرت بمجلة (تمودة) بحثا بعنوان «بزوغ الثقافة العربية بالمغرب» ، فتعرضت في هذا البحث الى الدور الذي قامت به امارة الرستميين اصحاب تاهرت الجديدة .

وفي سنة سبع وخمسين ، نشرت بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، بحثا خاصا بدولة الرستميين اصحاب تاهرت ، وذلك في العدد الخاص من الصحيفة المذكورة .

وفي سنة خمس وستين ، تعرضت لهذه الدولة ايضا، في البحث الذي نشرته بمجلة (البحث العلمي) ، عن قيام دول الخوارج بالمغرب ، ومن قبل بسنتين كنت قد حاضرت في هذا الموضوع نفسه بكلية الاداب في بنغازي

واليوم اعود من جديد الى طرق العلائق التاريخية بين فارس والمغرب ، وقد تزودت بمعلومات اخرى وان كانت قليلة بالنسبة الى ما بذلته من جهد متواصل في هذا الباب .

وقبل ان ادخل في صميم الموضوع اريد ان اشير الى اشياء ارى انها جديرة بالتنبه اليها ، وهي :

١ - ان كلمة فارس ، كانت علما على اقليم بعينه ، ثم صارت تطلق قبيل الاسلام على ايران جميعها، وهذا بالضبط ما حصل من الفرس تجاه العرب ، حيث اطلقوا كلمة طائي (تازى) على كل عربي ، وهو ما حصل لليونان والرومان ، والتونسيين والجزائريين والليبيين او الطرابلسيين . ويشبهه المراكشيون في الشرق العربي والفارسيون عند الاتراك

اما ايران ، فاصلها الفقهي جمع اريد بها النسبة الى ايرج او ايره ، او هو ايرج نفسه ، كما نص على ذلك ابن خرداذبه في كتابه الجغرافي . وايرج هذا من اولاد افريدون الثلاثة ، الذين وزع عليهم مملكته وكان نصيبه العراق ، او المكان الذي سمي به ، قال ابن خرداذبه : فالاكاسرة ملوك العراق من مولده ، قال شاعرهم العربي :

وقسمنا ملكنا في دهرنا
قسمة اللحم على ظهر الوضم

فجعلنا الشام والروم الى
مغرب الشمس الى الغطريف سلم

ولطوج جعل الترك له
وبلاد الصين يحويها ابن عم

ولايران جعلنا عنوة
فارس الملك وفزنا بالنعم

وصيرورة كلمة ايران الى مدلول الرجل الحر ، صيرورة متاخرة ، اوحت بها العزة القومية ، كما اوحت الى الرومان ، فجعلوا غيرهم برابرة ، واوحت الى العرب فجعلوا غيرهم عجما ، من العجمة طبعا ، وجعلوا الفرس الكريم الاصيل عربيا ، وغيره هجينا . وحتى عصر الجاحظ نجد الرجل الحر يعبر عنه باسم(ازاد مرد)، ومنه عرفت الازاد مردية ، المذكورة في البخلاء وغيره .

ب - ان كلمة المغرب، كانت تطلق في الفارسية، وهي تعني الموقع الجغرافي من هذه البلاد ، ولا تعني المغرب الذي نريده (1) بل ان كلمة المغرب كانت من قبيل المشترك بين المغرب والمشرق ، ولا يدرك المقصود منها تماما الا بالسياق ، وذلك كما في (الشاهنامه) وهي تتحدث مثلا عن توزيع فريدون البلاد بين اولاده فتقول :

نخستين بسلم اندرون بنكريد
همه روم وخاور مر اورا كزيد

فكلمة (خاور) تطلق على المغرب كما تطلق على المشرق ، لكن السياق يجعلنا نفهم منها المغرب خاصة

جـ - ان كلمة البربر ، ترددت في (الشاهنامه)، الا ان مدلولها لا يعني تماما ما يعنيه عندنا ، فهم مرة في اواسط اسيا واونة في نواحي اليمن ومصر ، وهذا ما نجده مثلا ، حينما تتحدث عن مسير الملك (كيكاوس) الى حرب ملك البربر ، ويذكر صاحب (الشاهنامه) ملك البربر ويصف جيشه فيقول :

شه بربرستان بيارست جنك
زمانه وكر كونه ترشد برنك

سپاهي بيامد ز بربر بزرم
كه از لشكر شاه برخاست بزم

هوا كفتي از نيزه جون بشه كشت
خوراز كرد اسبان بر انديشه كشت

وعلى هذا فلنترك ما ورد عن المغرب والبربر في قصص (الشاهنامه) وغيرها ، ولنواجه مصادر التاريخ او شواهده في علاج هذا البحث الان .

من المعروف ان ايران قيض لها ملك عظيم هو (قورش الاكميني) ، الذي كانت مطامحه لا حد لها ، وبعد موته خلفه ابنه (قمبيز) الذي مد سلطانه الى افريقيا فاستولى على مصر ، وما توفي حتى كان احد ابناء اعمامه الابعدين ، واسمه (داريوس) او (دارا) الاول ، الذي مد في هذا السلطان وتغلب على اليونان في عدة مواقع ، واستولى على بعض مستعمراتها بالشمال الافريقي ، فكان من ذلك (راس قورينة) او (برقة الفنيقية) فلما مات هذا وخلفه (دارا الثاني) ، اصبحت اليونان ، تحت سلطان ايران ، فلم يكن لها الا نوع من الاستقلال الداخلي ، منحته اياها ايرن حسب صلح ابرم بينهما . وما توفي (دارا الثاني) ، حتى تعرضت البلاد الايرانية لفوضى وخلل ، وانصدع النظام الذي كان يضم جهاتها النائية ، على حين كانت اليونان تستجمع قوتها ، وتنضوي تحت لواء (فليبس المقدوني)، الذي خلفه ابنه الاسكندر ، فكانت الضربة القاضية على ايران ، تلك الضربة التي واجهتها في الشام فمصر وعلى تخوم الصحراء الغربية ، الى ان تكبدتها في عقر دارها العراق ، وخر بها ملكها (دارا الثالث) ، كما هو معلوم .

هنا ينطفيء نور التاريخ الصريح ، على ما كان لايران بالشمال الافريقي ، وما كان مصير تلك المستعمرات التي كانت لها فيما عدا مصر ... ونحن امام هذه الغمة ، نفترض افتراضا ، يعضدنا فيه المنطق ، وطبائع الاشياء ، والشواهد القائمة ، التي تستنطقها فتحدثنا .. وبذلك نقول : ان اولئك الفرس الذين كانوا بالشمال الافريقي ، لم يكن لهم محيص، ان انهزموا من

1) وكذلك في الاسلام كان المغرب نسبيا ، والشاعر يقول : اذا المنبر الغربي خلاه ربه ... وهو يريد النسبة الى الشام .

وجه اعدائهم ، الا ان يتوجهوا نحو الغرب ... لانهم ان توجهوا شرقا ، واجهتهم الصحراء التي لم يسلكها في هذا الاتجاه الا الفاطميون ، وباساليبهم الهندسية العجيبة

ثم انهم لو كانوا يستطيعون ما استطاعه الفاطميون ، بعدهم بما يزيد على الف سنة ، فانهم مع ذلك كانوا سيقعون في قبضة الاسكندر ورجاله او خلفائه بمصر والشام، واذن فلا بد ان يكونوا قد اختاروا جهة الغرب، ولا بد ان يكونوا قد تنكبوا الاصطدام مع الفنيقيين في مستعمراتهم المعروفة والظاهر انهم ركبوا البحر فاتجهوا نحو سوسة ، فاستقروا بها ، وكانوا هم الذين سموها بهذا الاسم او ما يقاربه ، ذلك ان سوس او شوش هو الاسم الذي كانت تحمله عاصمتهم التي سقطت بيد اعاديهم اليونان ، ومن ثم اوغلوا برا فنزلوا القيروان المكان الذي سموه هم باسم (كروان) اي القافلة

ويذكر ابن خلكان في وفياته ، ان هذا المكان سمي باسم القيران ، لان القوافل نزلت به ، وبذلك يكون هذا الاسم كائنا قبل وصول عقبة اليه ، لانه لما وصله عقبة لم يكن محط القوافل ، بل كان غابة مهجورة لا يطرقها الناس والاسطورة تقص ان عقبة لما اختارها للعسكر بها ، دعا الوحوش لمغادرتها ، فكانت الاسود ونحوها تخرج من هذا المكان حاملة اشبالها ، والناس ينظرون اليها مدة او اياما ... ومن عادة العرب ، انذاك انهم كانوا يحتفظون باسماء الامكنة التي ينزلونها ، ولا يغيرون منها ، او يطلقون عليها اسماء من عنديتهم .

وهذا مما يجعلنا ندعي ان هذا المكان كان معروفا بهذا الاسم من ذي قبل الاسم الفارسي الذي وضعه الفرس انفسهم ، ولم يغيره الفنيقيون ولا الروم لانهم ما وصلوا اليه (1) ، وهو السبب الذي يذكره المؤرخون ، في تعليلهم لاختيار عقبة هذا المكان ، لبعده عن خطر الروم الذي قد يداهمهم بحرا

وهذا الافتراض لا يوخذ بجزئياته حتما ، فيقال ان الهجرة الى هذه الجهات كانت بعد انهزام الفرس في الشمال الافريقي ضرورة ، بل ان هذه الهجرة قد تكون قبل ذلك او بعده ، ولسبب اخر غير هذا الانهزام، الا ان التاريخ لا يحدثنا مطلقا عن هذه الهجرة او الهجرات العديدة الى هذه الجهات ، ثم الى ما وراءها غربا ، كما سنذكر وقد تكون هذه الهجرة او الهجرات بعيدة عن التيارات السياسية ، ولهذا لم يسجلها التاريخ السياسي وقد تكون هجرات تبشيرية بالزرادشتية ، كما هي الان هجرات للتبشير بالبهائية وعلى كل حال فان التاريخ يسكت عن اولئك الفرس الذين كانوا بالشمال الافريقي عامة ، ولا يذكر عنهم شيئا بعد مطاردة الاسكندر اياهم وقضائه على سلطانهم ...

---

1) على اننا نجد في دائرة المعارف الاسلامية ، ما يثبت ان القيروان كانت ضيعة رومانية تعرف باسم قمونية KAMUNIA وان العرب بنوا بانقاضها القيروان ، وكذلك نجد لهذه الضيعة ذكرا في كتاب (البلدان) للهمذاني ، على (ان قمونية) مدينة من موضع القيروان ، وفي كتاب (المشترك) وضعا المفترق صقعا ، ان الروم كانت تسمي سوس افريقية (قمونية) وقيل السوس كورة مدينتها (قمونية) وفي كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ان (مدينة قمونية من موضع القيروان على الفي ميل ومائة وخمسين ميلا) ولكن يظهر ان هناك سقطا في العبارة التي وردت هكذا في الهمذاني « ثم انتشرت (اي البرابرة) الى السوس الادنى خلف طنجة والسوس الاقصى ، وهي من مدينة (قمونية) من موضع القيروان على الفين وخمسين ميلا . اما (المسالك) ففيها : ثم انتشرت البربر الى السوس الادنى خلف طنجة وهي مدينة (قمونية) من موضع الخ » ، فسقطت (من) بعد (وهي) كما سقطت (والسوس الاقصى) قبلها ... ويذكر اليعقوبي في كتابه (البلدان) ، ان مدينة القيروان فيها « اصناف من العجم من اهل خراسان ... » وفي معرفة الطرق التي كانت تسلك بهذه الاماكن حتى القرن الرابع ، يمكن ان نستفسر المقدسي ، في كتابه (احسن التقاسيم) فيقول : « وتاخذ من طرابلس الى القيروان ... ثم تركب المفاوز الى السوس الادنى ... ثم الى السوس الاقصى ... وتاخذ من القيروان ... الى فاس الى البصرة ، وانت في حد السوس الادنى ، وان شئت فتاخذ من القيروان .. ثم الى فاس ، ثم الى السوس الاقصى ... وتاخذ من القيروان الى سجلماسة .. الخ 245 – 247

ومع هذا فليس من الصدفة وجود مدن واقاليم بالشمال الافريقي تحمل نفس الاسماء التي تحملها مدن واقاليم ببلاد فارس ، كما انه ليس من الصدفة ان تكون بهذه البلاد عقائد وعادات قديمة ، هي نفس العقائد والعادات التي وجدت في البلاد الفارسية قديما وما زالت حتى الان في بعض جهات منها . والقصص وان لم يوخذ منها حقائق التاريخ الا انها بالرغم من ذلك تستشف منها بعض الحقائق التاريخية ولو كانت موغلة في الخيال ، ومضطربة في العرض . وكثير من الخرافات الشعبية تجد لها جذورا تاريخية ، وكذلك يقال في تلك القصص التي نجدها (بالشاهنامه) مثلا فنجد المغرب منها في غير مكانه ، وكذلك البربر غير مستقرين في اوطانهم . ومن الالتفاتات اللطاف ، ما كان من السفير الايراني بالرباط ، حيث حاول ان يجد ارتباطا بين البربر وبين بلاده . بعد ما استغرب وجود هذا التشابه العظيم ، فقال لي وقد اجتمعت به سنة 1961 – على ما اذكر – ان البربر بالمغرب هم من (برابر) ايران ، المعروفين عندنا بهذا الاسم ، كجماعات رحل ، اذ ان كلمة (برابر) فارسية تعني المعية او التقابل او التشابه ، وهذا لازم لتلك الجماعات المتكتلة (هذا ما يستبعده اليوم وقد يثبته الغد ...)

ونعود الى سوسة ، فنجد الجغرافيين القدامى يذكرون ان الارحية الفارسية ، كانت معروفة بالمستير جنوبيها ، كما انها شهرت بان « اكثر اهلها حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة » كما يقول ياقوت في معجمه ، ويقول الهمداني ، في سوس الاهواز « ولاهل السوس خاصة وجند سابور حذق في اتخاذ انواع ثياب الحرير والديباج » بعد ما قال ان قباذ انزل الحاكة السوس . اما سكان سوسة فهم في سحنتهم ذوو خاصية لاحظها اولئك الجغرافيون فهم ينصون مثلا على ان سوسة «بها قوم لونهم لون الحنطة يضرب الى الصفرة» كما نقل عن ابي سعد في معجم البلدان ، واليعقوبي يذكر في كتابه البلدان ، ان « اهل سوسة اخلاط من الناس » ، ثم يقول كذلك عن مدينة الزاب « والزاب بلد واسع ، فمنه مدينة قديمة يقال لها (باغاية) ، بها قبائل من الجند وعجم من اهل خرسان » ... ومعنى هذا انه لاحظ بهذه البلاد فرسا ، الا انه خصصهم بالخراسانين ، لاعتقاده انهم اتوا الى هذه البلاد ايام العباسيين ... والزاب نفسه اسم فارسي « لملك من قدماء ملوك الفرس ، وهو زاب بن توركان بن منوشهر ابن ايرج بن افريدون » اشتهرت به عدة ءابار واماكن في الشرق والغرب ، كما نجد في معجم البلدان ، وفي نواح متعددة منهما ، ومن تلك النواحي ما يتصل بسجلماسة عندنا ، ونستمر في هذا الافتراض الذي تؤيده الشواهد ، فنقول ان هؤلاء الفرس استمروا في في هجرتهم نحو الغرب محاذين لجبال الاطلس ، شمالا او جنوبا الى ان انتهوا الى ساحل المحيط الاطلسي ، حيث استقروا في مكان اخر سموه ايضا باسم عاصمتهم (سوس) ... وهؤلاء الجغرافيون انفسهم يحدثنا من قداماهم ابن خرداذبه ، فيقول : « وقلعة سوس الاهواز . قلعة فوق قلعة ، ومثلها على بنائها قلعة السوس الاقصى ، وهما ايضا من بناء هوشهنك » (1) وعلى كل حال فهناك شبه بين القلعتين الشرقية والغربية ، وكلتاهما فارسية ، سواء كانتا من بان واحد كما قال ابن خرداذبه ، او بناة مختلفين كما استظهرنا ، ويقول ياقوت في كتابه المشترك وضعا ، والمفترق صقعا ، في البصرة : « البصرة مدينة كانت بالمغرب قرب السوس الاقصى (2) . والواقع ان البصرة فارسية ، معربة عن (بس راه) ، لانها كما يقول موبذ بن اسوهشت ، كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها الى اماكن مختلفة . ولهذا فليس عمر المسمي للمكان او الباني به لاول الامر ، بل كان المكان معروفا بهذا الاسم ، وهو ما ادعيناه في القيروان ، وان العرب لم تسم الاماكن باسمائها هي ، طالما كانت لها اسماؤها القديمة . مثل البصرة هذه والكوفة التي ينسب بناؤها الاول الى هوشهنك السالف الذكر .

1) انظر فيما قيل عنه حاشية عزام على الشاهنامه ص 17 – 18

2) هذه غير البصرة التي كانت احدى عواصم امراء الادارسة

هذه شواهد قائمة ، وهناك شواهد يذكرها التاريخ، فالتاريخ يحدثنا ان المسلمين لما فتحوا المغرب ، وجدوا به ديانات ، منها : ديانة المجوس ، وان هؤلاء كانوا منتشرين في جهات عديدة ، اهمها جهات فاس والسوس وما وراءه ، حيث ظلت المجوسية قائمة ببيوت نارها حتى القرن الرابع الهجري ، وكان ثبوت المجوسية بهذه الجهات خصوصا مما تنبز به المرابطون من قبل خصومهم الموحدين .

ومن الصدف العجيبة اننا وجدنا الدعوة البهائية توجهت في المغرب لاول مرة الى هذه الجهات ، وقد حدثني بعض دعاتها سنة احدى وخمسين ، عن اماكن بعينها من اقليم موريطانيا وما حوله ، احاديث كانت بالنسبة الى اول ما سمعته عنها .

لنزد امعانا في السوس ، خاصة ، فنجد بها هذه العقلية الفذة في التجارة وجوب البلاد من اجلها ، وهي ميزة تتحلى بها فارس بالذات ، كما نجد الاشتغال بالسحر ، الذي له قصص عجيبة في (الشاهنامه) ، وذكر مع ملوك عظام تمرسوا به وزاولوه في سياسة ملكهم ، وذلك يفوق ما عرف عنه عند الفراعنة ، وعلله ابن خلدون في مقدمته . كما نجد الحذق في صناعات بعينها كالسجاد والنقش على المعادن ، خاصية امتاز بها اهل السوس عندنا والنازحون منهم الى تاغزوت ، وهي ما امتاز به اهل فارس كذلك ، وسجلها لهم شعراء بني العباس ، وشهدت لهم به متاجر التحف ، حتى سميت بالاسم الفارسي (بزار (1) ، ثم آلات الطرب المستعملة في السوس ، خصوصا الغجر منهم ، هي نفس الالات الفارسية التي احتفظت بها اللوحات القديمة . وما زال الصنج الذي يستعمله السوسيون وحدهم في رقصاتهم الغجرية هو نفس الصنج الذي يستعمله زملاؤهم في فارس . كما ان الالحان شبيهة بالحان الرحل (برابر) المعروفين بهذا الاسم في بلاد فارس ، وكذلك تصفيف الشعر باصدغه وطرره متشابه . ثم الالعاب البهلوانية ، والملابس المنقشة الزاهية . وقيافة تلك الملابس ، كل ذلك شبيه لما هو معروف في فارس حتى الان ، وفي حسابهم نجد كلمات متشابهة ، وان اختلفت في مدلولها او حصل بعض التغيير في حروفها ، ففي حسابهم ، ين او يك ، كما في الفارسية ، وسن (اثنان) وهوسه (ثلاثة في الفارسية) وسا (سبعة) وهوشش (ستة في الفارسية) ، وهذا الاختلاف في المدلول والاجراس غير غريب عند دارسي اللغات ، فكلمة البرقوق في الاسبانية تعني المشمش ، وحينما كان يقال في تطوان « القلب والفؤاد » ، فالفؤاد تعني الكبد . وكلمة العنكبوت تعني عندنا بيتها ونقول للفرن الفران فنطلق عليه اسم صاحبه ، كما نطلق عليه اسم صاحبه بالنسبة الزكية (فرنجي) لان الحمام تركي ، ويوفي الانجليزية (ضمير المخاطب) تستعمل في الاسبانية ضمير المتكلم وحده ، كما هو في باقي اللغات اللاتينية مع تحريف بسيط ، ومع هذا فالمصدر واحد

فاذا انتقلنا الى ما حصل في التاريخ الاسلامي ، فاننا نجد الهجرة الفارسية الى المغرب ، في تدفق مع ولاة العباسيين الذين كانوا من قبل ولاة بالشرق ، وذلك كالمهالبة ، الذين كان منهم عمر بن حفص الملقب باللقب الفارسي (هزار مرد) الف رجل كما نجد تلك العائلة الرستمية التي است امارتها قرب وهران ، فكان للفرس شان عظيم بها،خصوصا في الميدان التجاري الذي اقتحموه ـ ولا شك ـ حتى ببساط تامسنا وربوع سجلماسة، حيث كانت لامارتهم علاقات دبلوماسية وعقدية وعائلية. وقد وجدنا من شعراء هذه الامارة من ام فاسا ، وقال فيها شعرا كما ام آخر منهم بصرة شمال المغرب ، وقال فيها شعرا كذلك

ولما كان المولى ادريس يزمع بناء فاس ، ورد عليه فرس من الشرق ، فانزلهم بعين علون (التي تعرف الان بعين علو) ويذكر صاحب (روض القرطاس) من ابواب فاس باب الفرس ، ذلك ان جدارا من اسوارها سقط على بعضهم ، فخلدت ذكرى هذه الماساة بتسمية احد ابواب المدينة بهم ، بل انه يذكرون من جملة الاقوال في اسم فاس ، ان الاصل في اسمها كان (فارس) لكن العامة اختزلته الى فاس ... فكان المولى ادريس وقد سر بمقدمهم ـ كما يقول المؤرخون ـ اراد ان

1) استعمال كلمة بزار بمعنى السوق ، كان معروفا على عهد الجاحظ ، فهو يتحدث عنها في البيان كما يتحدث عن مرادفها (جهارسو)

بكرمهم بتسمية عاصمتهم باسم بلدهم فارس .. وهذا لو ثبت لكان له شان عظيم

هذا ما يتصل بالعلاقة التاريخية اما ما نجده في لغتنا من كلمات فارسية ، فهي لا تخلو من كونها اتتنا وقد عربت ، كما في الطرة ، والابريق ، والخنجر ، والصنجة ، والزيبق ، والساباط ، والعرعر ، والقنيد ، والديوان ، والعنبر ، والياسمين ، والمسك ، والمارستان. او اتتنا وقد تركت ، كالشوربة (ان جعلناها فارسية) والنيشان ، والكوشة ، والطربوش(1) وبندق ، وخواجه، وكمنجه ، وبهلوان ، وغيرها . فشأن هذه شان الكلمات التركية اساسا ، مثل الطبنجه ، والطوبجي ، والطاوة ، والوتاق ، والوجاق ، والقشلا ، والقشلاق ، وباشا ، والسنجاق ، والتنبق ، والتروو ا ، وغيرها من مئات الكلمات التي تروج في لغتنا منذ خمس مائة سنة . ومنها ما دخل الفصحى عندنا وفي الشرق ، مثل كلمة البوغاز (المضيق) فاصل الكلمة من التركية الحلقوم ، ثم استعمل فيها بمعنى المضيق ، واخذناه نحن بهذا المعنى فقط ، وصار مستعملا في كتاباتنا غربا وشرقا

تطـــوان : محمد بن تاويت

1) الواقع ان هذه الكلمة اتتنا قديما ، ففي نفـح الطيب ان الاشرف بن العادل وضع شربوشه بيده على رأس مملوك صغير ، اما الان فيسمى بالفاسي كما في اللغات الاوربية



مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا

للأستاذ محمد حجي

يعتبر كتاب « مناهل الصفا » مصدرا اساسيا معاصرا للدولة السعدية . الفه عبد العزيز الفشتالي(1) متولي تاريخ الدولة ووزير القلم الاعلى فى بلاط احمد المنصور الذهبي ، ليكون كوثيقة رسمية يعتمدها المؤرخون المشارقة فى كتاباتهم عن الدولة السعدية ، وذلك على اثر تلقي المنصور من المؤرخ التركي مصطفى ابن حسن الحسني الجنابي النسخة الاصلية من كتابه « العيلم الزاخر ، فى احوال الاوائل والاواخر » (2) . « اجمع ما جمع فى دول الملوك » والمحتوي على 82 بابا بعدد الدول التي تعرض الى تاريخها . وقد لاحظ المنصور نقصا وخلطا فى الباب المخصص للمغرب فكتب الى المؤرخ التركي يشكره على هديته القيمة ويصله بـ 1500 اوقية ذهبا . وفى نفس الوقت ينبهه الى ما فيه تجاه المغرب من « غلط واضح وضوح النهار . . . اذ سلك شعبا وقد سلكت الدولة واديا ، وجرى على غير سمتها فلم يجد هاديا . » (3) ويطلب منه فى الاخير الا ينشر الكتاب الا بعد تصحيحه على ضوء ما سيصله فى كتاب تاريخ الدولة السعدية : « مناهل الصفا » الذي كلف بانجازه عميد الكتاب في بلاطه : « عبد العزيز الفشتالي » .

واشتهر عند المؤرخين ان « مناهل الصفا » يقع فى ثمانية اسفار منذ حدد ذلك العدد احمد المقري فى « نفح الطيب » . لكن الاستاذ عبد الله كنون فى المقدمة التي كتبها لمختصر ا لمناهل المطبوع الذي سنتحدث عنه اخيرا ، استبعد ان يكون فى المناهل اكثر من ثلاثة اجزاء مادام الجزء « الثاني » الذي عثر عليه وعلى مختصره(4) يتحدث عن معظم حياة احمد المنصور اهم شخصية سعدية ومخدوم المؤلف : الذي امره بوضع الكتاب . فلم يبق اذن الا افتراض ان يكون الجزء الاول فى نشأة الدولة السعدية واخبار ملوكها الاول من محمد القائم بأمر الله حتى عبد الملك المعتصم ، والثالث فى بقية اخبار المنصور وربما حتى ابنه زيدان الذي اخلص له الفشتالي وتوفي فى ايامه . وبذلك تصح مقالة اليفراني فى « نزهة الحادي » ان المناهل يقع فى عدة مجلدات ، ما دام اقل مفهوم (عدة) ثلاثة .

على اني اميل الى الاعتقاد ان كتاب « المناهل »، ولو اننا لم نعثر لحد الآن الا على جزء واحد منه ، يقع فى ثماني مجلدات . فمقالة اليفراني التي اتخذها الاستاذ كنون كدعامة لتشككه ليست فى الحقيقة الا ترديدا لكلام احمد المقري فى « روضة الآس » (5) . ومعلوم ان هذا الكتاب سجل فيه المقري اخبار رحلته الاولى الى المغرب خلال عامي 1009 — 1010 هـ (1600 — 1601 م) حيث لقي فى بلاط المنصور لاول مرة عبد العزيز الفشتالي الذي اخبره عن كتابه المناهل

---

1) خص الاستاذ عبد الله كنون الجزء الاول من سلسلة « ذكريات مشاهير رجال المغرب » بترجمة عبد العزيز الفشتالي . كما تعرض لمصادر ترجمته ليفي بروفنسال فى « مؤرخي الشرفاء » ص 92 .

2) الف الجنابي تاريخه هذا فى أواخر القرن العاشر الهجري بالعربية فى مجلدين ، ثم اختصره وترجمه الى اللغة التركية . ارجع فى ذلك الى حجي خليفة ، « كشف الظنون » ، اسطمبول 1941 ، 1 : 224 و 2 : 1181

3) الرسالة من انشاء عبد العزيز الفشتالي ، ويوجد نصها الكامل فى « مجموعة رسائل سعدية » تطوان 1954 ص 236 — 241 .

4) عثر الاستاذ عبد الله كنون فى فاس على مختصر (الجزء الثاني) من « مناهل الصفا » ونشره ، كما وقع المثور اخيرا على ثلاث نسخ مما سمي بالجزء الثاني من المناهل ، احداها فى تونس ، ويوجد ميكروفيلم منها فى قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط . والاخريان فى الخزانة الملكية بالرباط .

5) طبعة الرباط ، 1964 ، ص 161 — 162 .

انه يقع في عدة مجلدات . لكن بعد ذلك بنحو 28 سنة ، وبعد اقامة طويلة بالمغرب دامت زهاء 15 سنة تحدث المقري مرة ثانية عن المناهل بلهجة المتيقن المتأكد فذكر انه (يعرف) تمام ثماني مجلدات منه ؛ معبرا عن مؤلفه الفشتالي بـ (صاحبه) (6) . ثم ان تسمية الجزء المعثور عليه في تونس والمكتبة الملكية بالرباط بالجزء الثاني فيه نظر ، اذ لم ينص في هذه المخطوطات على ذلك ، وليس هناك الا عبارة وردت في آخر الملخص المطبوع : « انتهى ما اردت اختصاره من السفر الثاني من كتاب مناهل الصفا » وهي تحتمل اختصار بعض السفر لا كله ، كما تحتمل كلمة السفر مجموعة أجزاء . وفي قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط — مثلا — نسخة تامة من فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر في سفر واحد ، وهو الذي طبع في 13 جزءا عاديا . والذي يبدو ان الجزء المخطوط من المناهل ليس جزءا مستقلا من الاجزاء التي فصلها الفشتالي ، بل خليطا من اجزاء كانت كلها تتعلق بحياة المنصور ومآثره العلمية والعمرانية والسياسية والحربية يدل على ذلك ما حكاه الفشتالي نفسه من انه « ذكر في فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخم » (7) . بينما الجزء المخطوط من المناهل يشتمل فيما يشتمل عليه من اخبار المنصور ، على فتح السودان في نحو 150 صفحة — حسب نسخة تونس — تتخللها حوادث بيعة ولي العهد محمد الشيخ المامون ، وانتزاع الخيل من عرب الخلط وقبائل ازغار، وثورة ابن قرقوش ببلاد الهبط وجبال غمارة ... الخ. فهل نحن اذن امام اختصارين للمناهل ، مطول ومقتضب ؟ هذا امر عادي في عصور الجمود المتأخرة التي كثرت فيها الاختصارات والشروح والحواشي . ومهما يكن من امر فمكننا ان نطمئن الى أن محتوى الكتابين المخطوط والمطبوع من المناهل هو بلفظ الفشتالي نفسه ، الا عبارات قليلة اقحمها صاحب المختصر المطبوع للتنبيه على الحذف او التلفيق ، وان كان اغلب النقول المتأخرة عن المناهل انما هي بالمعنى بسبب طول عبارات الفشتالي المثقلة بالصناعة الانشائية، والمبالغات التعظيمية . وقد ظلت « المناهل » موجودة — كلها او بعضها — حتى اواخر القرن الماضي ، ينقل عنها المؤرخون مباشرة ، كاليفراني في « نزهة الحادي » (8) ، والزياني في « الترجمان المعرب » (9) ، واكنسوس في « الجيش العرمرم » (10) ، والناصري في « الاستقصا » (11) ثم افتقدت ولم تسفر عن نتيجة الجهود المبذولة للعثور عليها في النصف الاول من هذا القرن سواء من طرف المؤرخين المغاربة أو بعض المستشرقين كالكونت دوكاستر ، وليفي بروفنسال. وقد خصص هذا الاخير بضع صفحات في كتابه « مؤرخو الشرفاء » للحديث عن المناهل اعتمادا على بعض النصوص المنقولة عنها ، وحكى اسف العلماء المغاربة على فقد هذا الكتاب وعد ذلك خسارة لا تعوض (12) . بل والى ما قبل اربع سنوات فقط نجد لوطورنو يؤكد ضياع المناهل (13) لدى حديثه عن الزياني ونقوله الخاصة بقصر البديع .

ولما كان الجزء المخطوط من المناهل الذي يقع في 539 صفحة — نسخة تونس — يفوق حجمه المختصر المطبوع بأكثر من الضعف ، ويختص بزيادات تاريخية وادبية كثيرة تتعذر الاشارة اليها كلها في هذه العجالة ، رايت من الانسب أن اذكر بعضها مما له علاقة بالتاريخ فقط ، لنتبين اهميته وضرورة طبعه كاملا . ففيما يخص الوثائق يحتوي مخطوط المناهل على بيعة ولي العهد محمد الشيخ المامون ، وهي من انشاء عبد العزيز الفشتالي في ازيد من 21 صفحة ، وبيعة ادريس الوما سلطان بلاد برنو السودانية (النيجر وتشاد الحاليتين تقريبا) وهي من انشاء عبد العزيز الفشتالي ايضا في نحو تسع صفحات ، ورسالة من المنصور الى سلطان الحجاز شريف مكة حسن الحسيني يخبره باستعداده للهجوم على اسبانيا واسترجاع الاندلس الى غير ذلك من المراسلات الموجهة الى داخل المغرب وخارجه ، مما لم ينشر في « مجموعة رسائل سعدية » ،

---

6) احمد المقري ، نفح الطيب ، القاهرة 1302 هـ . 4 : 233 .
7) احمد المقري « روضة الآس » الرباط ، 1964 ، ص 162 .
8) طبعة فاس ، ص 72 — 74 — 76 — 77 — 82 — 85 — 86 — 93 — 104 — 107 — 109 ...
9) مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم 658 د . ص 2 — 353 — 355 — 356 — 359 — 362 — 363 .
10) طبعة فاس ، 1336 هـ . 1 : 159 — 168 .
11) طبعة الدار البيضاء ، 1954 — 1956 5 : 90 — 91 — 94 — 104 — 112 — 122 — 134 — 151 — 154 — 163 — 164 — 166 — 188 — 190 ...
12) L. Provençal, *Les Historiens des Chorfa*, Paris, 1922, pp. 92-95
13) R. Letourneau, *Etudes d'orientalisme*, dédiées à la mémoire de L. Provençal, Paris, 1962, p. 633

خلافا لما ورد في مقدمة المختصر المطبوع . ومن الناحية الاخبارية ينفرد المخطوط بصفحات عجيبة تجعل الفشتالي بدعا من المؤرخين المعاصرين له ، وتميزه باتساع الافق التاريخي والاطلاع على الماجريات السياسية والدينية في اوربا الناهضة اذ ذاك ، مع ربط ذلك بالاحداث المغربية وكشف النقاب عن بعض خبايا السياسة الخارجية لاحمد المنصور تبين مدى وعيه وادراكه الذكي لمختلف تيارات عصره ، وعمله على مسرح السياسة الدولية .

واذا كانت هذه المعلومات التي اتى بها الفشتالي ليس من شانها ان تحدث تغييرا جوهريا فيما نعرف من تاريخ اوربا في هذه الحقبة ، فان فائدتها في الافصاح عنها من وجهة نظر مغربية تبين ما كان هذا الجانب يؤمله وراء تلك الاحداث مما لايذكر عادة في الكتب العادية ولا في السفارات والمراسلات الديبلوماسية . فقد تحدث الفشتالي عن اثر معركة وادي المخازن بالنسبة للبرتغال ، وما كان من وصاية الكردينال (14) على عرش لشبونة نحو ثلاث سنوات قبل ان يستولي عليه ملك قشتالة فيليب الثاني خال سيبستيان ، ويضمه قهرا الى العرش الاسباني . وهنا يجمل الفشتالي الحديث عن العلاقات المغربية ـ الاسبانية ـ الانجليزية ، فيشير الى ما كان من فرار دون انطونيو المطالب بعرش البرتغال الى بلاط اليزابيت في لندن ، وقدوم ابنه الدون كريستوف (15) على المنصور في مراكش حيث اقام مدة طويلة في بناية صهريج المنارة قبل ان يشارك في الحملة الانجليزية البحرية ضد اسبانيا . هذه الحملة التي كانت بتدبير المنصور ومساعدته . ويقدم الفشتالي بيانات مدققة عن نوع المساعدة التي كان مخدومه السعدي يقدمها الى ملكة انجلترا ، فزيادة على امدادها بالمعادن التي يتوقف عليها صنع المدافع وسائر الآلات الحربية كالنحاس ، سمح المنصور للانجليز بالتزود من المغرب بملح البارود الذي كان محظورا على المسيحيين بفتوى من العلماء . وعند ما تطرق في المناهل الى الكلام على ثورة الامير الناصر بالشمال شرح ذلك على ضوء العلاقات المغربية الاسبانية مبينا ما كان من احتفاظ الاسبان به في بلادهم نحو عشرين سنة قبل ان يجهزوه بالمال والسلاح والانصار في نواحي قاعدتهم مليلية ، وذلك عندما راوا استعدادات المنصور البرية والبحرية تكاد تشرف على نهايتها لمهاجمتهم ، ففتحوا ضده واجهة حربية في عقر داره مقنعة وراء ذلك الامير الثائر . وتفصح « المناهل » هنا في عبارات مقتضبة عن شيء خطير مقدمة الحلقة المفقودة للاجابة عن نقطة الاستفهام التي ظلت قائمة مدة طويلة حول سياسة المنصور الوطنية والدينية ، من مهادنة المسيحيين او مصادقتهم ؛ واتخاذ موقف معاكس مع المسلمين الاتراك والسودان ! فاهتمام المنصور حسب منطوق المناهل ومفهومها ـ كان متجها قبل كل شيء الى القضاء على الاسبان الذين اتوا على المملكة الاسلامية بالاندلس ، واخرجوا الموريسكيين من ديارهم بغير حق وساموهم سوء العذاب على يد ديوان التحقيق ، ثم خلفوا البرتغال في الثغور المغربية المحتلة اذ ذاك . غير ان الخليفة السعدي كان يقدر قوة خصمه كدولة ذات امبراطورية عظيمة ، وموارد مالية وبشرية هائلة ، وايضا كدولة مسيحية تتزعم الكاثوليكية وتتمتع بتأييد اغلب الدول الاوربية التي تتمذهب بمذهبها ، ولا تتردد في نصرتها عسكريا متى وقع الهجوم عليها . ولكي يواجه المنصور القوة بمثلها راى ان الموارد المحلية من خراج وسكر وتجارة خارجية لن تمده بما يكفيه للاستعداد العسكري الكامل الضامن للنجاح ، فلجأ الى الاستحواذ على معادن الذهب في السودان وتكوين امبراطورية واسعة داخل القارة الافريقية تمده بالعناصر البشرية اللازمة للجيش البري والبحري . ورمى المنصور بتحالفه مع اليزابيت الى غرض مزدوج : كسب سند البروتستان (16) الشق الثاني للمسيحية الذي تتزعمه انجلترا في اوربا ، واشغال خصومه الاسبان ليتفرغ الى تحقيق اهدافه في التوسع القاري والاستعداد العسكري . ويتوسع الفشتالي قليلا في الحديث عن الجبهة البروتستانية واعمالها المعادية لاسبانيا ، فبعد ان اشار الى اغارة الاسطول الانجليزي على لشبونة ، ثم تحطيمه للارمادا ، ومهاجمة الاسطول التجاري في قادس وتخريب هذا الثغر الهام لعرقلة التجارة الاسبانية مع الهند ، تحدث عن الحروب الدينية في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

---

14) يكتب الفشتالي كاف الكردينال قافا . وقد سقطت منه النون فصار « قردبال » ولم ينبه على ذلك في المختصر المطبوع .

15) يسميه الفشتالي (كشطوبان) وهو تحريف لكريستوف قريب من نطق الاسبانيين به : (كريستوبان) .

16) يعبر عنهم الفشتالي بـ « اليروتان » ولعل الباء قد سقطت منه فكان « البيروتان » او حرف عن البروتستان

وبخاصة احداث الملك البروتستاني هنـــري الثالث ، ودسائس خصومه الكاثوليك المتعاونين مع ملك اسبانيا من اجل الاستيلاء على عرش فرنـــا ورده كاثوليكيـــا ما دام هنري الثالث لا وارث له ، وانضمام هذا الـى ابن عمه ملك نافارا ، وعمل الملكين البروتـــتاتيين على استرجاع باريس والقضاء على خصومهم الى ان اغتال احد الرهبان (جاك كليمان) هنـــري الثالث . كمـــا اشار الى انتهاء الفتن الداخلية بجلوس هنري الرابـع على عرش فرنـــا وتوحيده مملكتي نافــــار وباريس ، فناصب اسبانيا العداء لاسترجاع ما كانت قد اقتطعته من الممتلكات الفرنسية ، في حين كانت البلاد الواطئة ثائرة على اسبانيا تحاول التخلص من سيطرتها ... وكان الفشتالي يريد أن يبرهن على ان هـــذا الثالـوث البروتستاني المحارب لاسبانيا هو الحليف الطبيعـي للمنصور الذي كان بدوره يعد العـــدة لغـــزو شبه جزيرة ايبيريـــا .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا تتبع كل ما انفـرد بـه الجزء المخطوط من المناهل . فلنكتف بهذا القـدر لنلقي نظرة خاطفة على مختصره الذي نشره المركـــز الجامعي للبحث العلمي بالرباط ، بتحقيـــق وتقديـــم الاستاذ عبد الله كنون . والمختصـــر (بكسر الصاد) مجهول ، افترض المحقق ان يكون احد كتاب السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله الذي كان معجبـــا بالمناهل ، نظرا لمـــا يتميز به هذا المختصر مـــن حذف عبارات التعظيم المبالغ فيها في جانب المنصور الـسعدي، والاقتصار على سرد الاخبـــار وتلخيصها وتلفيقها . وقد عثر الاستاذ كنون على مخطوط المختصر في فاس فقابله على اصل ما سمي بالجزء الثاني من المناهـــل الذي اكتشف في تونس واعده للنشر قبل أن يطلـــع على مخطوطتي المكتبة الملكية بالرباط لنفس الجـــزء ، فتدارك ما امكن تداركه في التحقيق والمقابلة عليهمـــا وان لم تختلفا في الجملة عن نسخة تونس فيما يخـص الاخطاء والبياضات

يتناول المختصر المطبوع تاريخ نحو 16 سنة من حياة احمد المنصور الذهبي (986 – 1002 / 1578 – 1593) – وان اقحم صاحب الاختصـــار في الاول (ص 18) بضع جمل في ذكـر وفاة المنصور وتقديـر عمره ومدة خلافته – . يبتديء ببيعـــة المنصور عقب معركة وادي المخازن ويستعرض الاحداث التي تلتهـــا من تمهيد البلاد والقضاء على قـــواد جيش الاندلس المشاغبين على الدولة ، وثورات الامير داوود بن عبـــد المومن في سوس ، والامير الناصر بن عبد الله الغالب في ضواحي مليلية ، وابن قرقوش المكناسي في بلاد الهبط وجبال غمارة . كما يتحدث عن عرب أزغـــار ببـــلاد الغرب وموقفهم من السعديين منذ قيام دولتهم الـى ذلك العهد ، ويستطرد اخبار دخولهم الـــى شمـــال افريقية وتقلبهم فيها خلال العصور الفاطمية والموحدية والمرينية . وبعد ان وصف بيعات ولي العهد محمـــد الشيخ المامون لاسيما البيعـــة الكبـــرى في التجمـع العظيم ببسيط تامستا ؛ اطنب في الحديث عن فتـــح الـسودان ؛ فأتى على ما كان من استيلاء المنصور على تيكورارين وتوات وسائر تخـوم الصحـــراء ، الذي اخضع لسلطته علاوة على المدن والقرى والقصور اكثر من 40.000 خيمة ، وعلى مراسلات المنصور لـسلطان مالي وسفاراته له حول مشكل معدن الملـــح بتغازي ، واخبـــار الجاسوسية والتضريب بيـــن الامـــراء السودانيين آل سكية ، واستقدام احدهم الى مراكش للتشويش على سلطات كاغو ، ثم تطويق (مالي) قبـل غزوها بالاستيلاء على الامارات الغربية الصغيرة حتى مصب نهـر السنيغال (17) ، والحصول على بيعـــة صاحب مملكة برنو في الجهة الشرقية . وفي الحديث عن الغزو نجد كثيرا من التفاصيل عن عـــدد الجيش وعدده وتنظيمه وقادته ومسالكه في الصحراء ؛ وعـن المعارك العنيفة حول تنبكتو وكاغـــو وفي مستنقعات اعالي نهر النيجر ؛ ثم عن تنظيم تلك الاقاليم النائيـــة من الامبراطورية السعدية وترحيل بعـض القبائـــل العربية والبربرية لاستيطانهـــا من معقـــل وجشم ومصامـــدة .

ويختص الجزء الاخير من الكتاب بذكر مآثـــر المنصور ووصف خلقه وخلقه جملة وتفصيلا ، ويسهب في ذكر حلمه وتمسكه بالدين وتوكله وصبره وعفـوه وعدله وسخائه وشجاعته وحسن تدبيره وسياستـــه، معززا ذلك بضرب امثلة لحوادث شاهدها بنفســـه . ولمـــا تحدث عن سعة علم المنصور استعرض مقروءاته واشياخه نقلا من خط المنصور نفســـه ، فاحتفظ لنا بذلك بجزء مهم من « فهـرســت » ذلك الملك العالـــم التي تعتبر اليوم ضائعة كأكثر تآليفه . وربما كـــان هذا القسم أضعف ما في الكتاب واقربه الى الظنـــة ؛

17) يخلط الفشتالي – ككثيـــر مـــن المؤرخيـــن القدماء – بين الانهار الافريقية ؛ فيطلقون ؛ اســـم (النيل) على كل من النيجر والسينغال والنيل . على ان الفشتالي نبه الى ان هناك نيلين : نيل مصري الذي يصب في البحر المتوسط ، ونيل آخر يصب في المحيـــط .

يتعين على القاريء ان يسير فيه بحذر اكثر ويعرض كل ما يجد علىّ محك النقد والتمحيص ، ليسلم من المغالطات والمبالغات التي أوقع فيها المؤلف تملقه لمخدومه واضفاؤه عليه حلى الملائكة والرسل حتى كانه خلق مبرءا من كل عيب ومتوجا بكل حسن كما يقولون !

وتكون خاتمة المطاف بالوقوف على وصف شيق لقصر البديع ، وكأن المؤلف قد الهم ان الدهر سيعفى على آثاره فبادر الى تخليده في طرسه لتتمكن الاجيال اللاحقة من القراءة ان عزت المشاهدة . وهناك سفحات عديدة تصف القصور المتصلة في البديع ، لا سيما الدار الكبرى التي تحتوي ساحتها على خمسمائة سارية عظيمة من المرمر ، وعشرين من القباب الفخمة ، كقبة الزجاج ذات السقف الزجاجي الملون والخمسينية ، وقبة النصر ، وقبة التيجان. وحتى ملحقات القصر نالت عناية الفشتالي ، من مساجد ودور وحمامات ، وجناح خاص بالحريم مبني في طبقات على صفين متقابلين بكيفية هندسية عجيبة تحجب رؤية النساء وتضمن وصول النور الكافي بل « الفائض » ، ورياض فسيحة مفروسة بجميع أنواع الاشجار المثمرة ، كبستان النهر ، والمسرة ، والبركة العظمى التي تطول مد البصر وتضطرب امواجها كالبحر ، تحيط بها على حافاتها يمينا وشمالا سلسلة من « الخصص » المتدفقة بالمياه .

ويقدم لنا « مختصر المناهل » عن آخر سنة يؤرخ لها ـ 1002 هـ ـ فائدتين هامتين . اولاهما استمرار توسيع البديع بتخطيط قبة عظيمة لاستقبال الوفود في اقصى بستان النهر ، يزيد طولها على ثلاثمائة شبر ، ووضع تصميم ابوابها ونوافذها وسقفها وانواع زخرفها . والثانية ما كان عليه المنصور اذ ذاك ـ وقد تم فتح السودان ـ من الاستعداد العظيم ، وما تنتجه معامل السلاح في مراكش من الآلات النارية من بنادق ومدافع وكور وغيرها ، وما يستجلبه من الاسلحة الاوربية مما تزخر به مخازنه الهائلة تحت الارض وفوقها ، وعزمه على اتخاذ حصن خاص بخزن الاسلحة داخل القصبة السلطانية بعد ان امتلأت كل المخازن القديمة ...

وقد اقتصر عمل الاستاذ كنون ـ كما صرح بذلك في المقدمة ـ على تقديم نص صحيح اقرب ما يكون الى الاصل الذي كتبه المؤلف ، عن طريق المقابلة مع مخطوطات تونس والرباط ، دون اضافة شروح او تعليقات تزيد على غرض تحقيق النص .

ونشر مع هذا المختصر ثلاثة ذيول كانت معه في الاصل المخطوط ، احدها يتعلق بقيام الدولة السعدية في نحو خمس صفحات ، والثاني في اخبار بعض الخلفاء العثمانيين في سبع صفحات ، ويضم الثالث مجموعة شعرية لادباء مغاربة من عهد السعديين في اثنين واربعين صفحة ، مع خمسة فهارس للمواضيع والاعلام والاماكن والاشعار والكتب .

واذا كان لابد من ان نقول كلمة عن قيمة هذا الكتاب ، فاننا لانجد غير تاكيد ما ذهب اليه عموم المؤرخين منذ عصر المؤلف حتى اليوم ، من ان « المناهل » مصدر هام لمعرفة تاريخ السعديين عموما ، وواسطة عقدهم احمد المنصور خصوصا . فالمؤلف لاينقل عن كتاب ، وانما يؤرخ لاحداث قريبة العهد يستقيها ممن عرفوها وادركوها ، او يتحدث عن حوادث عاشها ، ووثائق كتبها بخط يمينه او اشرف على انجازها من طرف بعض مساعديه كتاب البلاط . ولا يضير كونه مؤرخا رسميا للدولة ينعم بخيراتها وينافح عنها وينشر محاسنها ، فما افدناه من وضعيته الرسمية هذه من الاطلاع على كثير من الاسرار والحقائق اكثر بكثير مما فاتنا من معرفة الجوانب القاتمة لتلك الدولة ، وما اقذى عيوننا من مبالغات مكشوفة وعبارات طنانة مفرطة في التقديس والاجلال. على ان الجوانب الاخرى التي لم تساعد وظيفة الفشتالي وظروفه الخاصة على التعرض اليها قد عرفت بعد ذلك ـ وربما بشيء من التشنيع والتقريع ـ بواسطة مؤرخين ناقمين على السعديين او مشايعين لمن خلفوهم في الحكم ، مثل المؤلف المجهول صاحب « تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية » . ويجب الا ننسى ا ن الفشتالي اديب قبل كل شيء يسجل باسلوبه المنمق الاحداث البارزة للفترة التي ارخها وكانه يؤدي مهمة من مهماته الرسمية في ديوان الانشاء . فهو لذلك لايعير اهتماما للنواحي الاجتماعية ، ولا يسجل من اخبار عامة الناس الا بقدر ما لها من اتصال بالقصر ، حتى اذا واتته الفرصة الكلام على فتح بلاد ، او قضاء على ثائر ، او وصف حفلات ، او غير ذلك من المناسبات التي يتبارى فيها الادباء ، اطلق لنفسه العنان في ايراد قصائد او مختارات منها مما يضفي على كتابه صبغة مزدوجة تاريخية وادبية .

الرباط : محمد حجي



بنو حمود ومركزهم في سبتة ـ اسم المترجم ونسبه ـ بلدته وتاريخ ولادته ـ نشاته ودراسته بالمغـرب والاندلس ـ رحلته للشرق ونشاطه به ـ تاريخ رجوعه من الشرق ـ فترة غامضة في حياتـه ـ آثاره النباتية والطبية ـ اتصاله برجار الثاني ـ الخطوات الاولى لتحقيق مشروع جغرافي ـ رسم خريطة حائطية عالمية كاملة ـ المنضدة الفضية ـ نزهة المشتاق ـ آثار الادريسي الاخرى في الجغرافية والفلك ـ الادريسي الاديب ـ هل عـاد الادريسي الى سبتة ـ وفاته ـ مقدمة نزهـة المشتـاق .

بنو حمود ومركزهم في سبتة :

يرجع نسب بني حمود الى المولى ادريس الاول ابن عبد الله مؤسس الدولـة الادريسية التي قامت بالمغرب من عام 172 الى عام 363 هـ

وقد كان لاهل هذا البيت مركزمرموق بسبتـة بلدهم اكتسبوه من انتسابهم للادارسة ، ومن سلوكهم العلمي والادبي ، ومن انتمائهم للحموديين الذين كانوا ملوكا في جهات من الاندلس وشمال المغرب بما في ذلك سبتـة .

والى عهد المترجم كان هؤلاء الحموديون ـ الذين ينتسب اليهم الادريسي ـ لايزالون يتمتعون باحترام زائد ، يدل لهذا تحلية ابن ابـي اصيبعـة (1) للمترجم بالعالي بالله ، كما يدل له ايضا ما حكاه الصفدي (2) : من ان رجار الثاني لما تقدم للادريسي بالمقام عنده في بالرمة قال له : « انت من بيت الخلافة »

اسـم المترجـم ونسبـه :

هـو محمد بن محمد بن عبـد الله بن ادريس الحسني ، هكذا جاء في « طبقات الاطباء » (3) لابن ابي اصيبعة ، وفي « الوافي بالوفيـات» (4) للصفـدي ، يجعل ادريس المذكور ابن يحيى بن علي بن حمـود . وحسب « جمهرة الانساب » (5) لابن حزم ، فان هذا غير صحيح ، حيث ان ادريس بن يحيى انمـا اعقب ابنا واحدا اسمه محمد ، اما ادريس بن علي بن حمود فقد اعقب اربعة اولاد احدهم علي الذي مات في حيـاة ابيه واعقب ابنه عبد الله .

---

1) طبقـات الاطبـاء ج 2 ص 52
2) « الوافي بالوفيات » ـ قطعة المكتبة الصقليـة ص 658 .
3) ج 2 ص 52
4) ج 1 ص 163
5) ص 45

والظاهر ان عبد الله هذا هو المذكور في سلسلة نسب المترجم ، وانه كان ينسب لجده ادريس دون والده علي لما توفي هذا الاخير في حياة ابيه ، وعلى هذا يكون نسبه هكذا :

محمد بن محمد بن عبد الله بن علي بن ادريس ابن علي بن حمود .. ويقال في نسبه الحمودي نسبة الى حمود المذكور، ثم الادريسي نسبة الى المولى ادريس الاول .

بلدته وتاريخ ولادته :

اما بلدته فهي سبتة مقر اسلافه ، ومحل ولادته ونشأته على ما يذكر اكثر مترجميه .

وبعض من عرف به – كالعماد في الخريدة (6) – ينسبه الى قرطبة ومرد ذلك لاقامته بها ودراسته على اعلامها فيما يظهر .

اما من ينسبه الى صقلية – كابن سعيد – فلاستقراره بها عند رجار الثاني ، ومن الخطا نسبته للنوبة بناء على غلط شنيع وقع فيه مترجما مختصر النزهة الى اللاتينية .

وعن تاريخ مولده يذكر مترجموه ان مولده كان في عام 493 هـ / 1100 م ، اما مكان ولادته فيجعله اكثر مترجميه في سبتة ، ولعلهم استنتجوا هذا من مقام عائلة الادريسي في سبتة ، وهناك رواية يوردها الاستاذ كونراد وليلر الالماني تقول : انه ولد بتطوان ، ولا يزال يتيسر الوقوف مباشرة على كتابة هذا عن الادريسي حتى يعرف مستنده .

نشأته ودراسته بالمغرب والاندلس :

ثم انه تكاد تنعدم النصوص – الا قليلا جدا – عن مكان نشأة الادريسي وشئون حياته الاخرى قبل اتصاله برجار الثاني ؛ وما دمنا لم نقف على نص صريح في انتقاله صغيرا لقرطبة يمكن القول بانه نشأ ودرس دراساته الاولى في سبتة البلد الذي ترجحت ولادته فيه .

كما ان التقرير الذي يبديه في النزهة نحو قرطبة يستنتج منه انه درس بقرطبة وتخصص بها في العلوم التي يعلم من خلال اثاره البراعة فيها ، وهي: الجغرافية في الدرجة الاولى ، ثم الفلك ، والطب، والنبات ، والادب .

رحلته للشرق ونشاطه به :

ان تصريح المترجم في النزهة بانه كان اثناء عام 510 هـ في آسيا الوسطى يفيدنا – ولو تقريبا – تاريخ انتهاء دراساته بقرطبة ؛ كما قد نستفيد منه انه ذهب الشرق للتوسع في دراساته العلمية ، اذا لاحظنا عادة كبار علماء المغرب والاندلس الذين كانوا يقومون بمثل هذه الرحلات ، وقد نوه بقيمتها – كثيرا – ابن خلدون في المقدمة .

وهناك شيء ثان لاشك ان المترجم قام به اثناء هذه الرحلة ، وهو التجول في ربوع الشرق ، كما يوخذ من النزهة ، ومن شعره الذي ينبيء عن كثرة تجوله، مثل قوله :

ليت شعري اين قبري ضاع في الغربة عمري

لم ادع للعين ما تشتـ ـاق في بر وبحر

وقوله :

دعني اجل ما بدت لي سفينة او مطية

لابد يقطع سيري امنية او منية

وهناك امر ثالث قام به في الشرق ، وهو كتابة موضوعاته في النبات والطب ، ويمكن ان يستنتج هذا من القطعة الادريسية التالية : (7)

ان عيبا على المشارق ان ار جع عنها الى ذبول المغارب

وعجيب يضيع فيها غريب بعد ما جاء فكره بالغرائب

ويقاسي الظما خلال اناس قسموا بينهم هدايا السحائب

فما هي هذه الغرائب التي جاء بها فكره لما كان بالشرق ، لاشك انها غير الشعر لانه لايقال فيه عمل فكري ، ولانه لو قصده لكان يقول : (جاء شعره) بدل فكره ، ولا شك – ايضا – ان هذه الغرائب لا تعني موضوعاته الجغرافية والفلكية التي انما كتبها في

(6) قطعة المكتبة الصقلية ص 610

(7) وردت هذه القطعة وما قبلها من الشعر في « الوافي بالوفيات » ج 1 ص 164 .

صقلية خاصة ، فلم يبق بعد هذا الا الناحية الاخرى المعروف نشاط الادريسي فيها : وهي النبات والطب، ومن هنا يكون هذا الشطر من القطعة الادريسية يفيد فائدة جديدة ، وهي ان المترجم انما كتب عن هذه الموضوعات في الشرق لا في صقلية ولا في غيرها.

ومما يؤيد هذا — في الجملة — ان اماري — في تاريخه — تشكك في كون الادريسي وضع كتابه النباتي في صقلية (8) ، ويؤيده — ايضا — ان تاليف الادريسي في المفردات الطبية عرف بالشرق قبل موضوعاته في الجغرافية ، فان ابن اصيبعة لما ترجم للادريسي (9) لم ينسب له الا هذا الكتاب دون موضوعاته في الجغرافية ، على حين يذكر لمترجميه مؤلفاتهم في الطب وغيره ، وسبب ذلك فيما يظهر هو تاليف كتاب المفردات بالشرق دون غيره .

تاريخ رجوعه من الشرق :

ثم ان القطعة الادريسية قد تحدد التاريخ الذي رجع فيه المترجم من الشرق ، فان البيت الثالث والاخير منها يقص فيه الادريسي حديث الازمة الخانقة التي طرات على حياته بالبلاد المشرقية ، ويتحدث عما قاساه بها من ظما للماء الذي احتكرته فئة من الناس بينهم دون الادريسي الغريب .

وليلاحظ — مع هذا — ان الادريسي لايبدي تبرمه من جهة معينة من الشرق ، وانما هي جهات متعددة هي التي عبر عنها اول القطعة بالمشارق

وليلاحظ — مرة ثانية — ان جهات الشرق التي يظهر انه يعنيها هي ذات مياه وخيرات فلمصر نيلها.. وللشام امطارها وثلوجها ، وللعراق دجلتها وفراتها..

وعلى هذا فتشكي الادريسي من الظما في هذه الجهات يبدو انه شكوى من حالة عارضة لا دائمة ، ومن ازمة موقتة لا مؤبدة ، نشات عن انحباس المطر عن هذه النواحي .

ومن هنا يمكن ان نهتدي لتحديد او تقريب التاريخ الذي فارق فيه المترجم الشرق ، فلنبحث اذا عن السنة التي وقعت فيها حادثة من النوع المشار له في تلك الجهات من الشرق ، ولنحدد السنة المطلوبة فيما بين عامي 510 هـ وهي السنة التي كان فيها المترجم بآسية الصغرى ، وعام 533 وهي السنة التي يخمن انه اتصل فيها برجار الثاني .

لقد راجعت عن هذه الحقبة تواريخ ابن الاثير ، وابي الفداء ، وابن كثير ، وشذرات الذهب ، فوجدت ابن الاثير (10) خاصة يذكر في حوادث 518 هـ ما يلي :

(في هذه السنة انقطعت الامطار في العراق والموصل وديار الجزيرة والشام وديار بكر وكثير من البلاد ، فقلت الاقوات ، وغلت الاسعار ، في جميع البلاد ، ودام ذلك الى سنة تسع عشرة)

فهذه الحادثة هي التي اكتوى المترجم بظمئها، وهي التي يلمح لها الادريسي في ختام قطعته ، ومنها يظهر ان رجوعه من الشرق يتردد بين عامي 518 و 519 هـ ، وان مدة مقامه به تتراوح بين تسعة او عشرة اعوام .

فترة غامضة في حياته :

ثم انه من تاريخ رجوع الادريسي من الشرق الى عام 533 هـ ينسدل غموض على حياته ، فلا يعلم عنه الا ما رواه الصفدي (11) من انه استدعاه رجار الثاني اليه من العدوة .

فماذا يعني بالعدوة ؟ وفي اي جهة منها كان يقيم ؟ لا شك ان المراد بالعدوة المغرب الاقصى ، حسب قسم الممالك من صبح الاعشى (12) .

اما الجهة التي كان يقيم بها بالعدوة فلا يبعد ان تكون هي سبتة ما دام يترجح انه ولد ونشا بها ، ولانها موطن اسلافه ، ويمكن — ايضا — ان تكون هي محل اقامته منذ رجع من الشرق ، على انه من المتوقع

---

(8) العرب في صقلية للدكتور احسان عباس 160 .

(9) ج 2 ص 53 .

(10) ج 10 ص 228

(11) قطعة المكتبة الصقلية ص 658

(12) ج 5 ص 152

ان المترجم – قام – خلال هذه الفترة الطويلة – برحلات داخل المغرب وخارجه ، لما علم من اهتباله بالرحلات والاسفار .

هذا ما يمكن ان يستنتج عن حياة المترجم فى هذه الفترة ، اما ما عدا ذلك من تقلبات احواله ونشاطه العلمي ، فلا يعرف عنه قليل ولا كثير .

آثاره النباتية والطبية :

هذا وقبل ان نتصل بالادريسي فى صقلية ، نقول كلمة عن آثاره النباتية والطبية التي يستنتج انه وضعها بالشرق :

ا – ينسب له أماري فى تاريخه (13) كتابا فى النبات اسمه (الجامع لصفات اشتات النبات) ويذكر الدكتور يوسف شخت فى بحث له(14)عن الادريسي ان هذا الكتاب لايزال موجودا ولكنه لم يبين المكتبة التي يحفظ بها .

ويوجد بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية صورة (فيلم) للسفرين الثاني والثالث من هذا الكتاب ، وقد جاء وصفه فى فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية (15) هكذا :

(الجامع لصفات اشتات النبات ، وضروب انواع المفردات : من الاشجار والثمار والحشائش والازهار والحيوانات) لمحمد بن عبد الله بن ادريس الادريسي المتوفى سنة 560 هـ ، ذكر فيه الاسماء بالعربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرانية والبربرية ، وذكر منافع كل مفرد وما يستخرج منه من صموغ

الجزءان : الثاني والثالث ، ويشتملان على حرف اللام والميم والنون والصاد والضاد والفاء والقاف والراء والسين والتاء والثاء والحاء والذال والظاء والغين والشين .

وهما بخط معتاد عليهما زيادات وهوامش كثيرة ومعجمات ، كتب المجلد الثاني عبد العزيز بن محمود بن عبد الله الفقيه الواعظ اليعقوبي ، وذلك سنة 659 هـ .

وعلى فاتحة المجلد الثالث ما نصه : السفر الثالث من كتاب الجامع .. تاليف محمد .. – خطه لنفسه ، ثم لمن بعده ، فرحم الله عبدا دعا له بالمغفرة والرحمة .

وهذا يفهم منه انها قد تكون نسخة المؤلف نفسها .

185 ق – 26 س – 18 × 25 سم (Istumay 1343 – ف 730)

ب – كذلك تنسب له طبقات الاطباء (16) (كتاب الادوية المفردة) الذي ذكره ابن سعيد وافا دمنه ابن البيطار (17) والظاهر ان هذا الكتاب هو الذي تحدث عنه مؤلف كتاب العلم عند العرب (18) فى الفقرة التالية :

(للادريسي كتاب الصيدلة المبدوء بمقدمة عامة تسم بطابع البحث فى النباتات ، وكشف عنه اخيرا فى مخطوط بمكتبة فى استانبول ، ولكنه لم يشتمل (للاسف) الا على النصف الاول من الكتاب ، وقد ترجم ماكس مابرهوف بعض مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله فى دراسة لعلم النبات العام والصيدلية عند الادريسي نشرها فى المجلة :
Archiv f. Geschichte der Mathem. Naturwiss u. Technik. XII, 1936, p. 225
وذلك بعد انكتب فى الموضوعنفسه دراسة أوليةقصيرة ظهرت فى نفس السنة من المجلة المذكورة ...)

اتصاله برجار الثاني :

رجار هذا هو ثاني ملوك النورمان ، وقد دام حكمه لصقلية من عام 523 هـ – 1070 م الى عام 548 هـ – 1194 م ، وكان على جانب كبير من المعرفة بالعلوم الرياضيات والعمليات (19) ، محبا لاهلها (20)، كما كان محسنا للغة العربية معربا لكلامه متقربا

---

(13) العرب فى صقلية ص 160
(14) نشر لمجلة المستمع العربي ، السنة الثالثة عدد 15
(15) ج 3 ، القسم الثاني – ص 61 / 62
(16) ج 2 ص 52
(17) تاريخ الفكر الاندلسي – الترجمة العربية ص 313 . وانظر نفح الطيب ج 2 ص 44 – 138
(18) الترجمة العربية ص 389
(19) مقدمة نزهة المشتاق – تعلمة المكتبة الصقلية ص 16
(20) الوافي بالوفيات – تعلمة المكتبة الصقلية ص 657

المسلمين ، وفي وقته كان الادريسي قد اشتهر ذكره في الاوساط العلمية ، وعرف بكثرة اطلاعه على احوال الامم ، وبتبحره في علم الجغرافية (21) .

اراد رجار الثاني ان يقوم بعمل في علم الجغرافية فاستدعى الادريسي الى عاصمته بالرمة ، ليتعاون معه على هذا المشروع العظيم ، فلبى المترجم الدعوة، وطبيعي ان يكون هذا الاختيار يشهد بما كان للمسلمين من تفوق في العلوم والفنون في ذلك العصر (22)

ولقد بالغ رجار في احترام ضيفه الذي كان يجيء اليه ممتطيا بغلة ، فاذا صار عنده ، تنحى له عن مجلسه ، فيابى فيجلسان معا (23) .

وانه لا يعرف ـ بالضبط ـ التاريخ الذي استدعى فيه المترجم الى بالرمة ، ولكن يترجح انه كان قبيل عام 533هـ 1138 ـ 1139 م اذا لاحظنا ما جاء في طالعة النزهة من العمل لاعداد الخريطة الادريسية وشرحها استغرق 15 عاما ، وقدرنا ـ كما يوخذ من الصفدي ـ ان الادريسي كان حاضرا من اول المدة في هذا العمل الذي وقع الفراغ منه في شوال عام 548 هـ / 1154 م (24) .

الخطوات الاولى لتحقيق مشروع جغرافي :

كانت الخطوات الاولى التي اتبعت في وضع الخريطة الادريسية وشرحها : ان رجار استحضر الكتب المؤلفة في الجغرافية والاقاليم : مثل كتاب العجائب للمسعودي ، ومؤلفات الجيهاني ، وابن خرداذبه والعذري ، وابن حوقل ، والكيماكي ، وموسى بن قاسم الفردي ، واليعقوبي ، وابن المنجم، وقدامة ، وكتاب الجغرافيا لبطليموس وارسيوس(25)، ولما لم يجد رجار في هذه الكتب المعلومات الجغرافية الكافية ، احضر لديه العارفين بهذا الفن فباحثهم فلم يجد عندهم اكثر مما في الكتب ، وهنا قرر ـ مع الادريسي ـ تحقيق اخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب .

وتنفيذا لهذا القرار وقع اختيار رجار والادريسي على اناس الباء فطناء اذكياء ، جهزهم الى اقاليم الشرق والغرب ، وسفر معهم قوما مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عيانا ، وامرهم بالتقصي والاستيعاب لما لابد من معرفته (26) .

وقد فحص الادريسي ومساعدوهتقارير وصور هذه البعثات الاستكشافية ، واضاف لها مشاهداته الخاصة ومعلومات المؤلفات الجغرافية ، وبمشاركة رجار فحص ذلك كله تمحيصا دقيقا مكنه من تصحيح البيانات الواردة في الكتب الجغرافية الاخرى وتتميمها، وهنا ينتهي الشطر الاول من عمل الادريسي لتحقيق مشروع رجار الثاني .

اما الشطر الثاني فقد تناول تدوين اعمال المرحلة الاولى ، ووافق الفراغ من هذا التدوين العشر الاول من شهر يناير الموافق لشوال سنة 548 هـ (27) بعد جهود استغرقت 15 عاما ، وقد تألفت اعمال الادريسي في المرحلة الثانية مما يلي :

ج ـ رسم خريطة حائطية عالمية كاملة :

وقد بين فيها مواقع البلدان والجبال والبحار والانهار ... طبق ما وصل اليه البحث وانتهى اليه الاستقراء ، وقد فقد الاصل الكامل لهذه الخريطة ، وانما بقيت اجزاؤها متفرقة داخل كتاب النزهة او مستقلة بذاتها ، ومجموع الخرائط التي وقف عليها الاستاذ موليلر يبلغ 255 قطعة توجد بمكاتب باريس واكسفورد واستانبول ولينيغراد والقاهرة ، وعن هذه القطع استخرج موليلر المذكور خريطة تامة مشتبكة الاجزاء وطبعها طبعة ملونة سنة 1928 ، وهي اول طبعة لها ، وتتضمن هذه الخريطة من اسماء المدن فقط التي كانت مائجة بالعمران في ذلك العصر 2.064

---

21) محمد الفاسي : « الشريف الادريسي اكبر علماء الجغرافية عند العرب » ملحق مجلة «العدوتان » المجلد الاول ص 15

22) كشف الحجب عن مدنية العرب ص 65

23) الوافي بالوفيات قطعة المكتبة الصقلية ص 658

24) من بحث عن الادريسي نشره محمد عبد الله ماضي في مجلة الرسالة المصرية ـ السنة الثانية اعداد : 64 ـ 65 ـ 66

25) مقدمة « نزهة المشتاق » بواسطة المكتبة الصقلية ص 17

26) الوافي بالوفيات ـ قطعة المكتبة الصقلية ص 158

27) مقدمة نزهة المشتاق بواسطة المكتبة الصقلية ص 19

اسما : 365 بافريقيا ، 740 باوربا ، 959 باسيا (28)، ثم اعيد طبعها في العـراق قريبـا .

د ـ المنضـدة الفضيـة :

بعد ما رسم المترجم الخريطة الحائطية اراد رجار ان تنقش له على دائرة فضية ، فاحضر هذا الاخيـر الصناع المهرة الذين اتموا هـذا العمل تحت رعايـة الادريسي ورقابته ، وهكذا تـم حفـر صورة الارض المعمورة ـ باحرف عربية ـ على سطح منضدة فضية يبلغ طولها ـ حسب التقدير التقريبي للاستاذ موليلر ـ ثلاثـة امتار ونصف متر ، وعرضهـا متـر ونصف متر (29) ، كما كان يبلغ ثقل فضتها نحو 140 كيلـو غرام ، كما قدره الدكتور يوسف شخت (30) .

وقـد نقش على هذه المنضـدة الفضية صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفهـا ، وخلجانها وبحارها ، ومجاري مياهها ومواضع انهارها، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين من الطرقـات المطروقة والاميال المحدودة ، والمسافات والمراسـي المعروفة ، من غير ان يغادروا فيها شيئا (31) .

وقـد ضاعت هذه المنضدة اثناء ثورة قامت سنة 555 هـ 1160 م ضد الملك غليالم الاول ابن رجار الثاني ، حيث كسرها الثوار واقتسموها بينهم (32).

هـ ـ نزهة المشتاق في اختراق الافاق : تصميمها :

لما تم عمل المنضدة الفضية اشار رجار علـى الادريسي ان تشرح خريطتها في كتاب سماه رجـار نفسه : (نزهة المشتاق ، في اختراق الافـاق) (33)، وسمي ايضا « كتاب رجار او الكتاب الرجاري » (34) نسبة للامير المذكور ، ويشرح المترجـم في مقدمـة النزهة (35) التصميم الذي اقترحه رجار ليؤلف عليه الكتاب ، حيث يذكر ان هذا امـر ان تؤلف جغرافية مطابقة للمنضدة الفضية في اشكالها وصورها ، غير ان هذا الكتاب يزيد عليها بوصف احوال البلاد والاراضي في خلقها وبقاعها واماكنها وصورها وبحارها وجبالهـا وانهارها ومسافاتها ومزدرعاتها وغلاتهـا واجنـاس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التي تستعمل بهـا الصناعات التي تنفق بها والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها، وحيث هي الاقاليم السبعة مع ذكر احوال اهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم .

وقد حقق المترجم هذا التصميم الواسع في كتابه النزهة الذي توالي الحديث عنه فيما يلـي :

وصف كتـاب النزهـة :

من المؤسف انه لم يتسن الوقـوف على كتـاب النزهة كاملا حتى يستخرج منه هذا الوصف ، ولذلك ساتابع فيه بعض المصادر التي كتبت عن الادريسـي، مضيفا لذلك بعض الارتسامات عن اجزاء النزهة التي قراتهـا :

ابتـدا الادريسي بالكـلام على صورة الارض وهيئتها ومقدار المسكون منها ، وتقسيمه الى الاقاليم السبعة ، وذكر البحار ومبادئها وما تنتهي اليه ، ومـا يلي سواحلها من البلاد والامم : على طريق الاجمال .

ثم اخذ في تقسيم الارض المعروفة اذ ذاك حسب ظن الادريسي : وهـي القسم الشمالي من الكـرة الارضية مع جزء بسيط من القسم الجنوبي يصل الى درجة 16، جنوب خط الاستواء ، وقد قسمها الـى سبعة اقاليم على عدد ابواب الكتاب ، ثم قسم كـل اقليم الى عشر اقطار : فجاءت سبعين قطرا ضمنهـا سبعين خريطة موزعة على عدد الاقطـار .

وهو يسير في تقسيم الارض الى الاقاليم سيـرا عرضيا بحيث يبتدىء الاقليم الاول من الجنوب عند خط الاستواء تقريبا ، وينتهي الاقليم السابع عنـد المتجمـد الشمالي الذي يسميه بحر الظلمات ، وقـد حاول بهذا الاتجاه التدليل على كروية الارض التـي

---

(28) بحث محمد عبد الله ماضي السـابق الذكـر

(29) نفس المصـدر

(30) في مقال له عن الادريسي نشر لمجلة المستمع السنة الثالثة العـدد 15

(31) مقدمة النزهـة بواسطة المكتبة الصقليـة ص 18 / 19

(32) بحث محمد عبد الله ماضي السابق الذكر

(33) مقدمـة النزهـة بواسطـة المكتبة الصقلية ص 19

(34) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول العـدد الثالث

(35) بواسطـة المكتبـة الصقليـة ص 19

يرى ان تكويرها على شكل اهليلجي بيضوي ، كما حاول اثبات درجات العرض وتحديدها حيث وفق في هذا الى حد كبير .

اما عند تقسيم الاقاليم الى اقطارها فقد اتجه من الغرب متدرجا نحو الشرق ، وهكذا ابتدا من القسم الاول من الاقليم الاول جهة الغرب وانتهى عند آخر الاقليم السابع حيث القسم السبعون في اقصى الشرق .

ولم يعن في هذا التقسيم الثاني بتحديد درجات الطول وانما ذلك تقسيم اتخذه ليكون وصفه للعالم المعمور واضحا تاما منظما .

وهو يبتديء حديثه عن كل قطر باعطاء فكرة عامة عنه ، ثم يفصل كل احواله محتذيا في ذلك توجيهات رجار التي شرحها هذا البحث سابقا .

وعند تقديم الاخبار يتحرى ويتثبت الى ابعد حد ، ويتجنب ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر الوسيط والتي تورط فيها غيره من المؤلفين .

وفيما اذا ذكر شيئا خارجا عن حدود العادة ينسبه الى ناقله ثم يعقب عليه بكلمة احتياط (36) .

وقد صاغ الادريسي كتابه هذا باسلوب واضح سلس يشهد بما كان لمؤلفه من ادب وظرف .

وفيما يرجع لخرائط النزهة الموزعة بين اقسامها تذكر ان المترجم حذف من رسمها ما كان شائعا عند علماء الجغرافية مما يمثل الغرائب الخرافية ، وقد كان لتعاليم الاسلام الفضل الاكبر في هذا كما انه سلك في رسم الخرائط طريقة جديدة لم تكن مشتهرة بين جغرافيي العرب ، فقد سار على تعيين الابعاد بين كل مدينة واخرى ، وقلده في هذا الجغرافيون العرب الذين جاءوا بعده (38) كذلك داب على ان يجعل الجنوب دائما في اعلى الخريطة بحيث يكون الشمال في اسفلها والغرب عن يمينها والشرق عن يسارها (39)

وهذا على عكس الخريطة الاوربية الحديثة التي تجعل الشمال دائما في الاعلى والجنوب في الاسفل والشرق عن اليمين والغرب عن اليسار .

ويظهر ان الفارق الاساسي بين الاصطلاحين ناشىء عن الطريقة التي يكتب بها كل فريق فلما كان العرب يكتبون من اليمين جعلوا – منذ عهد الادريسي – اعالي الخريطة هو الجنوب ، ولما كان الغربيون يكتبون من اليسار جعلوا عالي الخريطة هو الشمال ، وقد كان الادريسي على بينة من منابع النيل التي تحدث عنها في النزهة (40) ورسمها على احدى الخرائط بحيرات عند خط الاستواء كالتي اكتشفها الاوربيون في القرن 19 م ، وهذه الخريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا (41) اما عدد صحائف النزهة فان بعض مصوراتها بدار الكتب المصرية تبلغ 610 لوحة بما في ذلك الخرائط .

مخطوطات النزهة وطبعاتها وترجماتها :

يوجد في دار الكتب المصرية اربع نسخ كاملة مصورة بالفوتوغراف عن مخطوطات الاستانة ، وهناك مخطوطات اخرى للنزهة كاملة وناقصة في مكاتب باريس واكسفورد والاستانة والقاهرة وروسيا ، ولا تزال – لحد الان – لم تنشر كاملة وانما طبعت اقسام منها بالعربية وغيرها على ايدي بعض المستشرقين مثل :

1) وصف المغرب والسودان ومصر والاندلس. 2) وصف الشام وفلسطين . 3) القسم المختص بايطاليا . 4) القسم المتعلق بنواحي البلطيق . وفي كل طبعة شروح وتعاليق .

كذلك ترجم الكتاب بجملته الى اللغة الفرنسية ترجمة رديئة ، وترجمت اقسام منه الى مختلف اللغات .

وفي عام 1001 هـ 1592 م طبع في روما مختصر لهذا الكتاب بعنوان : نزهة المشتاق ، في ذكر الامصار

---

36) ترجمة الادريسي للاستاذ محمد الفاسي ص 21/20 – العلوم والاداب والفنون في عهد الموحدين ص 79 – 81 .

37) بحث محمد عبد الله ماضي السابق الذكر .

38) تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج 2 ص 378 .

39) ترجمة الادريسي السابق الذكر ص 22 .

40) يوجد هذا في قطعة النزهة المنشورة عن هذه الناحية وفي « حضارة العرب » لغوستاف لوبون: الترجمة العربية ص 568 : اثبت النص الذي يكتشف منابع النيل .

41) تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج 3 ص 93 .

والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والافاق ، تم نشر بباريس عام 1029 هـ 1619 م ، ترجمة هذا المختصر اللاتينيــــة الناقصـــــة .

اثـر النزهـة وخرائطهـا :

(كانت جغرافية الشريف الادريسي معول اهل اوربا في تقويم البلدان اجيالا ولا سيما عن بلاد الشرق) هذا ما يقوله جرجي زيدان (42) ، ويشهد البـارون دي سلان : بان هناك بعض اجزاء من المعمورة لا يـزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الامور المتصلة بهـــا (43) .

وقد جاء ما يدل على ان كتب الادريسي ترجمت الى اللاتينية وافادت اوربا علم الجغرافية في القـرون الوسطى ، وهذا ما يعترف به الدكتور غوستاف لوبون في العبارات التالية : **(اشهر جغرافيي العرب هـــو الادريسي ، ومن كتب الادريسي التـي ترجمت الـى اللاتينية ، تعلمت اوربا علم الجغرافية في القـــــرون الوسطــى) .**

ولا شك ان في طليعة هذه الكتب (نزهة المشتاق) الذي يظهر ان ترجمته هذه ضاعت .

وعن خرائط النزهـــة يثبت سيديـو (45) ان رسامي الخرائط الجغرافية من الافرنج لبثوا ثلاثـــة قرون ونصف مقتصرين على تقليد خرائط الادريسي مع تعديلات قليلة الاهميـــة .

ومن اثـار هذه الخرائط انها وحدها هي التي التي مثلت لنا دولة الاسلام العربية وهي في عصرهـا الذهبي قبل ان تجني عليها ايدي التتار .

كما انها انفردت بانها هي الوحيدة التي تعطينـا صورة صحيحة عن البلاد الواقعة حول البحر القزويني وصحراء العجم في مدة من الزمن تبلغ نحوقرن ، هذه المدة التي لولا خريطة الادريسي لظلت حلقة مفقودة في تاريخ هذه البلاد (46) .

اما اثر النزهة في المؤلفات العربية فقد كان كبيرا ومـــن المؤلفين العرب الذين استمدوا منها او رددوا افكارها المبكرة : ابن خلدون في المقدمة ، والقلقشنـــدي في الصبح ، وابن الوردي في الخريدة ، وصاحب الروض المعطار ، والسيوطي في حسن المحاضرة وليون الافريقي في جغرافيته ، والمقري في النفح وابن فضل الله العمري في مسـالكه ، وقد قال هذا الاخير عن النزهة انها اصح كتاب في الموضوع (47) .

هذا ويحسن ان نختم هذا الباب باستعـــراض المعروف من نسخ النزهة التي كانت تحتفظ بها خزائن المغــرب والاندلس .

فمن ذلك (1) نسخة كانت في خزائن الموحديـن وهي اليوم في مكتبة السلطان محمود في استانبول حيث وقف عليها هناك الشيخ خليل الخالدي وقال عنهـــا انها نسخـــة صحيحـــة ، نقلت من نسخـــة بخط المؤلف (48) ، وقد غاب خبر هذه النسخة عن علـم دائرة المعارف الاسلامية في بحثها عن الادريسي فذكرت انه انما يوجد باستانبول مخطوط وحيد من النزهـة وهو المحفوظ بمكتبة اياصوفيا .

2) النســـخـــة الكبيـــرة التي كانت في مكتبة الاسكوريال باسبانيا ثم تلفت في حريق (49) وقع بهذه المكتبـــة يـوم 7 جـوان سنـــة 1671 ميلاديـــة والغـالـــب ان هـــذه النسخـــة كانـت بمكتبـــة السعديين التي انتقل قسم منها لمكتبة الاسكوريال .

3) جزء منها كان بمكتبة القرويين بفاس متضمن للخرائط والاشكال الملونة بالاحمر والازرق (50) .

4) مخطوط باريس عدد 893 ، وهو الذي كـان بالاندلس فقد ثبت فيه انه نسخ بالمرية عام 744 ، وهو خال من الخرائط (51) .

---

42) المصدر الاخير ج 3 ص 93 .
43) الرحالة المسلون في القرون الوسطى ص 66 .
44) في كتابه « حضارة العرب » الترجمة العربية ص 567 .
45) في كتابه « تاريخ العرب » الترجمة العربيـــة ص 432 .
46) بحث محمد عبـــد الله ماضـــي السابـــق الذكـــر .
47) مســالك الابصار بواسطـــة المكتبة الصقليـــة ص 152 .
48) من استجواب مع المذكور نشر في مجلـــة « الرسالة » المصرية : السنة السابعة عدد 322 .
49) الجغرافية العمومية للحكيم ملطبـــرون : الترجمة العربية . ج 1 ص 143 .
50) البرنامـــج القديم لمكتبة القرويين بفـــاس ط . ف .
51) ترجمـــة الادريسي السابقـــة الذكـــر ص 79 .

5) والان لم يبق معروفا بالمغرب من هذا الكتاب سوى مخطوط وحيد مبتور الطرفين وخال من الخرائط ، وهو يبتديء من حديث جزائر الهند اوائل الجزء الثاني من معمور الارض ، وينتهي عند الحديث عن صحراء بلاد السوس اثناء الجزء السابع ـ يقع اثناء مجموع مكتوب بخط اندلسي ، في مكتبة الزاوية الحمزية باقليم تافيلالت رقم 185 (52) .

آثار الادريسي الاخرى في الجغرافية والفلك :

و ـ (روض الانس ، ونزهة النفس) او (كتاب المسالك والممالك) ، الفه ـ عام 556 هـ 1161 م ـ للملك غليالم الاول بن رجار الثاني ، واتبع فيه طريقته في النزهة بتوسع والغالب انه الذي ينقل عنه ابو الفداء ، ويعتبر اليوم ضائعا (53) .

ز ـ وينسب للادريسي مختصر من روض الانس اسمه (انس المهج وروض الفرج) ضمنه اقوال الجغرافيين السابقين ، ووضحه بالخرائط والاشكال الملونة ، يوجد منه نسختان احداهما بمكتبة حكيم اوغلو باستانبول تحت رقم 688 ، والثانية بمكتبة حسن حسني باشا تونس تحت رقم 1289 . (54) .

وهناك خريطة تدعى الخريطة الادريسية الصغيرة طبعها موليلر في مجموعته ، وهي لابن الادريسي محمد ، وضعها سنة 588 هـ 1192 م ، في 73 قطعة ، واسمها روض الفرج ، ولا يبعد ان تكون خرائط توضيحية للكتاب قبلها كما قد يشير لهذا موافقة اسمها لاحد فقرتي عنوان الكتاب (55) .

ح ـ (القبة السماوية او هيئة السماء(56)) ، وهي أول ما وضعه الادريسي لرجار الثاني الذي جعل تحت تصرف الاول لهذه الغاية مقدار اربعمائة الف درهم من الفضة وقد اتخذ الادريسي اقل من ثلث المقدار لهذه القبة السماوية التي صنع فيها ـ على حد تعبير الصفدي (57) ـ دوائر كهيئة الافلاك ، وركب بعضها على بعض ، ثم شكلها له على الشكل المخصوص الذي اعجب به رجار ، وقد كافاه على عمله فترك له ما فضل من الفضة بعد صنع هذا المصور ، واضاف الى ذلك ـ كما يقول الصفدي ـ مائة الف درهم ومجموع ما اشتملت عليه سفينة وصلت ذلك اليوم الى مرسى بالرمة اتية من برشلونة بانواع الاجلاب الرومية التي تجلب للملك (58) ، وطبيعي ان هذه المكافاة من خبير بالفن كرجار تنبيء عن اتقان الادريسي المثالي لعمله، وتدلل على خبرته الواسعة في علم الفلك ، ومن المؤلف ان يكون مآل هذا المصور الفلكي هو الضياع ، ويمكن انه ضاع في نفس الظروف وبمثل الطريقة التي ضاعت

الادريسي الاديب :

كتابته العلمية التي صاغ بها النزهة في طبقة عادية ولا يزال نثره الادبي غير معروف باستثناء ما في خطبة النزهة .

كما ان النزر المعروف من شعره لايتيح حكما كاملا على شاعريته ، ولهذا سأكتفي بما سجله مترجموه في هذا الصدد ، فقد ذكر عنه الصفدي (59) : انه كان اديبا ظريفا شاعرا . وعلق على ما اورده من شعره بانه شعر جيد ، وجاء في خريدة القصر (60) للعماد الاصفهاني لدى ترجمة الادريسي :

(ووصفه ابن بشرون بتوليد المعاني في الشعر وتجويدها ، وتوكيد المباني في السحر وتشييدها ، لا

---

52) مكتبة الزاوية الحمزية ، مجلة تطوان العدد 8 ص 148 .

53) خريدة القصر لعماد الدين الاصفهاني بواسطة المكتبة الصقلية ص 611 مع دائرة المعارف الاسلامية: المجلد الاول العدد 3 ، وبحث محمد عبد الله ماضي السابق الذكر .

54) دائرة المعارف الاسلامية نفس المجلد والعدد ، مع بحث محمد عبد الله ماضي ، وفهرس مصورات الجامعة العربية ج 1 ص 558 .

55) العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ص 87 .

56) التسميتان عن مقال للدكتور يوسف شخت عن الادريسي وهو منشور في مجلة المستمع العربي السنة الثالثة العدد 15 .

57) الوافي بالوفيات ، قطعة المكتبة الصقلية ص 658 .

58) القطعة الاخيرة في نفس الصفحة .

59) الوافي بالوفيات ج 1 ص 164 .

60) بواسطة المكتبة الملكية الصقلية ص 611 .

سيما في توشية التوشيح ، وتوسيع نظمه المليح ، فانه حاذق زمانه، وسابق ميدانه ، وهو قريب في عصرنا هذا ، وقد اورد من شعره ما يروع ويروق ، ويضوع ويفوق ، ويطرب ويشوق ؛ ويحسد عقوده وسعوده العقيان والعيوق ، ويصف مرحه ووهجه الرحيق والحريق) .

وجاء في موضع آخر من الخريدة ايضا عن الادريسي :

(هو الذي افادنا عمن اوردنا من الشعراء ، وذكرناهم من الفضلاء . ـ يعني في هذا الباب من ابواب كتابه ؛ وهو باب شعراء المغرب الادنى وافريقية.

وبعد الادريسي من اعلام المغاربة يروي ابن بشرون عنه في كتابه الموسوم بالمختار من شعر شعراء الاندلس وصقلية (61) وهو ـ اي كتاب ابن بشرون ـ من اجل مآخذ العماد ، ومعظم ما يذكره ابن بشرون في مختاره عن الاندلسيين يرويه عنه ، فانه لقيه في صقلية .

هكذا اورد نص الخريدة وحلله الشيخ محمد رضا الشبيبي في محاضراته : (ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله المصرية ونصوصه العربية) (62) .

وهو يضيف لهذا (63) ان العماد يعتمد ـ غالبا ـ على روايات الشريف الادريسي الذي هو راوية لشعر شعراء المغرب والاندلس وصقلية والقيروان .

ط ـ ديوان الادريسي :

وان الشيخ رضا الشبيبي يفيد بوجود ديوان شعر الادريسي ويقول عن صقلية (64) :
وقد تناقلت ايدي الادباء هناك دواوين الشعراء: فهذا ديوان ابن حمديس وابنه محمد ، وهذا ديوان الشريف الادريسي صاحب النزهة .

هل عاد الادريسي الى سبتة :

من المؤكد ان الادريسي استمر في بالرمة حتى عهد غليالم الاول بن رجار الثاني ، حيث الف له ـ حسب الخريدة(65) ـ (روض الانس ونزهة النفس) ثم من المرجح ان المترجم لم يرجع بعد الى سبتة حيث يبدو ان علاقاته مع الموحدين كانت غير عادية ، ومن ادلة هذا :

اولا ـ قول رجار للمترجم : (انت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندي آمنت على نفسك) (66) .

ثانيا ـ انه كان مقيما لدى رجار الثاني ثم ابنه غليالم الاول ، وقد كانا معا في حالة حرب مع الموحدين.

ثالثا ـ ان المترجم في النزهة لما يجري ذكر الموحدين يلقبهم بالمصامدة في حين يذكر المرابطين بامراء المسلمين ، كما يصف رجار الثاني بالملك المعظم واكثر من هذا .

فهذه الاسباب ترجح ان الادريسي لم يرجع لسبتة وكذا لباقي اجزاء الامبراطورية الموحدية بما في ذلك تونس .

وفاته :

اما تاريخ وفاته فقد قدره بعض من تحدث عنه بسنة 1160 / (555 هـ) ولعله كان من ضحايا الثورة التي قامت ضد مايون وزير غليالم الاول في منتصف هذه السنة(67)، ويرد على هذا اننا رايناه ـ ص21 من هذا البحث انه يؤلف روض الانس عام 556 هـ / 1161 م فلهذا يظهر ان الصواب مع من جعل وفاة الادريسي نحو عام 562 هـ / 1166 م .

---

61) لايزال لم يكتشف بعد ، وفي كتاب « العرب في صقلية » ابتداء من ص 265 : توجد معلومات عن محتويات كتاب « المختار » في قسم شعراء صقلية .
62) ص 46 .
63) ص 48 ـ 49 .
64) ص 48 .
65) بواسطة المكتبة الصقلية ص 611 .
66) الوافي بالوفيات بواسطة المكتبة الصقلية ص 658 .
67) العرب في صقلية ص 149

ملحق

مقدمة نزهة المشتاق (68)

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه توفيقي ، الحمد لله ذي العظمة والسلطان ، والطول والامتنان ، والفضل والانعام ، والالاء الجسام ، الذي قدر فحكم ، وراف فانعم ، وقضى فابرم ، ودبر فاتقن ، وذرأ وبرأ ، فاحسن ما صور ، فاتصلت بالعقول معرفته ، وقامت في النفوس حجته ، ووضح العيون برهانه ، وقهر الالباب قدرته وسلطانه ، الهادي الى سبيل حمده تفضلا وارشادا ، والدال على ارتباط النعم به قولا واعتقادا ، جاعلا عجائب مخلوقاته ، وبدائع مصنوعاته، سبيلا الى معرفته ، وسلما الى علم قدمه وازليته .

وان في بعض ما خلق لعبرة لاولي الابصار ، وذكرى لذوي الخواطر والافكار ، فمن آياته خلق السموات والارض فاما السماء فرفع سمكها ، ونظم سلكها ، وزينها بالنجوم ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين يستضاء بهما في الليل والنهار ، ليعلم بمجاريهما تعاقب الدهور والاعصار ، فاما الارض فبسط مهادها ، وارسى اطوادها ، واخرج منها ماءها ومرعاها ، واسكنها خلقه فبواهم املاكها واجرى لهم افلاكها ، وعرفهم مسالكها : وعلمهم منافعها ومضارها، وهداهم الى السير فيها برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ، كل ذلك منه جلت قدرته بحكمة وتدبير ؛ ومشيئة وتقدير ، فتعالى من هذا ملكه وسلطانه ، وصنعه وبرهانه ، فان افضل ما عنى به الناظر ، واستعمل فيه الافكار والخواطر ما سبق اليه الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ، ملك صقلية ، وايطالية ، وانكبردة وقلورية امام رومية ، الناصر للملة النصرانية ، اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا ، وصرف الامور على ارادته ابراما ونقضا ، ودان في ملته بدين العدل، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام باسباب مملكته احسن قيام ، واجرى سنن دولته على افضل نظام واجمل القيام ؛ وافتتح البلاد شرقا وغربا ، واذل رقاب الجبابرة من اهل ملته بعدا وقربا ، بما يحويه من جيوش متوفرة العدد والعدد ، واساطيل متكاثفة متناصرة المدد ، صدق فيها الخبر الخبر وتساوي في معرفتها السمع والبصر ، فاي غرض بعيد لم يصل اليه ولم يخطر عليه ، واي مرام عسير لم يحظ به يتيسر لديه ، اذ الاقدار جارية بوفق مبتغياته واراداته ، والسعادات خادمة له ومتصرفة على اختياره في حركاته وسكناته ، فأولياؤه ابدا في عز فعسرى شايع ، واعداؤه في ذل وبوار متتابع ، فكم مراتب فخر شيدا اركانها وكم مزايا همم اطلع اثمارها ونور اقطارها ، وصير حدائقها روضا زهيا ، وغرسا زكيا ، ثم جمع الى كرم الاخلاق طيب الاعراق والى جميل الافعال ، حسن الخلال ، مع شجاعة النفس وصفاء الذهن ، وغور العقل ووقور الحلم ، وسداد الراي والتدبير والمعرفة بتصاريف الامور ، من نهاية الفهم الثاقب ، ومرامبه كالسهم الصائب ، ومقفلات الخطوب مستفتحة لديه ، وجميع السياسات وقف عليه ، ونوماته يقظات الانام ، واحكامه اعدل الاحكام ، وعطاياه البحار الزواخر ، والغيوث المواطر .

اما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعد ، ولا تحصر بحد ، لكونه قد اخذ من كل فن منها بالحظ الاوفر ، وضرب فيه بالقدح المعلى ، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة ، وابتدع من الابتداعات الغريبة ، ما لم يسبقه احد من الملوك اليه ولا تفرد به، وها هي ظاهرة للعيان ، واضحة الدليل والبرهان ، ومسيرها في الامصار ، وانتشار ذكرها في جميع النواحي والاقطار ، اغنانا عن ذكرها مفصلة ومتنوعة ، والاتيان بها متفرقة لا مجتمعة ، مع انا لو ذهبنا الى وصفها ، واعملنا الفكرة في تسطيرها ووصفها ، لبهرتنا آياته المعجزة معانيها المتعززة مراميها ، ومن الذي يحصي عدد الحصى ، ويبلغ فيه الى الفرض الاقصى ؟؟

(68) بواسطة المكتبة الصقلية ص 14 ـ 19 ج : 1 مع ذيل الجزء الثالث ص 28ـ29 .

فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية ، انه لما اتسعت اعمال مملكته ، وتزايدت همم اهل دولته ، واطاعته البلاد الرومية ودخل اهلها تحت طاعته وسلطانه ، احب ان يعرف كيفيات بلاده حقيقة، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى اي اقليم هي وما يخصها من البحار والخلجات الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار فى الاقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون واثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل اقليم منها من قسم بلاد يحتوي عليه ، ويرجع اليه ، وبعد منه بطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن من علم ذلك كله : مثل : كتاب العجائب للمسعودي ، وكتاب ابي نصر سعيد الجيهاني ، وكتاب ابي القاسم عبيد الله ابن خرداذبه ، وكتاب احمد بن عمر العذري ، وكتاب ابي القاسم محمد الحوقلي البغدادي ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكي ، وكتاب موسى بن قاسم القردى وكتاب احمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي ، وكتاب اسحاق بن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصري ، وكتاب بطليموس الاقلودي ، وكتاب ارسيوس الانطاكي، فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا ، بل وجده منها مغفلا ، فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه ، واخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علما اكثر مما فى الكتب المذكورة . فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده فاحضر العارفين بها المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطة جمعا وافرادا فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم اثبته وابقاه، وما اختلفوا فيه الغاه واجازه ، واقام فى ذلك نحو من خمس عشرة سنة لايخلي نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه والبحث عن حقيقته الى ان تم له فيه ما يريده .

ثم اراد ان يستعلم يقينا صحة ما اتفق عليه القوم المشار اليهم فى ذكر اطوال مسافات البلاد وعروضها ، فاحضر اليه لوح الترسيم واقبل يختبرها بمقاييس من حديد شيئا فشيئا ، مع نظره فى الكتب المقدم ذكرها وترجيحه بين اقوال مؤلفيها، وامعن النظر فى جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها، فامر عند ذلك وامر ان يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، فى وزن اربعمائة رطل بالرومي ، فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما ، فلما كملت امر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها ، ومجاري مياهها ومواقع انهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة، والمسافات المشهودة ، والمراسي المعروفة على نص ما يخرج اليهم ممثلا فى لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ويأتون به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه، وان يؤلفوا كتابا مطابقا لما فى اشكالها وصورها ، غير انه يزيد عليها بوصف احوال البلاد والارضين فى خلقها وبقاعها واماكنها وصورها وبحارها وجبالها وانهارها ومسافاتها ومزدرعاتها وغلاتها واجناس بنائها وخواصها ، والاستعمالات التي تستعمل بها، والصناعات التي تنفق بها ، والتجارات التي تجلب اليها وتحمل منها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها ، وحيث هي من الاقاليم السبعة مع ذكر احوال اهلها وهيآتهم وخلقهم ومذاهبهم وزينهم وملابسهم ولغاتهم ، وان يسمى هذا الكتاب **بنزهة المشتاق فى اختراق الافاق** ، وكان ذلك فى العشر الاول من يناير ، موافق لشهر شوال الكائن فى سنة ثمان واربعين وخمسمائة . فامتثل فيه الامر ، وارتسم الرسم .

الرباط : محمد المنوني



المؤرخ الوزير لسان الدين بن الخطيب

(712 - 776 هـ (1312 - 1375 م))

للدكتور : محمد كمال شبانه

ثاني اثنين ارخا لعصر بني الاحمر ، فكشفا عن السلالة النصرية ، حتى عصرهما الذي عاشاه جنبا الى جنب ، ولم تنل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، في دولة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء ، وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يدي من نازعوهم امور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية او ادارية ، مثلما حدث بين ابن الخطيب هذا ، وقاضي الجماعة ابى الحسن علي النباهي الجذامي ، وعلى نحو ما سنرى من خلال سيرة الاول .

هو لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله ابن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن احمد السلماني ، نسبة الى سلمان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت اسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الاسرة الى الاندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقرا لها .

ثم هاجرت الاسرة الى طليطلة ـ كما اخبر بذلك ابن الخطيب نفسه في مقدمة « الاحاطة » ـ عام 202 هـ ـ 817 م وهو العام الذي حدثت فيه ثورة اهل الربض بقرطبة ضد امير الاندلس الحكم بن هشام حيث حرض الفقهاء اهل الربض ضد الامير ، ولكن « الحكم » قضى على الثورة في الموقعة المشهورة بـ (موقعة الربض) ، وشتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين والعلماء ، ومن هؤلاء اسرة ابن الخطيب، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف، ولما احست اسرة المترجم له بالخطر المحقق بالمدينة ـ حيث اصبحت هدفا للاسبان في اواسط القرن الخامس الهجري (اوائل القرن الثاني عشر الميلادي) بادرت بالنزوح عنها الى مدينة (لوشة) (LOJA) مسقط راس ابن الخطيب في 25 رجب 712 هـ (16 نوفمبر 1312 م)

تربى ابن الخطيب في اسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان ابوه عبد الله من اكابر العلماء والخاصة ، كما اخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لابيه في كتابه (الاحاطة في اخبار غرناطة) ، فروى لنا انه ولد في (672 هـ ـ 1273 م) واستقر حينا في غرناطة ، ثم عاد الى (لوشه) مقر الاسرة ، ثم رجع الى غرناطة ، حيث التحق بخدمة السلطان (ابن الوليد اسماعيل) ملك غرناطة (713 هـ ـ 1314 م).

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان (ابو عبد الله محمد) ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته ايضا ، ثم باخيه السلطان ابي الحجاج يوسف (732 هـ ـ 1315 م) حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم (ابي الحسن علي بن الجياب) ، والذي منح من قبله لقب الوزارة ، واخيرا سقط عبد الله مع ولده الاكبر ـ اخي لسان الدين ـ قتيلا في موقعة طريف الشهيرة ، والتي تمخضت عن فوز الاسبان على المسلمين من الاندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء ، وذلك في جمادى الاولى 741 هـ ـ اكتوبر 1340 م .

لقد نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (1) ، وكانت غرناطة وقتئذ ميدانا احتشد

---

1) العبر لابن خلدون ج 7 ص 332

فيه الاكابر من العلماء والادباء ، فدرس اللغة والشريعة والادب على جماعة من اقطاب العصر ، مثـل « ابى عبد الله بن الفخار الالبيري » شيخ النحاة فى عصره، « وابى عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبيـر، والقاضي « ابن البركات بن الحاج البلفيقي » ، ودرس الادب والشعر على الوزيـر « ابى عبد الله الحكم اللخمـي » وعلى الرئيـس « ابى الحسن علي بـن الجياب » ، وغير هؤلاء ، كما درس الطب والفلسفـة على حكيم العصر وفيلسوفـه الشيـخ « يحيى بن هذيل » فلا نبالغ اذن اذا قلنـا ان غرناطـة فى ذلك الوقت كانت اعظم مركز للدراسات الادبية والعلميـة والاسلامية ، فى هذا القطر الغربي من العالم الاسلامي، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطـوق ونفسه تطمح للوصول الى مركـز ابيه ، فلما توفى الوالـد دعي ابنه للخدمة مكانـه ، وكان حينئـذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى امانة السر لاستـاذه الرئيس « ابى الحسن بن الجياب » وزير السلطـان ابى الحجاج يوسف الاول النصري وكاتبـه (1) ، ثم خلف استاذه فى الوزارة ،وتقلد ديوان الانشاء للسلطان ابى الحجاج يوسف ، وكان ابن الخطيب يومئذ قـد ملك زمام ارفع الاساليب شعرا ونثرا ، بفضل استاذه الراحل ، وظهر اثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية التي حررها بقلمه على لسان ملوك الاندلس والمغـرب، والتي نعتها المؤرخ ابن خلدون « بالغرائب » ، وقـد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » كما اورد المقـري عددا منها فى مؤلفه « نفح الطيب » (2) ويعتبـر كتابه « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » (برمته) مجموعـة من الرسائل السلطانية التي تمثل العلاقـات السياسية بين غرناطة والمغرب فى منتصف القرن الرابـع عشر الميلادي (3) .

ولقـد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعـم ، كما اصبح اثيرا لديه ، مودعا اياه امانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التي دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة اخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطـة الى ابى الحسن المريني ملك المغرب عام 749 هـ ـ 1348 م .

ولما توفي السلطان ابو الحجاج يوسف قتيـلا ـ فى يوم عيد الفطر 755 هـ ـ 19 اكتوبـر 1354 م ـ خلفه فى الملك ولده السلطان « محمد الخامس الغنـي بالله » واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير « ابـى النعيم رضوان » على خدمة السلطان الجديد ، كمـا تولى الوصاية على الابناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « ابى عنان المريني » عـام 755 هـ ـ 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هـذه نجاحـا عظيمـا .

فقد استجاب ملك المغرب للمطالب التي حملهـا ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفى مقدمتها العـون الحربي لمقاومة ملك قشتالـة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانـة ممتازة لـدى (الغني بالله) اذ منحه ثقته كابيه من قبل ، وخلـع عليه لقب (ذي الوزارتين) ، لجمعـه بين الكتابـة والوزارة .

ولكن حدث ان اندلعت الثورة بغرناطة فى رمضان 760 هـ ـ 1359 م ، وانتهت بأن فقد السلطان الغنـي بالله ملكه ، واستولى اخـوه الامير اسماعيـل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الوزيـر (ابى النعيم رضوان) ، ثم فرار الغني بالله الى وادي آش ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لايملك مـن الامـر شيئـا ، غير انه حـاول ان يستميل اليه السلطان الجديد ، فقبله فى الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل فى نواياه ، بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه، وصادر املاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان ابو سالم سفيره (الشريف ابا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديـد ، يطلب اليه ان يسمح للملك المخلوع (الغني بالله ووزيره ابن الخطيب) بأن يغادرا الاندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ

---

1) توفى ابن الجياب بوباء الطاعـون الجارف ، فى شوال 749 هـ (يناير 1349 م)
2) ج 2 ص 570 ، وما بعدها ، ج 4 فى عدة مواضع منـه .
3) لقد قمت بتحقيق هذا الكتاب ، وسينشر قريبا بمعونة الدار المصرية للتاليف والنشر بالقاهرة .

سلطان غرناطة الجديد لهذا الطلب ، سياسة منه ، وابقاء على اواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظا بهم سندا في مستقبل الدولة الاسلامية بالاندلس . وبهذا اطلق سراح ابن الخطيب ولحق بسلطانه حيث لجأ بوادي آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس في محرم 760 هـ — 8 ديسمبر 1358 م ، حيث استقبلهما السلطان ابو سالم استقبالا حارا ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما، والقى ابن الخطيب في هذه المناسبة بين يدي المضيف قصيدته الشهيرة (1) يستنصره ليعين سلطانه على امره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل — بصفته من كبار رجال البلاط المريني — فيصفه لنا ويقول: ان ابن الخطيب استولى على سامعيه فابكاهم تاثرا .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب في رعاية السلطان « ابي سالم » والذي اقطعه الاراضي ورتب له الرواتب ، حيث استقر في « سلا » حوالي ثلاثة اعوام منفيا ، (1358 — 1361 م) ، (760 — 763 هـ) اقتنى خلالها الضياع والاموال ، ولكن لم ينس في الوقت نفسه نزعته الثقافية والتاليفية ، فجاس خلال مدن المغرب ، دارسا باحثا ، ملتقيا بالعلماء في تجواله ، وفي نهاية المطاف يرجع الى سلا حيث رابط بضاحية (شالة) ، قرب اضرحة ملوك بني مرين

هذا وقد اصيب ابن الخطيب ابان هذه الفترة في زوجته ام اولاده ، وبالرغم من كل ما اصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التاليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفي دليلا على ذلك تلك المؤلفات التي حررها وقتئذ ، واهمها :

1) معيار الاختبار ، في ذكر المعاهد والديار .
2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .
3) اللمحة البدرية ، في تاريخ الدولة النصرية .
4) الحلل المرقومة ، في اللمع المنظومة (2) .
5) رقم الحلل ، في نظم الدول .
6) كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .
7) رسائل في فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا.

وفي هذه الاثناء تم انقلاب في فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان ابي سالم ، في ذي القعدة 762 هـ (1360 م) وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، والذي اعان « ابن الاحمر » المخلوع على امره ، ووقف الى جانبه في استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، ووافت الظروف ، وذلك باندلاع ثورة جديدة في غرناطة : صرع فيها السلطان اسماعيل ابن الاحمر ، على يد الرئيس ابي سعيد والذي فر الى (قشتالة) عقب عودة الغني بالله الى الاندلس واستيلائه على (مالقة) ثم دخوله غرناطة وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ — 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد « محمد الخامس الغني بالله » وزيره المنفي ابن الخطيب ليقدم الي دار ملكه برسائل مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 ابريل 1361 م) ليتقلد منصبه السابق، فاستجاب له ابن الخطيب وجاز البحر ، صحبة اسرة السلطان واسرته ، حتى وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن ابي يحيى) ، صاحب اليد على السلطان في استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان اشد مراسا باساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ، اذ زين للسلطان خطورة نفوذ « عثمان » هذا، وبدأ يخيفه من غدره ، وغدر اشياعه ، فاستجاب ابن الاحمر لنصح ابن الخطيب وقضى على « عثمان » وآله في شهر رمضان 764 هـ — 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناويء او منافس ، ولكن الى حين .

فقد شعر مرة اخرى بما يحاك حوله من حبائل ومكايد ، ورأى سلطانه يتاثر بسعاية الخصوم . وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان قويا التاثير في السلطان بحكم وضعيتهما في الخدمة السلطانية ، ولما لهما من مكانة سياسية في الدولة ، هذان الرجلان هما :

1) نفح الطيب للمقري ج 3 ص 46 — 48 ، ازهار الرياض لنفس المؤلف ج 1 ص 197 — 200 وهي ثمانون بيتا .

2) هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد اهداه الى السلطان ابن سالم المريني ملك المغرب ، فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب في شأن المؤلف الى سلطان غرناطة ، يطلب اليه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن الخطيب » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه في الوزارة .

2) قاضي محمد بن يوسف المعروف « ابو الحسن علي بن عبد الله النباهي » ، ولي نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر امره على مغادرة الاندلس نهائيا ؛ دون ان يشعر السلطان مطلقا بذلك ، وفعلا طلب منه ان ياذن له في تفقد بعض الثغور والموانيء الاندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان من جانبه قد اعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل على السلطان ابن ابى الحسن المريني وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، وكان الجبل يومئذ ضمن املاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد ميناء الجبل بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بامر من سلطان المغرب ، واجازه الى « سبتة » هو ومن معه من ولده ، وقبل ان يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغني بالله يعلل فيها مسلكه الاخير هذا ، ويبرر له تصرفه الاضطراري ، ثم يستسمحه في النهاية ، طالبا غفرانه ، راجيا عونه لاسرته التي خلفها وراءه في غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى «سبتة» ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان « عبد العزيز » الذي احتفى واكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجهز اسرة ابن الخطيب ، فاجابه « ابن الاحمر » الى طلبه وكان ذلك عام 773هـ ، 1371م .

وكان من المتوقع ان يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد احله مكانته اللائقة به ، وابدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن ــ للاسف ــ اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه ــ على هذه الصورة ــ مادة دسمة للكيد ، واكدوا للسلطان « محمد الخامس ابن الاحمر » ادانته ، وعدم وفائه لولي نعمته ، وزاد الاتهام تاكيدا ان ابن الخطيب كان حريصا على ان يحمل معه امواله وذخائره الى المغرب ، وفي هذا يقول له « القاضي النباهي » غريمه ، ــ في الرسالة المعروفة التي بعث بها اليه ــ : « فهمزتم ولمزتم وجمعتم من المال ما جمعتم .. ثم هربتم باثقالكم » «1» .

كان القاضي النباهي فيما سبق من انصار الوزير ابن الخطيب ، بل ان تعيينه قاضيا للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يد ابن الخطيب نفسه ، كما نجد في كتاب الاحاطة ترجمة للنباهي تنبيء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ، اذ ينعته بانه « فريع بين مجاده وجلاله ، وبقيه تعين واوصاله ، عف النشاة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضيا غير هيوب ..» الخ . ولكن ذلك «النباهي» تنكر تماما لابن الخطيب ولم يحفظ له هذا الجميل ، قد آزز الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعيا حثيثا في سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصي ، والضغائن الدفينة ، في تلك الرسالة التي بعث القاضي النباهي الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما انه نسب اليه في بعض مؤلفاته بعض محدثات في الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول في بعض المؤلفات الاموات من الناس ، وذلك بالطعن او العيب فيهم ، الامر الذي يستنكره الدين ..، الى آخر ما جاء في الرسالة من مثل هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للاندلس مؤخرا راى فيها النباهي غدرا بالسلطان ولي نعمته ، كما كذبه في ادعائه الانقطاع للعبادة في المغرب ، وانه لو ارادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، او ابقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية ، والتي يتهددها خطر الاسبان كل حين .

وفي الاخير ينهي النباهي رسالته بالنيل من اسرة ابن الخطيب ، وانهم حديثو عهد بالنعمة ، وان ثروتهم هذه لم تات الا عن طريق المنصب والسلطة .

وقد كان لهذه الرسالة اثر كبير فيما بعد ، حيث كانت صك الاتهام ، والتي ادين ابن الخطيب على اساس ما ورد فيها ، عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (2) .

هذا ، ويرجع تاريخ هذه الرسالة الى اواخر جمادى الاولى 773هـ 1371م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، واجاب على ماجاء بها مفصلا ، وذلك

1» المقري في نفح الطيب ج7ص56 .

2) المقري في ازهار الرياض ج 1 ص 212 ــ 224 حيث اورد المؤلف هذه الرسالة كاملة .

فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضي النباهي، ففيه يصفه بانه « الجعسوس» اي القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة ، للنيل من خصمه اللدود ، وسماها « خلع الرسن ، فى وصف القاضي ابن الحسن » .

ظل القاضي النباهي وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عمد النباهي الى استصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة لهذا الحكم ، وبعث القاضي ابو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز ، وبايديهم هذا الحكم فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هلا انفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه . . » وبالغ فى اكرام ابن الخطيب ، واضفى عليه مزيدا من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى ان ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب فى عهد صديقه السلطان عبد العزيز ملك المغرب ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة ـ وقد بلغ اوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ـ وقد بلغ من وراء ذلك الى سحق اعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه الخاصة .

ويظهر ان هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان « عبد العزيز » ، فصمم على تنفيذها ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الاحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز فى ملك الاندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب (1) وبلغت ابن الاحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيرا ، واسرع فى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا فى نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره. ثم تفاجىء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « ابو زيان محمد السعيد » طفلا فى الرابعة من عمره، فى ربيع الاخر 774هـ ، 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره ابو بكر بن غازي فتغيرت الاوضاع السياسية بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ ان يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فالف كتابه المعروف باسم « اعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام »وفيه يبرر هذا الوضع الجديد ، شرعا وعرفا ، وتاريخا ، واورد لذلك الاشباه والنظائر ، ردا على المناهضين ، وصنائع بني الاحمر وعملائهم .

وفى هذه الاثناء قام السلطان ابن الاحمر بمحاولة اخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بان اوعز الى الوزير « ابن غازي » ان يسترد ابن الخطيب ، فامتنع ابن غازي ، وتوترت العلاقات مرة اخرى ، بين غرناطة وفاس ، الامر الذي جعل ابن الاحمر يوغر صدور هؤلاء الامراء المرينيين ، ضد النظام القائم فى فاس، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما اقنع من اتصل بهم من حكام الاقاليم ـ وبخاصة حاكم سبتة «ابو محمد بن عثمان » ـ بان من الافضل للمغرب ان يكون الملك رجلا راشدا ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئا ، واتفق معه على تنصيب الامير المريني « ابي العباس احمد بن ابي سالم » ملكا على المغرب ، وانه ـ اي محمد بن عثمان ـ سيكون الوزير المستقبل ، واعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على ان يحقق هذا الوزير لابن الاحمر ثلاثة مطالب بعد نجاح الخطة ، وهي :

1 ـ تسليم ابن الخطيب .

2 ـ تسليم الامراء المناهضين لابن الاحمر .

3 ـ التنازل عن جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، ادت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الاحمر، ونودي حينئذ بالامير «احمد بن السلطان ابي سالم » واليا على المغرب « 776هـ ـ 1374م» .

وهنا اسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس « سليمان بن داوود» » من الد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة اخرى فقد ارسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك ، ليشهد آخر فصل لهذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، فقد عقد السلطان احمد مجلسا من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب امام هذا المجلس ، وذلك حول كافة الادعاءات

1) ابن خلدون فى العبر ج 7 ص 338 ـ 341 .

المقامة ضده ، وبالاخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التي صاغها القاضي النباهي من قبل ، وكان مجلسا صوريا بطبيعة الحال ، فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ومتفقا عليها من قبل فى كل من غرناطة وفاس .

لقد اوذي ابن الخطيب امام شهود هذه المؤامرة، وافتى الفقهاء المتعصبون باعدامه شرعا ، فاعيد الى سجنه حيث دبر الوزير « سليمان بن داوود » امر قتله فى السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الاشرار الذين قتلوه خنقا اواخر 776هـ ، 1375م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس .

ويروي المقري انه تمكن مؤخرا من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، اوائل القرن الحادي عشر الهجري « القرن السابع عشر الميلادي » فزاره مرارا حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرته مرارا – رحمه الله تعالى – بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذي يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الان « باب المحروق » وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الارض ، بل ينزل اليه بانحدار كثير » رحم الله ابن الخطيب بقدر ما زود التاريخ من ذخائر ، واهدى العلوم والمعارف من نفائس .

القاهرة : محمد كمال شبانة



أثر فريد لأبي عبد الله المقري

الحقائق والرقائق *

للأستاذ عبد القادر زمامة

يسمي المقري رسالته هذه : كتاب « الرقائق والحقائق » والاصطلاح الصوفي ظاهر في هذه التسمية لانهم كانوا يعبرون بهما عن اشياء ترجع الى السلوك الانساني ورياضته الروحية والعقلية :

فالرقيقة : كل ما يتلطف به سر العبد وتزول به كثافة النفس على حد تعبير الجرجاني في كتابه « التعريفات »

اما الحقيقة : فهي مرتبة من العلم والانكشاف لها نورانيتها في القلب واشعاعها في العقل واثرها في طهارة الروح واطمئنان النفس .. وللصوفية في تعريفها اساليب وطرق متعددة ..

والمقري يجاري الاصطلاح الصوفي فيعبر عن خواطره وارتساماته وما ينقدح في ذهنه من تعليقات على الحوادث التي مرت به ، او المجالس التي حضرها .. او الاخبار التي تلقاها من افواه الرجال .. بهاتين الكلمتين .. ومن العسير على الباحث ان يفرق بين مقصود المقري بكلمة **حقيقة** ومقصوده بكلمة **رقيقة** ، فكلتاهما من واد واحد لكن المؤلف جعل بعض تعليقاته وخواطره تحت اسم **الحقائق** .. وجعل اخرى تحت اسم **الرقائق** .. وهدفه في الجميع واحد .. وهو النظرة الصوفية الى الحياة وتفسير ما فيها تفسيرا صوفيا قوامه رفض الاعراض والعوائق المادية التي تنزل بالانسان الى حضيض المادة وحماة الشهوة .. والاقبال على الحقائق ورياضة النفس بكل عمل يقربها من الله جلت قدرته ..

ومنذ سنوات خلت كنت قد قرات بعضها فيما اختاره ابو العباس المقري منها في كتابه نفح الطيب فاعجبت باسلوبها ومقاصدها .. ومنذ ذلك الحين وامنيتي ان اجدها تامة في كتاب خاص ..

وفي صيف هذه السنة زرت الاخ الاديب الباحث السيد حماد بوعياد في منزله بمدينة طنجة فاطلعني على نسخة « الحقائق والرقائق » وهي نسخة يرجع تاريخها الى اوائل القرن العاشر على ما يرجح ورغم ما فيها من ثقوب وخروم بمفعول الارضة فقد انتسختها بقلمي وفكرت في تصحيحها ونشرها باعتبارها من آثار ابي عبد الله المقري الجديرة بالنشر احياء لذكرى هذا العالم الجليل ..

وقد اطلعني الاستاذ الجليل سيدي ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط على نسخة اخرى ضمن مجموع كان في مدينة تازة محبسا على مسجدها ..

فقابلت بين النسختين ، وبينهما وبين ما في النفح واستخرجت من ذلك نسخة ارجو ان تكون على وجه مقبول .

وكنت عازما على التعليق على ما فيها من اعلام وشيوخ والتعريف بهم لكنني رجعت عن ذلك بعد ان اطلع على عملي احد الاصدقاء الباحثين – حفظه الله – وافهمني ان في ذلك – اثقالا – لكاهل هذه الرسالة اللطيفة بالحواشي والتعليقات ومؤلفها – رحمه الله – ارادها خفيفة سهلة سائغة ..

---

* انظر «دعوة الحق» العدد الثاني من السنة التاسعة .

وكنت يوما مع السلطان «1» ، والجند يعرضون عليه ، وكان يسقط ويثبت وانا اتفكر في البيت ، حتى خفت ان افتضح فقلت : واهماه من هذا الابهام ، ثم كدت اخلد بقبح العمل الى الارض ، فينشلني حسن الظن بالله فانهض :

ان المقادير اذا ساعدت
الحقت العاجز بالقادر

حقيقة — قال محمد بن رشيد البغدادي شيخ محمد بن علي الجمال صاحبنا : علامات المحبة اربع : الافلاس ، والاستئناس ، والانفاس ، والوسواس ، قلت : الافلاس التجرد الا عنه ، كالخليل ، والاستئناس الاستيحاش الا منه ، والانفاس والوسواس صلة الاسم وعائده .

رقيقة — انشدني محمد بن ابراهيم ابي الحاج البلفيقي وقال انشدني محمد بن رشيد الفهري وقال انشدني ابو حفص الخيمي «2» المصري لنفسه :

لو راى وجه حبيبي عاذلي
لتفاضلنا على وجه جميل

حقيقة — قطع السوى طهارة المنيب ، ولا يقبل الله صلاة بغير طهور ، وكتابه النحيب والمكاتب عبد ما بقي عليه شيء ، وبابه الدخول على الحبيب ، نظر رجل الى امراة عفيفة ، فقالت له يا هذا غض بصرك عما ليس لك تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك ..

رقيقة — قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكتب ، كان بالساحل سائح يهيم على وجهه فاذا ثابت اليه نفسه قام فقال : الهي ، بسطت لي املي ، واحصيت علي عملي ، وغيبت عني اجلي ، ولا ادري الى اي الدارين تذهب بي ، لقد اوقفتني موقف المحزونين ما ابقيتني ..

حقيقة — تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا حقيقة — والله خلقكم وما تعملون — لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتداء به فتصرفوا بدلالة الاذن في مذهبه فاستقاموا على طريقة الادب ، ولم يفتهم فضل التوكل ، ولم تتسع معارف الزهاد لما عرفوا المسبب لكيفية الانصراف الى السبب منه ، لدقة الفرق بينه وبين الانصراف عنه ، فوقفوا للعذر مع التوكل ولم يستعملوا ادب الجريان مع الابتلاء والامر .. وعكف الغافلون على ظاهر السبب ففاتهم التوكل والادب « اولئك كالانعام بل هم اضل » .

رقيقة — قال لي محمد بن عبد الله بن عبد الواحد الرباطي ، قال لي ابو محمد بن عبد الله الاطرابلسي دخلت على ابي الحسن الحرالي فقلت له : كيف اصبحت ؟ فانشد :

اصبحت الطف من مر النسيم سرى
على الرياض يكاد الوهم يؤلمني

من كل معنى لطيف احتسي قدحا
وكل ناطقة في الكون تطربني

حقيقة — قال لي محمد بن محمد ابن مرزوق العجيسي الشيخ بعباد تلمسان : قال لي ابو عبد الله بن حيون النجراوي : وجدت على ظهر كتاب بخط عتيق ، قال ابو يزيد البسطامي : يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيبا ، لا تدرك له نهاية قالا : وهو ابو مدين ، قلت : وقف بظاهره مع الشريعة وذهب بباطنه مع الحقيقة ، فما انقطع لصحة البداية ولا رجع لعدم الغاية ..

رقيقة — مثل دواعي الخير والشر في الانسان كمثل الخلط الفاعل ، والقوة الدافعة في العليل ، تغلب القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة ، وعن قليل يتحرك فيجد الالم ..

حقيقة — العمل على السلامة مسالمة وتلك صناعة الراهبين ، وعلى الغنيمة تجارة ، وتلك بضاعة الراغبين وعلى الامر قرض « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة » .

رقيقة — سمعت ابا محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاطي يقول : رويت بالسند الصحيح ، ان عابدا رابط ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر سمع صوتا دون ان يرى شخصا :

«1» يعني السلطان ابا عنان المريني

«2» انظر درة الحجال لابن القاضي ج1 ص 154

لاسيما وجل الذين يروي او يتحدث المقري عنهم فيها لهم تراجم معروفة في كتاب « البستان » لابن مريم . ونفح الطيب للمقري . ونيل الابتهاج للسوداني . وانس الفقير لابن الخطيب القسنطيني .

ومن اجل ذلك اكتفي اليوم بنشر نصها المخطوط مرجئا التعليقات والمقابلات بين النسخ المختلفة .. والزيادات الموجودة في بعضها الى ان اتمكن من اخراج دراسة مفصلة عن المقري وآثاره التي من جملتها هذه الرسالة .

ومن الله استمد التوفيق والعون ..

فاس ـ عبد القادر زمامة

الحمد لله ، هذا كتاب شفعت فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت فيه المعنى الفائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة وصفوة العلم . ونقاوة العمل فاحتفظ بما يوحيه اليك ، فهو الدليل ، وعلى الله قصد السبيل ..

حقيقة ـ عمل قوم على السوابق ، وعمل قوم على اللواحق ، والصوفي من لا ماضي له ولا مستقبل ، فان كان زجاجيا فبخ بخ ...

رقيقة ـ من لم يجد الم البعد ، لم يجد لذة القرب ، فان اللذة هي التخلص من الالم .

حقيقة ـ لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل : انا الفلك المكوكب ، فقالت الرياضة : الزمني وتعرف قدرك ، فاذا العقل عقال ..

رقيقة ـ لتهنىء المدلج طلعة الفجر ، برق البرق ، فوجد الكنز .

حقيقة ـ آثر الزاهد زاوية دن سقراط على ميدان حلبة المشائين ، فقيل له : فاين اعتبار « افلا ينظرون » ؟ فقال : «وفي انفسكم افلا تبصرون»

رقيقة ـ من ضحك في نوم الغفلة ، بكى عند الانتباه ، فان الاضغاث اضداد .

حقيقة ـ الخلوة منزل الفكر ، وفي بيته يوتى الحكم ، وباب هذا البيت العلم ، « وآتوا البيوت من ابوابها » .

رقيقة ـ الزاد لك وهو مكتوب ، والزائد عليك وهو مسلوب ، فاجمل في الطلب ، ولا تحمل نفسك النصب .

حقيقة ـ العمل دواء القلوب ، واذا كان الدواء لا يصلح الا على حمية البدن فكذلك العمل لا ينجح الا بعد صوم النفس ، فارق نفسك وتعال ..

رقيقة ـ من سابق سبق ومن لاحق التحق ، ومن رافق ارتفق ، والعجز والكسل مطيتا الخيبة «وعلى قدر اهل العزم تاتي العزائم » .

حقيقة ـ الزاهد صاحب نفاسة وهمة ، والعابد طالب رياسة وحرمة والمعنى للعارف ، يعادي في الله ، ويوالي في الله ويعمل على رضاه ولا يبالي .

رقيقة ـ طالب الدنيا يخاف الفوت ، وصاحبها يترقب الزوال ولو بالموت فاذا حمي الوطيس وتجثم الرئيس انشأ الزاهد ينشد :

عزيز النفس لا ولد يموت
ولا شيء يحاذره يفوت

حقيقة ـ القلب ايوان الملك ويسعني ، وعز الملك لا يرضى بذل المزاحمة ، « انا اغنى الشركاء عن الشرك » وهذا معنى ما قاله الشيخ تاج الدين ابو الفضل ، احمد بن عطاء الله :

« كما انه لا يحب العمل المشترك كذلك لا يقبل القلب المشترك ، فالعمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه » .

رقيقة ـ لما وضع البسطامي اوزار حربه فك طابع الصحيفة عن قلبه ، فلم يجد بها غير الطغراء فصاح بنفسه : لك البشرى انزل طيفور عما تريد ليس في الدار ابو يزيد ..

حقيقة ـ قال شيخنا ابو هادي يوما لاصحابه : بماذا يرتقي العبد من مقام الى مقام اعلى منه ؟ فقالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : انما سالتكم عن السبب الخاص بهذا الامر ، فقالوا : من عند الشيخ .. فقال يخلق الله له همة اسنى من همته ، فيرتقي بها الى رتبة اسمى من رتبته .

رقيقة ـ ذكر مذكر بمالقة فقام الخطيب ابو عبد الله الساحلي بهذا البيت :

ليت شعري افي زمام رضاكم
كتب اسمى ام في زمام الهوان

لولا رجال لهم سرد يصومونا
وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت ارضكم من تحتكم سحرا
لانكم قوم سوء ، لا تبالونا

حقيقة ـ قلت لقلبي : كيف تجدك ؟ فقال اما من امارتك ففي عناء الجهاد ، واما من لوامتك فعلى جمر الصبر ، فقلت : فمتى الراحة ؟ فقال : اذا اطمانت النفس فغبت عن الوهم والحس .

رقيقة ـ لما حنكت الطينة بتمر الجنة وغذيت بلبانها قطرت على محبتها ، انظروا الى حب الانصار التمر، فلم تطق الفطام عنها ـ وتأبى الطباع على الناقل ـ فذاك ما تجد من الحنين الى التلاق ، والانين على الفراق ، والشغف بمدح الغابر وذم العابر وفي ذلك :

كم اردنا ذاك الزمان بمدح
فشغلنا بذم هذا الزمان

وان لم نعرف عصرا خاليا ، ولا خلا نائيا ، بل لم يمر عليك مما تشتهيه اطيب مما انت فيه:

كم منزل في الارض يالفه الفتى
وحنينه ابدا لاول منزل

حقيقة ـ واقع فقير هناة ثم دخل خلوته فبدت له نفسه بوجه مومسة ، فقال من انت ؟ قالت : ام الحياة ، فقال ما اجمل بك ان تبدلي بتائك همزة .. فقالت : اذا لم تصنع ما شئت .. فانتبه لقرع العتاب فتاب .

رقيقة ـ دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولي، وهو يجود بنفسه وكنت قد رايته بقرب ذلك معافى ، فقلت : اي .. فسألته عن السبب ، فاخبرني بانه خرج الى لقاء السلطان ، فسقط عن دابته ، فتداعت اركانه ، فقلت : ما حملك ان تتكلف مثل هذا في ارتفاع سنيك ؟ فقال حب الرياسة آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين : ففكرت في قوله ، فوجدت ان الله عز وجل لما ابتدا امر آدم بان اسجد له الملائكة «فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » والسجود اكبر تحيات الملوك «ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا » سرت الرياسة في طينته سريان الروح في الجسد ، ثم جرت في نفوس ذريته مجرى الدم من العروق ، فكانت آخر ما ينزع منها وينزح عنها .

حقيقة ـ قال لي محمد بن محمد ابن مرزوق ، قال لي بعض اصحاب ابي اسحاق الطيار دفين العباد بتلمسان ، ان ابا اسحاق اقام خمسا وعشرين سنة لا ينام الا قاعدا ، قلت : تعود الجلوس الى الملك حتى تدرب على الادب ، ولو كتب اسمه في « الجامكية » (1) ما اعتاده ، وغلبه النوم

رقيقة ـ سالت ابن مرزوق ، ولم لقب بالطيار ؟ فحدثني ، انه نشر ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح ثم قعد هنالك ، فمر به رجل فقال له طر ، قال : عن امرك ، قال : نعم، فطار حتى وقع على الارض وما به من باس ، قلت اذا صار الحق للعبد سمعا وبصرا فسمع به وابصر اصاخ الى الاحوال ، واجتلى المعاني، فيرى غير مبصر ويسمع غير ناطق ، كما قال الشيخ ابو عبد الله الشوذي الحلوي دفين تلمسان :

اذا نطق الوجود اصاخ قوم
بآذان الى نطق الوجود
وذاك النطق ليس له انعجام
ولكن دق عن فهم البليد
فكن فطنا تنادي من قريب
ولا تك من ينادي من بعيد

حقيقة ـ قيل عرض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة « اني لما انزلت الي من خير فقير » فحمل على كاهل ، « ان ابي يدعوك » وصرح في سفر التاديب « لو شئت لاتخذت عليه اجرا» فحمل على كاهل « هذا فراق بيني وبينك » قلت لما تمحض الطلب له اكتفى ، فلما تعلق حق الغير به وفي ، ولذلك قضى ابا المراتين ابعد الاجلين .

رقيقة ـ كان خرق السفينة اراءة لكرامة « فاقذفيه في اليم » في مرآة ، « و كان وراءهم ملك » وربما صحت الاجسام بالعلل ، وقتل الغلام اشارة الى اشتمال فتنة « فقضى عليه »

1» المراد بها سجل ارزاق الجند والموظفين فى ذلك العصر .

على رحمة « فنجيناك من الغم » برمز ، فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا » والمحن الصم حبائل المنح ، واقامة الجدار اشارة لفتوة « فسقى لهما » ليخفض له جناح . اني لما انزلت الي من خير فقير » فيستظل من حرور « لو شئت لاتخذت عليه اجرا » في تيه « هذا فراق بيني وبينك » « وما فعلته عن امري » .

حقيقة ـ قيل لمحمد بن الحسن الزبيدي التونسي وانا عنده بها : كيف لم يصبر الكليم وقد ناط الصبر بالمشيئة « ستجدني ان شاء الله صابرا» وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام لو قال : ان شاء الله لكان كما قال ، والمقام الموسوي اجل « واصطنعتك لنفسي » وطلابه افضل ، ما جميع اعمال البر والجهاد في طلب العلم الا كبصقة في البحر ، فقال : كان موسى على علم من علم الله وهو علم المعاملة لا يعلمه الخضر ، وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى ، فلم يظن ان مما لم يحط به خبرا ما يأباه حكم الظاهر ، والا فكيف يلتزم الصبر عليه وقد امر بصرف الانكار اليه ؟ « ما منعك اذ رايتهم ضلوا » بل لم يعتد مثله من ملاقات المشاق فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق وركوب الطباق فما علقه بقوله فقد صدقته بفعله ، وما لم يستطع عليه صبرا فلم يدخل في التزامه اعتقادا ولا ذكرا ،

رقيقة ـ الفيت لعبد الحق الاشبيلي بيتا هو افضل من قصيدة :

قد يساق المراد وهو بعيد
ويرد المراد وهو قريب

ومن اراد ان يعرف قدر هذا الترتيب فليتل قول الله تعالى « الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » .

حقيقة ـ حدثت بمصر ان عمر ابن الفارض اولع بجمل فكان يستأجره من صاحبه ليتانس به فقيل له : لو اشتريته ، فقال : المحبوب لا يملك ، فقلت : في اي حال كان هذا منه ؟ فقيل لي في بداية امره ، فقلت : وجه اعتبار « افلا ينظرون » اليه فوقفت به رؤية المعنى فيه عليه ، فاجبه مدلا وطلبه مجلا .

رقيقة ـ لصاحب الوقت يومان .

يوم بارواح يباع ويشترى
واخوه ليس يسام فيه بدرهم
وفصل الفضل بينهما :
وما تفضل الايام اخرى بذاتها
ولكن ايام الملاح ملاح

حقيقة ـ قال المريد : الوقت سيف ، وقال الواصل : بل مقت ، فتلا العارف : « قل : الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

رقيقة ـ انشدني ابو محمد المجاصي ، قال انشدني شرف الدين الدمياطي ، قال انشدني تاج الدين الارموي ، قال انشدني فخر الدين محمد بن عمر الرازي لنفسه :

نهاية اقدام العقول عقال
واكثر سعي العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى ان جمعنا فيه قيل وقالوا
كم رجال قد راينا ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها
رجال فماتوا والجبال جبال

حقيقة ـ قلت للسر مالك تحس من خلف الموانع ؟ فقال : خرق شعاعي سور العوائق ثم انعكس الى بصورة العوائق فاصبحت كما قيل :

كان مرآة عين الدهر في يده
يرى بها غائب الاشياء لم يغب

رقيقة ـ حفظت من خط الشيخ ابي يزيد القابسي والد صاحبنا ابى الحسن قيل للغزالي : ما تقول في الحلاج ؟ فقال : وما عسى ان اقول فيمن شرب بكاس الصفاء ، على بساط الوفاء ، فسكر فعربد فاستوجب من الله تعالى الحد فكان حده شهادة .

حقيقة ـ عربد الحلاج في الحضرة لما فشا بسكره سر امره ، فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه ، وسدل الباطن على عذره حجاب الغيرة من افشاء سره ، ثم قلت :

على سمة الاسماء تجري امورهم
وحكمة وصف الذات في الحكم اجرت

رقيقة ــ فض الختام عن الدن قبل عرفان عــرف الخمر فانتشى للنشا وانتهك للنكهة ، فاختلس عقله وما شرب ، ليته خلل شعره ثم صب .

حقيقة ــ اشرف اسمائك ما اضافك اليه ، واكــرم صفاتك ما دلك منـك عليـه .

لا تـدعنــي الا بيــا عبدهــا
فانــه اشــرف اسمائــي
ولا تصفنــي بالهــوى عندهــا
فعندهــا تحقيــق انبائــي

رقيقة ــ سمعت شيخنا بالقدس يقول : تجلى اللـه تعالى بالمسجد الاقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول صلـى الله عليـه وسلم بالكمال ، قلت : فذلك يوقف النواظـر ، وذلك يملا الخواطر ، وهذا يفتــح البصائـر .

حقيقة ــ اذا قابل ابرة القلب مغناطيس الحب صبـا فانجذب ، فاذا اجتمعا عشي فانقطع ، فــاذا اتحدا فنى فبقى . . حاشى للصوفي ان يموت .

رقيقة ــ اخبرني امير المومنين المتوكل ان جده امير المسلمين ابا سعيـد رحمه الله تعالــى سال كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن تهـادي اهل الحب للتفاح دون الخوخ وكلاهما حســن المنظر طيب المخبر شديد شبهه باخيه شديد تشبيه الوجنـات به لمتوخيـه . . فقــال من عند مولانا . . فقال ارى ذلك لاشتمال التفاح على الحب الذي يذكر بالحب ، ولاشتمــال الخوخ على النوى الذي يكدر اسمه صفــو الهــوى .

حقيقة ــ العمل رياش ، والحسن صورة ، والملاحـة روح ، فذلك ستـره عليـك وذاك عنايته بك ، وهذا ســره فيـك .

رقيقة ــ اعطي يوسف شطر الحسن ، اي حسن آدم لانه ان لم يكن في الامكان ابدع مما كان ، فقــد خلقه الحق بيده في احسن تقويم ثم نفخ فيــه من روحه ، لتتم علة سجود التحية والتكريـم فكان كما قال من انزل عليه الفرقان « خلق آدم على صورة الرحمن » فآدم اذن ، كمال الحسن والا فهو المراد لان الشطر يقتضي الحصر والصنف ينزع الوصف واعطي محمد صلى الله عليـه وسلم كمال الجمال فما ابصره احد الا هابـه ، وتمام الملاحة فما عرفه شخص الا احبه ، مــع انباء نوره في الآباء بان ابوة المعنى لسيـد نجبـاء الابنـاء كمـال قال العارف عمـر :

واني وان كنت ابن آدم صــورة
فلي فيه معنى شاهد بأبوتــي

حقيقة ــ خوف من لم يفر خور وذلك الجبن ، مـن خاف ادلج ، ورجاء من لم يكر تمـن وتلــك الزمانـة « ياليتنـي كنت معهم » .

رقيقة ــ سمع ابن شاطر سائلا يقول : الجنة رخيصة فقال : كيف تكون رخيصة والله عز وجــل يقول « ان الله اشتـرى من المومنين انفسهـم واموالهم بان لهم الجنة » قلت : ما الانفــس والاموال في جنب مـا لا عيـن رات ، ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشـر ، ولا سيما وفوق هذا الحسنـى وزيـادة الاكرام بالنظـر والرضـاء .

حقيقة ــ لا يثنيك الخوف عن قرع الباب فتيأس فانه «لا ييأس من روح اللـــه الا القوم الكافرون » ولا يدنيك الرجـاء من الفتـرة فتأمن فانـه « لا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون » فان لـم تستطع بعد الحرص ان تدخل فلا تمل كــل الميـل مع النفس « ان النفس لامارة بالسوء » .

رقيقة ــ ارفع قصتك في رقعة الاقبال ، على كــف الرجاء خافضا من طرف الحياء وصوت الادلال عاكفا في زاويـة الانكماش ، من وراء ستــر الخوف يخرج عليك حاجب القـدر من بـاب الكـرم بتوقيع « فاستجبنا له » .

حقيقة ــ وجد العارف فجاد بنفسـه « فوجد اللــه عنـده» وتواجد المريـد ، فحاكى ، ومــن لم يبـك تبـاك .

رقيقة ــ اللحم ايام التشريق مكروه ، وكل لــذة عند اربـاب السعـة كاللحم عندك في الاضحى ، فلا تريتـك الغفلة عن سرك زيـادة النعمة عند غيـرك .

حقيقة ــ صدق مجاهدة الفاروق ايقـظ الوسنان ، وطـرد الشيطان وارضى الرحمن ، ففــاز بسلامـة ــ ما سلكت فجا الا سلك الشيطان فجـا غير فجـك ــ وحقق مشاهدة الصديق ــ اسمع من اناجي فحاز غنيمة ــ لو كشــف الغطاء مــا ازداد يقينا ــ فذهب ابو بكر في

السابقين ، ولحق عمر باهل اليقين ، فما ادرك الصديق اداء التصلية حتى استدرك الفاروق قضاء السقيفة :

ولو كنت في اهل اليمين منعما
بكيت على ما فات من زمن الصبا

رقيقة ـ قال لي ابو حيان بمصر : قال لي عمر بن الخيمي : تحادثت انا ونجم الدين ابن اسرائيل هذا البيت :
يا بارقا باعلى الرقمتين بدا
لقد حكيت ولكن فاتك الشنب
فتحاكمنا الى ابن الفارض فاشار بان ننظم قصيدة ، نضمنها البيت فنظم ونظمت :
يا مطلبا ليس لي في غيره ارب
اليك آل التقصي وانتهى الطلب
فقضى به لي .

حقيقة ـ حدثت ان ابا زيد الهزميري بعث الي «1» ابن عمران التسولي وكان كثير الصلاة ، انه لم يبق بينك وبين الله حجاب الا الركيعات ، فرفع اليه ما معناه : ان الاتصال كان منها فلا كان الانفصال عنها .. يعني من رزق من باب فليلزمه .

رقيقة ـ حدثت ان ابا محمد عبد العظيم آلزموري حضر على نصراني قد حلق لحيته فاقبل عليه حتى قبله ، وهو يبكي ويقول : احسنت يا من قدر لحية عصت الله قدرها ما يصلح لها الا ما فعلت بها ..

حقيقة ـ تخير المساعد واختبر المصاعد وليكن همك في سفرك منك معرفتك كيف ترجع اليك فلن يحقق صفة الربوبية من لم يتحقق نعت الربوبية .

رقيقة ـ حدثت ان بعض فقهاء المشرق اختلس متاعه فهتف بالسارق قد وهبتكه ، فقل : قبلت فقلت ، تخلق بالسماح والسماح رباح ، ورحم ذليل العصيان « والراحمون يرحمهم الرحمان»

حقيقة ـ سفر المريد تجارة ، وسفر العارف عمارة فهذا يرحل للاقامة عند الحقيقة .. وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة .

رقيقة ـ افتخر الغراب باقامة قرآن الفجر ، فقيل حتى تغسل بول الشيطان من اذنك فطرب الديك فرحا بالفوز وندب العصفور ترحا على الفوت .

حقيقة ـ سالت ابا عبد الله ابن شاطر الجمحي عن معنى قول ابن الفارض :
فلم اله باللاهوت عن حكم مظهر
ولم انس بالناسوت موضع حكمة
فقال : يقول ما انا بالحلاج ، ولا ببلعام ..؟ ؛ فقلت وهذا هو الانسان على الكمال والتمام ، ولقد سمعته يقول في الحلاج نصف انسان يشير الى البيت :

رقيقة ـ حدثت ان ابا الحسن الشاذلي لما ازمع على التحول من طيبة على من بها الصلاة والسلام اوقف فعله على اذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرءاه في منامه فقال له : توحشنا يا علي، فاخذ يجد في طلب الاذن فاذن له وقال اذا جئت مصر فاقرا عز الدين بن عبد السلام مني السلام ، قال فلما التقيا بلغه المألكه سرا فلم تطمئن نفسه لذلك فلما قام المزمزم قال :
صدق المحدث والحديث كما جرى
وحديث اهل الحب مالا يفترى
فاستغفر الشيخ وكذب نفسه ثم حط للتعليم راسه .

رقيقة ـ حدثت ان ابن امحوط المولة دخل في حلقة ابي عبد الله ابن رشيد بجامع القرويين وبين رجليه قصبة كأنها فرس وبيده اخرى كأنها رمح فانتهره رجل ، فضربه برمحه على راسه ، وقال له : اسكت يا ميت : فبهت الناس لكلامه وقال له الشيخ : يا فقير انت في حال ونحن في مقال ، وشان ارباب الاحوال التسليم لاصحاب الاقوال ، فنظر اليه المولة وانصرف ، ثم لم يلبث المنتهر ان توفي بعد ذلك بايام قلائل .

حقيقة ـ الوهم شيطان القلب ياتيه من بين يديه ، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وسائر الجهات بمراقبة « قل هو القادر » فمن ثم كان اشد تقلبا من المرجل على الجمر ، فاذا ذكر الله سكن « الا بذكر الله تطمئن القلوب » .

رقيقة ـ فرق القلب من ذكر الله خوفا : « وجلت قلوبهم » ثم سكن بذكره رجاء «وتطمئن قلوبهم»

«1» انظر درة الحجال ج2 ص 316 وص 354 .

فعـاد اليه بعد داء « تقشعر منه » دواء « ثـم تليـن » فنعق بلائمه : « دع عنك لومي فـان اللوم اغراء » تم هتف بمنادمه : « وداونـي بالتي كانت هي الداء » .

حقيقة ـ العبودية : صفة نفسك لانها حال احد العبيد .. والعبودة صفة قلبك لانها ملكة واحد العباد ، والعبادة قصد وجهك لانها نعت الفرد مـن العبـاد .

رقيقة ـ صن عينك عن قلبك لربك ، وقلبك عـن نفسك لحسك ، ونفسك عـن طبعك لوليك ، وطبعك عن هواك لعدوك وهواك عمـن سواك ، فقد كنت من اهل الجنة فثنـاك :
« وهمه ان يقطعك عما اخرج منه اباك » «ولا يفتننكم الشيطـان » .

حقيقة ـ الصبر مطية المريد ، والرضا سجية المراد، فهذا يقوم للامـر وذاك يسعى للاجـر ..

رقيقة ـ كنت بجامع تلمسان والى جنبي رجـل ينتمي الى طريق العرفان ، فجعل سائل يشكـو الجوع والالم ، فتصدق ذلك الرجل عليـه بدرهم وقال : اياك ان تشكو الرحمن الى من لا يرحم ، فقلت : امره ان يسـأل عزيزا بمولاه ونهاه ان يشكـوه ذليلا الى من سواه وكان الفارابي

يكثر ان يقول : يارب اليك المشتكى ، حتى انـه ليوجد فى اثنـاء ذكـره وكلامه فى غير موضعـه فيعجب من لا علم لـه بمنزعه .

حقيقة ـ الشطح كنايـة ، والكرامـة عنايـة ، والاعتراض جنايـة ، فاياك ولم ، فان عرفـت فاتبع وان جهلت فسلـم .

رقيقة ـ قلت لابن شاطر : كيف حالـك ؟ فقـال محبوس فى الروح ، وصدق ، لان الدنيا سجـن ولا مخلص له من حبسه الا بمفارقـة نفسه .

حقيقة ـ تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسـه فى بحـار العظمة ، وتعلق الشاكر بجمال الفعل فوقف مع نفسـه بـوق النعمـة ، فهذا تاجـر « ولئن شكرتم » وهذا ذاكر « وما بكم مـن نعمـة » .

رقيقة ـ حدثت ان الامام الفخر مـر ببعض شيـوخ الصوفية فقيل للشيخ هذا يقيم على الله تعالى الف دليـل .. فلو قمت اليه فقال : وعزته لو

عرفه ما استدل عليه ، فبلغ ذلك الامام فقـال نحن نعلمه من وراء حجاب ، وهم ينظرون من غير حجاب وهذا كقوله فى التفسير : ان النعلين اللذين امر موسى بخلعهما هما المقدمتان اللتان يتوصل الى المعرفة بهما ، فقيل له : انك قـد حللت بالوادي المقدس لسمـاع : « انـا ربك » فلا تنصرف عن مقام التحقيق الى طلـب التصديـق فليـس الخبـر كالمعاينة ..

حقيقة ـ ما حمد الله حق حمده الا من عرفه حـق معرفته ، وذلك لا ينبغي لغيره « لا احصـي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك » .

رقيقة ـ الليل معاد الانس « ان ناشئة الليل هي اشد وطئا واقوم قيلا » والنهار معاش النفـس « ان لك فى النهار سبحا طويلا » فهذا نشـاط رغبة يتسع فى مناكبه المجال ، وتعتور عـلى مراكبه الاحوال ، وذاك حجاب رهبة تهوى اليه الاوجال وتجتمع فيه هموم الرجال الا تـرى كيف يهـاب الجبان درقة الابطال وتتقـي الحواس جلبة الخيـال ، كما قال :

نهاري نهار الناس حتى اذا دجا
لي الليل هزتني اليـك المضاجع
اقضي نهاري بالحديث وبالمنـى
وتجمعني والهم بالليل جامـع
لقد علقت فى القلب منك محبـة
كمـا علقت بالراحتيـن الاصابع
اتطمع مـن ليلـي بوصل وانمـا
تقطع اعنـاق الرجال المطامـع

حقيقة ـ حجب الطالب اربعة : فحجاب الغيـرة قاذع ، قيل لبعضهم : اتحب ان تراه ؟ فقال : لا ..؟قيل:ولم؟قال:اجل ذلك الجمال عن نظر مثلي .. وحجاب الهيبة قامع ، نزل فقير على ابن عجوز فبينما هي تصلح له الطعام غشي على الفتى فسألهـا الفقيـر فقالت له : انـه يهوى ابنـة عم له بتلك الخيمة ، فخطرت فاشتم غبار ذيلها فذهب عقله ، فذهب الفقير ليخطبها عليـه فقالت : اذا لم يطق غبار ذيلي فكيف يستطيع ان يشاهدنـي ، وحجاب الحيـرة دافع ومـن ثم حلا لارباب الغيبة قال بعضهم يا دليـل الحائريـن ، زدنـي تحيـرا ، ومر على اصحاب الرغبة والرهبـة كما قال :

قد تحيرت فيك خـذ بيـدي
يا دليـلا لمـن تحيـر فيكـا

وحجاب الغفلة قاطع ، كان بعضهم يقول : ان عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب ونظر آخر الى امراة فوقع عليه سهم فنزعه فاذا عليه مكتوب نظرت بعين العبرة ، فرميناك بسهم الادب ، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة .

رقيقة ـ حجب المطلوب ثلاثة : فحجاب التيه جمال ، كما قال العارف عمر :

ته دلالا فانت اهل لذاكا
وتحكم فالحسن قد اعطاكا

وحجاب العزة جلال :

همت باتياننا حتى اذا نظرت
الى المرآة نهاها وجهها الحسن

وحجاب الكبرياء كمال : وانشدت لرابعة :

احبك حبين : حب الهوى
وحبا لانك اهل لذاك
فاما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواك
واما الذي انت اهل له
فرفعك للحجب حتى اراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك

وهذا معنى ما في الصحيح « ما بين اهل الجنة وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن .

حقيقة ـ حدثت ان رجلا كان يجلس الى ابي الحسن الحرالي وكان يشرب الخمور فسكر مرة فسقط على زجاجة فشج وجهه فاختفى الى ان بريء ثم عاد الى مجالسته فلما رآه الشيخ انشد :

اجريح كاسات ارقت نجيعها
طلب التراث يعز منه خلاص
لا تسفكن دم الزجاجة بعدها
ان الجروح كما علمت قصاص

ففهم الرجل فتاب .

رقيقة ـ قيل لابن شاطر : صف لنا الدنيا فقال «كسراب بقيعة» الآيتين فبلغ ذلك ابا زيد بن الامام فانكره عائبا لاستحسان سامعه تاليا « يحرفون الكلم عن مواضعه » ولقد اصيب المتعسف بادهى منها وامر فانه افحم يوما بعض اهل النظر فتلا « فبهت الذي كفر »

على ان له ان يقول : لم اخرج الاية عن مرادها بالبهت ، من انقطاع المعاند والكفر من جحد الجاحد .. ولنا ان نقول : التحريف المذموم التحويل للابطال ، وليس هذا في قصة المثل الاول بالمثال ..

حقيقة ـ لا يوضع السر الا عند اهله ، ولا يذيعه الا من ضاق ذرعا بحمله ، فان عدا مودعه الرمز به فقد زل ، وان تعدى مودعه الغمز فقد ضل ..

رقيقة ـ كنت كثيرا ما اسمع ابا محمد المجاصي ينشد هذا البيت :

هم الرجال وغبن ان يقال لمن
لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

ثم يبكي وكان اهل البلد يسمونه البكاء وبعضهم يسميه الخاشع .

حقيقة ـ اهم ما على السالك مراعاة قلبه ليلا يتلف في تقلبه فان ذلك فساد حاله وذهاب راس ماله ، رئي فقير ينادي في السوق : ارحمو صوفيا ذهب راس ماله ، فقيل وهل للصوفي راس مال ؟ فقال نعم ، كان لي قلب فقدته .

رقيقة ـ كنت يوما بالمسجد الجامع بتلمسان ومعي ابو عبد الله ابن شاطر فاردت الذهاب فقال لي : تنصرف عن روضة من رياض الجنة يقام فيها على راسك هذا التاج واشار الى المنار مملوء بالله اكبر ، فكانما عقلني فجلست ..

حقيقة ـ الزوال وقت المناجاة ، فطهر قلبك قبله من الحاجات فقد قيل ان نقطة الخط اسرع انتقالا من اللحظ .

رقيقة ـ كان ابن شاطر يقول : الجديد ان حرسيان احدهما اسود والاخر ابيض وكلاهما قد اخذ بمجامعنا الى يوم القيامة ثم يتلو « وان مردنا الى الله » .

حقيقة ـ تنازع القلب والنفس الخلقة فترافعا الى العقل فقسمها بينهما ، فانفردت النفس بالهوى والقلب بالتقوى فصرفت الطرف الى الجهتين .. وقطعت الشقة بين الفئتين .

رقيقة ـ الدنيا معشوق الطالب عاشق الهارب ، هذا يستخدمها ، وذاك يخدمها ، يبني الخادم المسجد ليقال ويعمر المخدوم لينال ، فعل

الخادم السعي من غير جدوى « وليس لرحل حطه الله حامل » وللمخدوم الجدوى من غير سعي « وليس لما تبنـي يد الله هـادم » ان السعـادة اصلها التخصيص ..

حقيقة ــ التفت الى مواهب الملوك تجدهم انمـا يوسعون فيما قد يسترجعون فاما العلماء وكل من يعطى بحق فانما يعطون بقصـد « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجـا منهم» واصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم .

رقيقة ــ قمت ببعض الاسحار ، على قدم الاستغفار ، وقد استشعرت الصبابة واستدركت الكآبـة فاملى الجنان على اللسان بما نفث فى روعه روح الاحسان

منكسـر القلـب بالخطايـا
يدعـوك يـا مانـح العطايـا
اقعـده الذنـب عـن رفيـق
حثـوا لرضوانـك المطايـا

حقيقة ــ ان اكبرت النفس حالها فذكرها اصلهـا ومآلهـا فانها تصغـر عند ذلك وتستقيم بك على ارض المسالك حثـوا التراب فى وجوه المداحيـن .. « منها خلقناكم وفيها نعيدكم »

رقيقة ــ انما يتعاظم من يجد الحقارة من نفسـه ويتوهم المهانـة عند ابناء جنسـه ، فلذلك تراه مغمزا للعيـون ومهمزا للظنون « من اسـر سريـرة حسنة كسـاه الله رداءها » .

حقيقة ــ النص سلاح ، والنظر مطية ، والاتباع جنة، والورع نجـاة ، والخلاف فتنـة ، والبـدع مهالـك ، وخير الامور اوساطها .

رقيقة ــ قلـت :

اشيـم البرق من بيـن الثنايـا
واشتـم العبيـر من الثنـاء
فابـدو تـارة واغيـب اخـرى
مثـار الشـوق منثنـى الحشـاء

حقيقة ــ وقفت ذا تيوم بالجبانة واستفهمت اسمي هل عرف منها مكانه فاملي بعد هنبهـة مـن نظمه ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه :

كل ميت راتـه عينـي فانـي
ذلك الميـت ان نظـرت بقلبـي

وجميع القبـور قبـري لـولا
جهل نفسـي بما لهـا عند ربـي

رقيقة ــ حدثت ان ابن الفارض دخل على الشيـخ عز الدين وقد ذهب بـه التفكر فيما له عنـد الله عز وجل فكاشفه بان انشده من قصيدة له:

لك البشارة فاخلع مـا عليك فقد
ذكرت ثـم على مـا فيك من عوج

فبدرته البشاشـة واظن ان قد خلع قماشه .

حقيقة ــ الوحدة فهم والتوحيد علم ، والاتحاد حكم ، والاثنينية وهم .

رقيقة ــ من تفكر تذكر ومن تذكر تبصر فان اكمـل وقف وان قصـر انصرف « انـا هدينـاه السبيـل » .

حقيقة ــ النفس الامارة آبدة لا تملك الا بلطائـف الحيل ، والمطمئنـة ذلول لا تفلت الا ممـن غفـل ، و« اخاف ان ياكله الذيب » .

رقيقة ــ من جر لنفسه جار على قلبه فلا تقبـل شهادته عند ربه ، لان العدل ترك العدول والميل

حقيقة ــ لا تقدمن الا بدليل وادن واحـذر مـا لا ينفع ما استطعت فقد يضر ، ثم انظر فلا حرج عليـك ان جهلت ما لا تكلف علمه ، واخاف عليك سـوء عاقبة الهجوم .

رقيقة ــ انما تزيد من دنياك بقدر ما تنقص مـن دينـك فان زيـادة الجدار على قدر نقصـان الجبـل .

حقيقة ــ دع القريب ومـا يريد واركب الجادة ولا تتبع بنيات السبل فتتفرق بك عن صـراط الحق ، عصمنـي الله واياك من مسالك الزلـل ويسرنا لما يرضى به عنـا من القـول والعمل ، بمنه وكرمه لارب غيره ولا خير الا خيره وهـو نعم المولى ونعم النصيـر ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، والصلاة والسلام على مولانا محمـد بن عبد الله وآله وصحبـه وسلم تسليما .

عبد المجيد الزبادي

بقلم الأستاذ :
عبد القادر زمامة

اسمه وولادتـه ـ بيتـه ـ نشأتـه ـ دراستـه ـ اساتذته بفاس ـ اساتذته بالمشرق ـ اشتغاله بالتدريس ـ بعض تلامذته ـ نثره ـ شعره ـ تصوفه ـ مؤلفاته ـ وفاته ومدفنـه

اسمـه وولادتـه :

هو عبد المجيد بن علي بن محمد « فتحا » بن علي بن احمد بن محمد «فتحا» بن علي بن محمد «1» المنالي ، ينسب من حيث الشرف الى عيسى بن ادريس بن عبد الله الكامل بن حسن فيقال الشريف الحسني «2» ، والى البلد الاصلي فيقال المنالي نسبة الى قرية تدعى : « منالة » «3» باقليم سوس ، والى فاس فيقال الفاسي لانه دار هجرتهم ومستقرهم ، وله كنيتان تردان فى المصادر وهما : ابو الثناء «4» ، وابو السرور «5» ، ولقبه الذي اشتهر به هو وجده وابوه واخوانه الزبادي .

اما جد ابيه فكان يلقب بالصوفي بسبب انـه تواجد يوما بين يدي صاحب زاوية المخفية محمد بن عبد الله معن الاندلسي المتوفى عام احدى وستين ومائة والف «6» فقال له : « تبارك الله شريف صوفي فصارت لقبا له ثم صارت فى اخوته وعقبهما » «7»

قال صاحبنا هذا فى رحلته الحجازية لدى ذكر الرسوم التي كانت عنده بعد كلام طويل : «ولكن الصواب ان يكتب الواحد منا المنالي عرف بالزبادي او المنالي ثم الصوفي عرف بالزبادي » .

اما تاريخ ولادته فلم نعثر عليه فى المصادر التي اقتبسنا منها هذه الترجمة لكن حسب هذا النص

---

1) هذا هو الذي انتقل من سوس الى فاس . انظر الكناش ص 508 ، وهذا الكناش عبارة عن مجموع ضخم من التقاييد بعضها لصاحب الترجمة ، وبعضها لابي العباس احمد المنالي الزبادي الاتي الذكر، وبعضها لابي عبد الله محمد الهادي العراقي القادم الذكر كذلك . يوجد ضمن مجموعة من الكتب التي املكها .
2) انظر الرحلة نسخة خاصة ص 350 . والكناش ورقة 460 .
3) انظر الرحلة ص 353 والسلوة ج 2 ص 188 .
4) انظر السلوة ج 2 ص 185 .
5) انظر الرحلة ص 250 .
6) انظر ترجمته فى السلوة
7) عن السلوة ج 2 ص 187 .

الذي عثرنـا عليه في آخر نسخة من الرسالة «8» لابن ابي زيد القيرواني 386هـ مكتوبة بخط صاحب هـذه الترجمة ما نصـه : «9»

« كان ابو صاحب هذه الخط نتجر معا «كذا» في الصوف ، ففي سنـة ثلاث عشرة ومائة والف هجرية خرجنـا الى احواز «وجدة» لنشتري الصوف فلمـا رجعنـا مرض لنـا في الطريق فتركنـاه عند صديقنا المحب في الله تعالى الناسك القانت الخاشـي صاحب الحما بمدينة « العيون » سيدي عبد القادر بن محمد ابن عيـى الفكيكي ، فلما وصلنا الى فاس اخبـرت ام اولادي بمرضه فقالت لي ان للا عائشة قد خلفت له ولدا ، وكان الولد هو هذا » .

قيـده عبد ربه الضعيف الحقير محمد بن محمد ابن علي الوزاني لطف الله به «شكله» فعلى هذا كان مولده عام ثلاثة عشر ومائة والف هجرية .

بيتـه :

ان بيت عبد المجيد الزبـادي بيت عريـق في المجد «10» والعلم ، والصلاح والنسك والزهـد ، والعفاف والانتماء الى اهل الطرق ـ اصحاب الزوايا ـ منـذ القرن السابع الهجري «11» .

كان ابوه المتوفى سنة ثلاثة وستين ومائة والف(12) من المحتفظيـن على شعائر العقيدة الاسلامية بكل مـا في الكلمة من معنى ، بالاضـافة الى الاوساط الحميـدة التي كان متمتعـا بها في وسط بحبحة العاصمـة العلميـة . لقد كان مشهورا بالصلاح والخيـر والاستقامة ، وتنظيف المساجد «13» ، وكان لا يخالط الا اهل الاحسان والعلم «14» .

ومن جملة الاعـلام الذين لازمهم وشاركهم في السراء والضراء العلامة الصوفي ابو العباس احمـد ابن عبد الله معن الاندلسي المتوفى عام عشرين ومائـة والف «15» والعلامة ابو عبد الله محمد «فتحا» بـن عبد القادر الفاسي المتوفى سنة ست عشرة ومائة والف «16» والاستـاذ ابو عبد الله محمـد بن عبد الرحمن ابن عبد القادر الفاسي المتوفى عام اربعـة وثلاثيـن ومائـة الف «17» .

اما امه عائشة «18» المدعوة عشوة بنت الحـاج علي بونافع وحفيدة ابي زيد عبد الرحمن بـن عبـد القادر الفاسي «19» من بنته آمنة فقد كانت مـن القانتات الخاشعات الصابـرات الصائمات «20» ، وكانت ملازمة للوضوء (21) مواظبـة على قراءة كتاب الله والاذكار صباحا ومساء (22) كثيـرة الزيـارة

---

8) هذه النسخة قد وقفنا عليها في خزانة صديقنـا محمد بن محمد الورياغلي الريفـي الموجود حاليا بمدينـة مليليـة .

9) نص الناسخ : وكان الفراغ منه ضحـوة يوم (ا ...) الوافي ثمانية عشر خلت من جمادى الاولى عام خمسة وخمسين ومائة والف هجرية على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله بعده من ابناء جنسه عبد المجيد بن علي المنالي ثم الصوفي الزبادي غفـر الله له ولوالديه ولاشياخه والمسلمين اجمعين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما آمين آمين آمين) .

10) انظر السلوة ج 2 ص 185 ، والدرر الباهيـة ص 144 .

11) انظـر الكنـاش ص 350 . والرحلـة ص 295 .

12) انظر ترجمته في السلوة ج 2 ص 127 . وسلوك الطريق الوارية ميكرو فيلم الخزانة العامة .

13) انظـر الكنـاش ص 50 .

14) انظـر المرجـع الآنف الذكـر ص 52 .

15) انظـر ترجمتـه في النشر ج 2 ص 118 / 123 .

16) انظـر ترجمتـه في السلـوة ج 1 ص 316 / 318 .

17) انظـر ترجمتـه في النشر ج 2 ص 146 .

18) انظر ترجمتها في السلوة ج 2 ص 188/187 . وسلوك الطريق الواريـة .

19) انظـر السلـوة ج 2 ص 187 .

20) انظـر السلـوة ج 2 ص 188 .

21) انظـر الكنـاش ص 75 .

22) انظـر نفس المصـدر ص 76 .

للصالحين «23» والمحبة في اهل الخير المنتسبين «24» كثيرة الصيام وقيام الليل «25» ، والمحافظة على الصلاة في اوقاتها مع الجماعة في جامع القرويين او بالضريح الادريسي «26» .

هذا بالاضافة الى المجالس العلمية التي كانت تحضرها بكيفية مستمرة «27» على ابي العباس ابن مبارك ، وابي عبد الله محمد «فتحا» جسوس وابنيها صاحب الترجمة ، ومحمد «فتحا» الاتي الذكر.

توفيت سنة سبع وسبعين ومائة والف هجرية عن سن عالية ، ودفنت خارج باب الفتوح «28» .

اما اخوته فهم اربعة :

ب — احمد «29» الذي مات عن زوجة وولد اسمه عمر فقد ترجم له صاحبنا في رحلته فقال فيه كلام طويل ما نصه :

«كان فقيها دينا عفيفا وقورا له خبرة بالعربية والبيان ، والمنطق ، والاصول ، والفقه ، وحج حجتين ، وجاور بالحرمين الشريفين ، وهو اكبر مني بنحو عامين ، وتوفي ليلة الخميس الثامن من شوال سنة سبع واربعين ومائة والف ..» «30» .

ومن تاليفه هذا الكناش القيم الذي نعتمد عليه وهو ضمن مجموع يحوي تقاييد عديدة بعضها للمترجم وبعضها لمحمد الهادي العراقي الاتي الذكر .

ب — عبد الله المتوفى ثامن ذي الحجة متم عا سبعة وستين ومائة والف هجرية «31» كان مقدم على الفقراء اصحاب علي بن عبد الرحمن التادلي «32 وكان له ولد يحفظ القرآن ويجلس مجالس العلـ اسمه عبد الرحمن «33» ، ثم زوجه وخلف ولـد سماه باسمه .

ج — فاطمة التي كانت تحفظ القرآن والجرومية والمرشد المعين ، وكان لها خط جميل تنسخ الكتب فتهديها الى الطلبة والعلماء بدون اي مقابل ، وعدد الكتب التي كتبت بخط اناملها خمسا عشر كتابا خمسة من شمائل الترمذي ، وثلاثة من البخاري ، وسبعة من المرشد المعين ، اما المصاحف فقد كتبت ما يربو عن خمسة وثلاثين مصحفا «34».

قال المترجم : « وهذه النسخة من الشمائل التي قرات بها على اشياخي وادرس بها الان فهي من خطها رحمة الله عليها » «35» .

توفيت اواسط رمضان سنة اثنين واربعين ومائة والف في المعطن المسمى « النعيم » من بلاد برقا لدى ذهابها الى الاراضي المقدسة صحبة زوجها «36» واخيها عبد الله السالف الذكر «37» .

د — العلامة الصوفي الزاهد الواعظ ابو عبد الله محمد «فتحا» المتوفى اوائل ربيع النبوي سنة تسع ومائتين والف «38» كان مؤذنا في صومعة القرويين منذ ان كان عمره لايتجاوز خمسة عشر سنة «39

---

23) انظر المصدر الانف الذكر ص 77 . والسلوة ج 2 ص 188 .
24) انظر الكناش ص 78 . وسلوك الطريق الوارية .
25) انظر الكناش ص 75 .
26) انظر السلوة ج 2 ص 188 .
27) انظر الكناش ص 75 والسلوة ج 2 ص 188 .
28) انظر السلوة ج 2 ص 188 . وسلوك الطريق الوارية .
29) انظر ترجمته في الرحلة ص 300 . والسلوة ج 2 ص 188 .
30) عن الرحلة ص 302 .
31) انظر ترجمته في السلوة ج 2 ص 187 . والرحلة ص 304 .
32) انظر الكناش ص 102 والسلوة ج 2 ص 187 .
33) انظر الرحلة ص 304 .
34) انظر ترجمتها في الكناش ص 250 . والرحلة ص 100 .
35) عن الكناش ص 251 .
36) هذا الزوج لم نقف على اسمه .
37) انظر الرحلة ص 101 .
38) انظر ترجمته في السلوة ج 2 ص 190/188
39) انظر الكناش ص 260 . والرحلة ص 310 .

الى ان مرض بمرض اصابه فى الصومعة المذكورة فتخلى عنه «40» ، ثم احترف التجارة «41» لكن لم ينجح فيها ، ثم عاد الى وظيفته الاولى فى مسجد الاندلس «42» حتى اصبح استاذا فى القرويين والضريح الادريسي «43» واولاده محمد ورقية «44» وفى سنة ست وستين رحل الى المشرق صحبة عبد الوهاب التازي المتوفى سنة ست ومائتين والف «45» ولقي فى سفره هذا الاخيار والعلماء وتبرك بهم واخذ عنهم «46» .

ومن تاليفه : « تنبيه الفقير من الغفلة والتقصير الى الخدمة والتشمير » «47» و « روضة البستان ونزهة الاخوان فى مناقب الشيخ ابي عبد الرحمن التادلي » «48» و« سلوك الطريق الوارية فى الشيخ والمريد والزاوية » (49) .

نشاته :

قد نشا صاحبنا فى بيت ابويه الذي تقدمت لنا الاشارة اليه ، منذ ان كان عمره لا يتجاوز خمس سنوات وهو يرافق اباه الى المساجد والزوايا «50» لا يرافق الصبيان ولا يخالطهم فى المكتب «51» بل كان ملازما للصمت «52» حتى قال فيه شيخه عبد السلام محمد بن محمد التازي «53» : « ما رايت يوما قط عبد المجيد يلعب مع الصبيان فى ساحة المسجد ، ولا يضحك معهم فى داخله وقل ان اراه غافلا » «54» .

اما ذكاؤه وصبغته الدينية فى طفولته فقد اثبتها اخوه احمد فى كناشه الانف الذكر حيث قال : « كنت انا واخي نتعلم فى المكتب فمر علينا رجل ونحن فى طريقنا الى المنزل فقال لنا ما اسمكما ؟ قلت احمد فسكت ، فقال اخي اسمي انا عبد المجيد ابن علي بن محمد الزبادي ، فقال لنا الرجل ما يعجبكما اعطيكما اياه ؟ فقال اخي : يعجبني ان اسمع ابي يقول فى صلاته «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» «35» بينما انا قلت : يعجبني التمر والزبيب ، فقال الرجل الله اكبر بصوت منخفض ثلاث مرات ، ثم اعطاني ما طلبته ، واخي قال له اتصلي انت ؟ قال : انا وامي واخي نصلي خلف ابي آخر الليل ، قال ما قراته على فقيهك فى المسيد ؟ قال كتبت اليوم فى لوحي : « قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي » «56» ، قال اتاخذني معكما الى منزلكما ؟ قلنا مرحبا بك ، فذهب معنا ممسكا بيد اخي الى ان دنونا من باب دارنا خرج ابي فقال : مرحبا بشيخنا فضمه الى صدره بعد أن قبل يده اليمنى قال اخي لابي اتعرف هذا الضيف ؟ قال هذا هو سيدي احمد بن محمد «فتحا» بن عبد الله معن الاندلسي الذي اختار لك اسم عبد المجيد ، فصار اخي منذ ذلك اليوم كانه احد ابنائه حيث ياكل وينام عنده ، باستثناء يوم الخميس ، فبقي على هذه الحالة الى ان مرض الشيخ

---

40) نفس المصدر ص 260
41) نفس المصدر ص 261
42) نفس المصدر ص 259 .
43) نفس المصدر ص 259 والسلوة ج 2 ص 190/188 .
44) الرحلة ص 310 .
45) انظر ترجمته فى السلوة ج 3 ص 43/42 .
46) نفس المصدر ص 189 .
47) توجد نسخة منه فى الخزانة العامة .
48) توجد نسخة منه فى الخزانة العامة بالرباط .
49) توجد منه نسخة فى الخزانة العامة بالرباط (ميكرو فيلم) تحت عدد 190 .
50) انظر الكناش ص 350
51) نفس المرجع ص 350
52) نفس المصدر ص 351
53) لم نقف على ترجمته
54) انظر الكناش ص 352
55) سورة الذاريات اية 55
56) سورة طه ايات : 24 ــ 28

مرضه الاخير قال لابي : ان ابنك عبد المجيد قد كملت تربيته وما عليك الان الا ان تأخذه الى امه القانتة الصائمة الصابرة وتقول لها ان احمد الضعيف يبلغ الك سلامه ويطلب منك دعاء صالحة تنجيه من اهوال الدنيا يوم لقاء ربه ، وان لا تعامل ابنه هذا بما يقلقه او يزعجه ، فلما جاء ابي قالت امي له ان ما طلبه منك سيدي احمد ان تبلغه لي قد سمعته ، وقل له انني سأفعل ان شاء الله ، فمنذ ذلك اليوم واخي معنا لا يذهب عند احد ما عدا ليلة الجمعة كنا نذهب فيها الى ضريح مولانا ادريس نفعنا الله به صحبة ابي وامي، وكانت عادتنا كل ليلة نقرا القرآن وابي يسمع ، وكان اخي اكثر مني حفظا ، وقد حفظ القرآن قبلي على يد شيخنا الناسك الحسن الخلق والخلق المواظب على قراءة القرآن والامداح النبوية والملازم للضريح الادريسي محمد بن علي بن احمد الجبلي الاعرج المتوفي بزرهون سنة ثلاث وثلاثين ومائة والف «57» بعد مجاورته لضريح قطب المغرب مولانا ادريس الاكبر زهاء ثلاث سنوات » «58» .

دراسته :

بعد ان حفظ القرآن الكريم على شيخه الانف الذكر اعتكف على قراءة المصنفات فى الضريح الادريسي وغيرها «59» ، فحفظ مقدمة ابن اجروم ، والمرشد المعين لابن عاشر ، ولامية الافعال والالفية لابن مالك «60» ومختصر خليل ، والهمزية والبردة «61» للبوصيري ، وتحفة الحكام «62» لابن عاصم ، وبانت سعاد «63» لكعب بن زهير الصحابي الجليل ، وانوار السرائر وسرائر الانوار «64» لابي العباس احمد بن محمد الشريسي الصوفي ، وجوهرة التوحيد «65» للشيخ ابراهيم اللقاني المالكي .

كل هذه المصنفات قد حفظها عبد المجيد الزبادي قبل ان يأخذ درسا واحدا عن شيخ من اشياخه «66» الذين سنتعرض لذكرهم فيما بعد .

قال اخوه احمد : « كان اخي مريضا بمرض اصابه فى رجله اليمنى لمدة سنة كاملة ، وكان ملازما فى حال مرضه هذا قراءة المتن فى المنزل ، وكنت انا ارافق ابي الى مسجد القرويين قبل الفجر حيث كان شيخنا العلامة القاضي سيدي عبد الله العربي ابن احمد بردلة يجلس لقراءة السيرة ، والتفسير بعد صلاة الصبح ، وكان دائما يسأل ابي عن حال صحة اخي عبد المجيد الى ان شفاه الله وصحبه ابي الى ضريح مولانا ادريس فلقيا «67» هناك سيدي العربي القاضي فقال لاخي : وما عليك الان الا ان تشرع فى طلب العلم الشريف ، وبعد ثلاثة ايام مضت من شهر رمضان المعظم من عام ستة وعشرين ومائة والف رافقني اخي الى جامع القرويين » «68» .

من هذا النص ايضا يتضح لنا كذلك ان عمره كان يوم اندماجه فى سلك طلبة القرويين العتيقة نحو ثلاثة عشر سنة اذا اعتبرنا النص الذي انبتناه فى تاريخ ولادته .

اساتذته بفاس :

اخذ عن عدة اشياخ وهم :

1 » العلامة الحجة المتقن ابو عبد الله محمد بن احمد المناوي الدلائي المتوفى فى سادس عشر شوال عام ستة وثلاثين ومائة والف «69» ، مختصر

57) انظر ترجمته فى الكناش ص 206
58) عن المصدر اعلاه ص 357/354
59) انظر الكناش ص 359
60) انظر الكناش ص 359
61) انظر الكناش ص 360
62) انظر الكناش ص 360
63) انظر الكناش ص 361
64) انظر الكناش ص 361
65) انظر الكناش ص 362
66) انظر الكناش ص 364
67) هذه الكلمة فى الاصل خرق ، الزيادة قد زدناها حسب سياق المعنى
68) عن المصدر الانف الذكر ص 366
69) انظر ترجمته فى نشر المثاني الكبير ج 2 ص 156/150

خليل ؛ وبعضا من تفسير كتاب الله العزيز ؛ وتحفة ابن عاصم ، والرسالة لابن ابي زيد القيرواني «70» .

2» العلامة الداهية ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي المتوفى سنة اربع واربعين ومائة والف «71» : همزيته وشرحها عليها ؛ وحكم ابن عطاء الله بشرح ابن عباد عليها ، والرسالة لابن ابي زيد ، والمرشد المعين ، والبردة للبوصيري، وشرحه على الحكم لابن عطاء الله ، والعهود المحمدية للشعراني ، والشفا للقاضي عياض وارجوزة ابن سينا في الطب ، ومختصر خليل ، والتلخيص للقزويني ، وصحيح البخاري ، وبعض التفسير من الفاتحة الى وسط الاعراف ، والتنوير في اسقاط التدبير لابن عطاء الله (72) .

3» المحدث القدوة احمد بن العربي المدعو ابن سليمان الاندلسي المتوفى سنة احدى واربعين ومائة والف «73» : الحديث والتفسير والسيرة وشرح ابن عباد على الحكم العطائية «74» .

4» الاستاذ النحوي ابو عبد الله محمد «فتحا» بن ادريس العراقي الحسيني المتوفى عام اثنين واربعين ومائة والف «75» : مقدمة ابن اجروم ، والفية ابن مالك ، ولامية الافعال ، وفصيح ثعلب ، ومقامات الحريري «76» .

5» الحافظ الاستاذ الناقد ابو العباس احمد بن مبارك السجلماسي اللمطي المتوفى ثامن عشر جمادى الاولى عام ستة وخمسين ومائة والف «77» : الحديث ، والاصول ، والعروض ، والمنطق ، وتحفة ابن عاصم ، وبعضا من الفية ابن مالك ، وتلخيص المفتاح للقزويني « 78» .

6» المحقق ابو عبد الله محمد «فتحا» بن محمد ميارة المتوفى عام اربعة واربعون ومائة والف«79» تحفة ابن عاصم ، ومختصر خليل ، والحكم العطائية ، بشرح ابن عباد عليها ، والشفا لعياض ، وبعضا من صحيح مسلم ، وبعضا من الرسالة لابن ابي زيد، والفية ابن مالك ، ولامية الافعال ، والرسائل الكبرى لابن عباد ، والقواعد الزروقية ، ودلائل الخيرات «80»

7» العلامة ابو عبد الله محمد «فتحا» بن احمد ابو الرخاء المتوفى عام ثلاثة وستين ومائة والف «81» التوحيد ، ومختصر خليل ، والشرح السابع عشر على الحكم العطائية للشيخ زروق ، والحزب الكبير للشاذلي «82» .

8» الاستاذ النحوي الاديب اللغوي ابو العباس احمد بن علي الوجاري القضاعي الاندلسي المتوفى عام واحد واربعين ومائة والف «83» : مقدمة ابن اجروم ، والفية ابن مالك ، ولامية الافعال ، وفصيح ثعلب ، واللزوميات لابي العلاء المعري ، وديوان ابن الفارض ، والجزء الاول من ديوان المتنبي ، والقاموس ، والعروض «84» .

9» النحوي الصوفي ابو عبد الله محمد بن الحسين الجندوز المصمودي المتوفىعام ثمانية واربعين

---

70) انظر الكناش ص 380
71) انظر ترجمته في النشر المثاني الكبير ج 2 ص 178 وسلوك الطريق الوارية
72) انظر الكناش ص 385 ، وسلوك الطريق الواربة
73) انظر ترجمته في النشر المثاني الكبير ج 2 ص 172
74) انظر الكناش ص 390
75) انظر ترجمته في النتر المثاني الكبير ج 2 ص 178
76) انظر الكناش ص 370
77) انظر ترجمته في النشر المثاني الكبير ج 2 ص 216
78) انظر الكناش ص 373
79) انظر ترجمته في النشر المثاني الكبير ج 2 ص 182
80) انظر الكناش ص 395
81) انظر ترجمتة في النشر ج 2 ص 230
82) انظر الكناش ص 394
83) انظر ترجمته في النشر ج 2 ص 168
84) انظر الكناش ص 399

ومائة والف «85» الفية ابن مالك ، ومقدمة ابن اجروم ومقامات الحريري والبلاغة «86» بدون ان يعين الكتاب المصدر المنقول عنه .

«10» القاضي ابو العباس احمد بن علي الشدادي المتوفى عام ثلاثة وستين ومائة والف «87» : مختصر خليل ، والتوقيت «88» .

«11» الامام المفتي النوازلي ابو عبد الله محمد ابن عبد السلام بناني الفاسي المتوفى عام ثلاثة وستين ومائة والف «89» : مختصر خليل ، وصحيح البخاري ، والرسائل الصغرى لابن عباد ، والسلم للاخضري ، وبعضا من التفسير «90» .

«12» الفقيه الزاهد الصوفي ابو عبد الله محمد الكبير السرغيني المتوفى عام اربعة وستين ومائة والف «91» الشفا ، وشمائل الترمذي ، والرسالة لابن ابي زيد ، والمرشد المعين ، ومختصر خليل ، وصحيح البخاري ، وجمع الجوامع ، والموطأ ، ونظم ابن البناء فى التصوف «92» ، اكثر هذه الدروس بالضريح الادريسي .

«13» العلامة ابو عبد الله محمد « فتحا » بن القاسم جسوس المتوفى عام اثنتين وثمانين ومائة والف «93» : مختصر خليل ، والحكم العطائية ، والرسائل الكبرى والصغرى لابن عباد ، والنصيحة الكافية لزروق «94» .

«14» الفقيه العلامة حافظ زمانه الحسن بن رحال التادلي المعداني المتوفى ثالث رجب عام اربعين ومائة والف «95» مختصر خليل ، والفية ابن مالك ، والتفسير ، وذلك بالمدرسة المتوكلية «96» .

«15» الفقيه الصوفي المحقق الشاذلي الشيخ ابو جدة بن القاسم الزموري المتوفى عام اثنتين وخمسين ومائة والف «97» : بعض رسائل ابن عباد ، واجازة فى دلائل الخيرات «98» .

«16» الاستاذ الاديب النحوي اللغوي العلامة ابو عبد الله محمد بن احمد بن الشاذلي بن محمد بن ابي بكر الدلائي المتوفى عام سبعة وثلاثين ومائة والف «99» الفية ابن مالك ، وبعض اوائل ديوان المتنبي ، وخطبة القاموس ، ومقامات الحريري وبعضا من ديوان ابن زيدون «100» .

اساتذته بالمشرق :

«17» الصوفي الزاهد الشيخ ابو العباس احمد ابن مصطفى بن احمد الاسكندري المالكي الاشعري الشهير بالصباغ فى جامع الازهر فهرسته ، واجازة فى جميع مروياته ، ووقعت بينهما مناقشة فى قوله تعالى « وذا النون » و« كصاحب الحوت » و«ياسين» «101» .

---

85) انظر ترجمته فى النشر المثاني الكبير ج 2 ص191/192
86) انظر الكناش ص 410
87) انظر ترجمته فى سلوك الطريق الوارية والنشر ج 2 ص 215
88) انظر الكناش ص 405
89) انظر ترجمته فى النشر ج 2 ص 232
90) انظر الكناش ص 408
91) انظر ترجمته فى النشر ج 2 ص 234
92) انظر الكناش ص 413
93) انظر ترجمته فى النشر ج 2 ص 266
94) انظر الكناش ص 420
95) انظر ترجمته فى النشر ج 2 ص 160
96) انظر الكناش ص 416
97) انظر ترجمته فى سلوك الطريق الوارية
98) انظر الكناش ص 415
99) انظر ترجمته فى النشر ج 2 ص 158
100) انظر الكناش ص 425
101) انظر ترجمته فى الرحلة ص 200\203

18» ابو العباس احمد العربي التلمساني المصري المالكي الاشعري المحمدي الازهري قوله تعالى « فاين ما تولوا فثم وجه الله ان الله سميع عليم » واجازه فى قراءة دلائل الخيرات وروايته عنه ، وشرط عليه ان لا يجيز به الا من كان متمسكا بالتقوى غير شارب للدخان وان يعهد الله ان يقراه كل يوم او بعضا منه ، واجازه ايضا بالدلائل المذكورة عن شيخيه المكيين عبد الله بن سالم البصري واحمد بن محمد النخلي عن شيخهما عبد الرحمن بن احمد بن محمد بن احمد الحسني المغربي المكناسي الشهير بالمحجوب الى آخر السنة «102» .

واجازه ايضا بفهرسة عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم بن عيسى البصري المكي الشافعي التي جمعها ولده سالم بن عبد الله ، وبفهرسة احمد ابن محمد بن احمد بن علي الشهير بالنخلي المكي الشافعي بجمع صاحبها ، وخاطبه بقوله : « انت مجاز بكل ما فيهما عموما ، وبكل ما تختاره منهما خصوصا وبكل ما يجوز لي وعني روايته ..» «103» .

19» الشيخ الراوية ابو عبد الله محمد الاحمدي باعلوي بن علي باحسن الشريف العلوي الحسيني اليمني المكي نزيل بولاق اسانده فى الطريقة الاحمدية واجازه بالكتب الستة ، وبالاسانيد الثلاثة للمعمرين خصوصا ، وبما اخذه عن ابي علي حسن العجيمي على الخصوص والعموم وبكل ما يجوز له ، وعنه روايته .

واجازه ايضا فى مصنفات عبد الوهاب الشعراني واوراده واذكاره وطريقته ، وجميع مروياته عن شيخه محمد البقري عن عمه ابي عمران موسى البقرى عن الشعراني «104» .

20» ابو العباس احمد الملاوي الشافعي حديث المسلسل بالاولية عن الشيخ الياس ، واجازه فيه ، ونص الاجازة بعد البسملة والحمدلة والتصلية :

« فقد اجزت الشيخ العلامة الشيخ عبد المجيد ابن السيد علي الشريف الحسني المنالي الشهير بالزبادي بالحديث المسلسل بالاولية وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » عن الشيخ الامام الملا الياس بن ابراهيم الكوراني ، وقد اجازني بالبخاري عن الشيخ عمر بن البلوي الشامي عن الشيخ محمد الزفتاوي ، وكان عمره مائة سنة عن شيخ الاسلام زكرياء الانصاري عن ابن حجر العسقلاني ، وقد كان الشيخ عمر ابن البلوي سمع بالشيخ محمد الزفتاوي فاتى الى زفتة فاخذ عنه » .

« كتب الفقير احمد الملاوي الشافعي عفا الله عنه آمين » «106» .

21» المقري ابو الحسن علي البرمادي والشافعي الازهري الضرير سورة الفاتحة واول البقرة الى المفلحون ، وآخر الكهف الى كهيعص .. وبعض الايات من آخر الحشر ، بجميع الروايات ، واجازه فى القرآن الكريم بجميع الروايات ثم قرا عليه المترجم سورة الفاتحة بقراءة نافع وبعض سور المفصل وغيرها ، فخاطبه بقوله : « اجل اني قرات القرآن على جماعة من الاساتيذ» فاجابه المترجم بقوله : « اني قرات القرءان على جماعة من الاساتيذ المحققين . وقد اجازني الشيخ الشريف الفقيه الاستاذ العلامة المجود المشارك الجامع شيخ الجماعة فى القراءات سيدي ادريس المدعو المنجرة ابن الشريف محمد ابن سيدي احمد النجار ابن محمد بن علي بن محمد بن ابي بكر بن الحسن بن عيسى .. بالاجازة التي اجازه بها شيخه الدراكة القدوة الاستاذ محمد بن عبد الله الرغيني الشهير الهواري عن ابي زيد عبد الرحمن «108» ثم ناوله حرز الاماني والنشر واجازه بهما وبسائر كتب القراءات ، وحضه على قراءة حرز الاماني والتفهم فيه .

---

102) انظر ترجمته فى الرحلة ص 185
103) عن الرحلة ص 186
104) انظر ترجمته فى المصدر الانف الذكر ص 188
105) انظر ترجمته فى الرحلة ص : 214/210
106) عن الرحلة ص 215
107) انظر نفس المصدر ص 218/217
108) عن المصدر اعلاه ص 219/218

22» الشيخ ابو عبد الله محمد «فتحا» كشك القاهري المالكي الشاذلي الجزولي اخذ عنه حكمه في التصوف التي ساقها المجاز في رحلته (109) .

ابو الحسن علي البيومي القاهري الازهري الشافعي مذهبا الاحمدي طريقة خطيب مسجد الظاهرية وامامها رسالته في القردانية ، وتعبير بعض ايات من الذكر الحكيم ، وشرحه على حكم الشيخ ابي مدين الغوث ، والطريقة الاحمدية ، والبسه خرقته ، ولقنه اذكارها واجازه في الكتب المذكورة «110» .

23» ابو زيد عبد الرحمن بن مصطفى العيدروسي قصيدته في الامام الحسين ، وقصيدة اخرى له في الولي احمد البدوي ، واجازه بالطريقة القادرية والمدينية «111» .

24» الشيخ الفقيه ابو الربيع سليمان الخالدي الطنطاوي اذكار طريقة الدسوقية ، والبسه خرقتها واجازه في كل منهما ، وهذه الطريقة هي المعروفة بالبرهانية نسبة الى برهان الدين ابراهيم الدسوقي القرشي الهاشمي العلوي الحسيني «112» .

قال المترجم في رحلته : « وهي مبنية على الذكر الجهري ولزوم الجد في الطاعات ، وارتكاب اهوال المجاهدات ، وذبح النفوس بسكين المخالفات وحبهاق سجن الرياضات، ومن شأن اهلها الاستهتار بذكر دائم بياء النداء لاسيما في ختم مجالس التلاوة والذكر الجهري بالجلالة مع الهوينة ، ومن شأنهم لبس الزي وهو الاخضر » .

25» الشيخ عبد الله الموافي «113» في سند الطريقة الرفاعية والبسه لباسها الذي هو الزي الاسود.

26» العلامة ابو عبد الله محمد ابو العز المنصوري الشافعي الضرير الحديث مدة اقامته في المنصورة «114» .

قال المترجم : « وهو فصيح حسن التدريس ، كثير التقشف بخلاف جل علماء المشرق .. »

27» ابو الحسن علي بن ابراهيم المالكي «115» حزب الشعراني واجازه في جميع كتبه واوراده ، ونص الاجازة بعد البسملة والتصلية :

« هذه الاجازة الشعرانية المحفوفة بالامدادات الربانية لمولانا شيخ الاسلام المولى الشريف عبد المجيد بن علي المنالي الحسني الشهير بالزبادي اطال الله بقاءه آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نقتفي وعليه اعتمادي .

الحمد لله الذي سلك باحبابه اقوم طريق ، وافاض عليهم من فيض فضله معالم التحقيق ، والبسهم من زي المعارف والتقى ملابس الفضل ليكونوا كاسلافهم قدوة لمن اتقى ، وتوجهم بتاج الاسناد رحمة بالبلاد وبالعباد جعلهم الله وراث بلاده ، وغياث عباده باتصال سندهم المعنعن والمسلسل على رؤوس الاشهاد ، احمده على ما انعم به علينا من الاتصال واشكره على مزيد الافضال ، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة نستمطر بها مزيد الفضل من ذلك الجلال واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيد بالاصحاب والآل الامر بالاقتداء بهم في الاقوال والافعال صلاة وسلاما دائمين متلازمين ما طلب سند الاتصال ..

وبعد ، فيقول الفقير الحقير كثير الزلال المنكسر خاطره لقلة التقوى والعمل علي بن ابراهيم المالكي خطيب زاوية القطب الرباني والمحقق الصمداني خاتمة المحققين سيدي عبد الوهاب الشعراني عمت المسلمين بركاته في الدنيا والاخرة امين امين .

قد كان حضر الى الحج الشريف حضرة المولى الشريف صاحب المقام المنيف محي مآثر القوم السالمين من العتب واللوم مزيد دهره وزين عصره

---

109) انظر ترجمته في نفس المصدر ص 229/225
110) انظر ترجمته في نفس المصدر ص 233/230
111) انظر ترجمته في المصدر اعلاه ص 234/233
112) انظر ترجمته في المصدر اعلاه ص 236/235
113) انظر ترجمته في الرحلة ص 237/236
114) انظر ترجمته في نفس المصدر ص 239/240
115) انظر ترجمته في نفس المصدر ص 241/240

شيخ الاسلام والمسلمين المولى الشريف الحسيب العفيف عبد المجيد بن الشريف علي المنالي الحسني الشهير بالزبادي من مدينة فاس في سنة ستين ومائة والف واجتمعت به لالتمس التشريف بالاخذ عنه بمجلس السادة العنائية العمرية عاملنا الله واياهم والمسلمين بالطافه الخفية ، فطلب الاستاذ المذكور من الفقير بعد الاخذ عنه في اول البخاري ، واول الشفا الاجازة بقراءة حزب الاستاذ الشعراني رضي الله عنه فكان كذلك ، ولم يكتب له بذلك سند الاتصال فاشتاقت نفسه رضي الله عنه لذلك اعتناء بشأن ذلك كاداب المحصلين الافاضل فارسل يطلب ذلك في سنة الف ومائة واثنين وستين ليكون له مزيد الاتصال بالاسناد ، فالاستاذ الشريف حيث وجه الامر بالطلب الى الفقير الضعيف فقلت مستغفرا حامدا الله سبحانه وتعالى مصليا على نبيه صلى الله عليه وسلم داعيا بالقبول وعموم النفع لنا ولكم وللمسلمين آمين .

وقد اجزنا الاستاذ المولى الشريف عبد المجيد بذلك وبجميع كتب الاستاذ واوراده واذكاره ، وان يجيز بذلك من يرى له رغبة وتعلما بذلك وان لا ينسونا عقب الصلوات والاذكار من صالح دعائهم سيما بالتوفيق للعمل والحفظ من الوقوع في الهفوات والزلل ، وان يجعلنا واياكم في القيامة من الناجين وبذريته متنعمين ، وكذلك احبابنا واخواننا ومن تلقى عنا او تلقينا عنه بقلب سليم انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى سائر النبيئين والمرسلين .

وحرر ذلك في يوم الاثنين المبارك الموافق ثاني وعشرين ربيع الاخر من شهور سنة الف ومائة وثلاثة وستين ، كاتبه الفقير الفاني علي المالكي خطيب الشعراني عفا الله عنه آمين » «116» .

28» المحدث محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الصوفي الخلوتي «117» بعضا من صحيح البخاري في مسجد الصغير للامام السيوطي ، واجازه في اوراد طريقة الخلوتية .

29» العلامة عبد الله مدهر المتوفى بمكة المكرمة سابع او ثامن عشر ذي الحجة عام ستين ومائة والف ، سند الخرقة الحدادية التي لبسها منه بمنى ، واجازه اجازة عامة في سندها ، واجازه ايضا في صحيح مسلم ، والشفا لعياض «118» .

30» الفقيه ابو عبد الله محمد بن الطيب القاسي بالمدينة المنورة وكانت بينهما مكاتبة «119» .

ومن جملة الرسائل التي وردت على المترجم بخط شيخه هذا رسالة تضمنت سند خرقة الحدادية ، وموت شيخه عبد الله مدهر ونصها بعد التقديم :

« .. واما سند الخرقة الحدادية فالسيد عبد الله لبسها من السيد محمد بن علوي وهو من السيد عبد الله بن علي صاحب الوهط ، وهو من السيد شيخ ابن عبد الله صاحب احمد اباد عن والده عبد الله بن شيخ وهو من عمه القطب ابي بكر بن عبد الله العيدروس وهو من والده القطب عبد الله بن ابي بكر العيدروس وهو من ابيه ومن عمه الشيخ عمر المحضار ابني عبد الرحمن السقاف وهما من والدهما عبد الرحمن بن محمد وهو من والده محمد بن علي وهو من والده علي بن علوي وهو من والده علوي بن محمد وهو من والده القطب المحقق سيدي الفقيه محمد بن علي المعروف بمقدم التربة ، وهو من الشيخ عبد الله الغوث الجامع سيدي ابي مدين شعيب دفين العباد بتلمسان رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم آمين .

كتبه احقر العباد محمد بن الطيب غفر الله له ولوالديه ولاشياخه في المدينة المنورة يوم الجمعة فاتح عاشوراء عام ستين ومائة والف ، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما » «120» .

31» المحدث الصوفي الداهية ابو عبد الله محمد حياة السندي المدني المتوفى سنة ثلاث وستين ومائة والف

116) عن الكناش ص : 500-501
117) انظر ترجمته في الرحلة ص : 251-243
118» انظر ترجمته في المصدر اعلاه : ص 100-102
119» انظر ترجمته في الرحلة ص 103-102
120» عن الكناش ص : 510-511

«121» ترجمة امام البخاري واجازه بجميع كتب الحديث وغيرها ، ونص الاجازة بعد البسملة :

الحمد لله الذي انعم علينا بالاسناد لاحاديث اشرف العباد صلى الله عليه وسلم وآله واصحابه على توالي الامداد .

اما بعد فقد اجازني اجازة عامة الشيخ عبد الله بن سالم المكي بجميع ما يجوز له اجازته من كتب الاحاديث وغيرها ، وقد اجزت بذلك كله وبتاليفاتي مع قصوري السيد الجليل الشريف العلامة عبد المجيد بن علي الحسني المنالي بالشرط المعلوم عند اهل العلوم هداه مولاه الى موجب رضاه ووقاه مما اذاه وجعل آخرته خير من اولاه ، وارجو منه ان لا ينساني من دعواه فاني الى دعائج فقير والرب بالاجابة جدير .

كتبه افقر الورى محمد حياة السندي المدني عفاالله تعالى عنه في المدينة المنورة يوم السبت تاسع عاشوراء سنة الف ومائة وستين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى جميع المرسلين ، والملائكة والصالحين وعلينا معهم اجمعين » «122» .

يتبع

الرباط ـ عبد القادر النكادي

«121» انظر ترجمته في الرحلة ص 255–256

«122» عن الكناش ص : 515–516 .





للأستاذ : المهدي البرجالي

البلاد الفتية بين التخلف والنمو ــ عملية الانماء المعقدة وملابساتها الاقتصادية والاجتماعية ــ عوامل الانماء وعوائقه على ضوء الاحوال السائدة في البلاد النامية ــ قضايا التخطيط والاطر والاستثمار : القاسم المشترك في ستراتيجيات العمل ضد التخلف .

توصف البلدان الواقعة في القارتين الاسيوية والافريقية ، مضافا اليها اقطار امريكا الجنوبية والوسطى ــ توصف هذه البلدان جميعها بانها متخلفة ، وناقصة التطور ، او انها نامية او في طريق النمو ، او انها فتية ، او حديثة عهد بالاستقلال ، الى غير ذلك من العبارات الاخذة في التكاثر ، كما يطلق على مجموع هذه الاقطار ، عبارة العالم الثالث او ثلث العالم كما يعبر الغربيون على اعتبار ان العالمين الاخرين، هما: العالم الاشتراكي ، والعالم الرأسمالي ، وهذه الاوصاف ليست سواء من حيث ما لها من دقة في التعبير ، والتصوير فنعت هذه الاقطار بانها متخلفة او ناقصة التطور ، يعبر عن واقع حال موجود ، ولكن نسبة التخلف في هذه الاقطار تختلف فيما بينها اختلافا بينا ، بحيث ان اللفظة هنا تعبر عن مجموعة احوال متشابهة ، ولكنها ليست متماثلة بالضبط ، واطلاق وصف « حديثة العهد بالاستقلال » على البلدان المتخلفة ، هو اطلاق تجوزي كذلك ، فليس من تلازم مطلق « اما النسبي فموجود » بين التخلف وحداثة العهد بالاستقلال ، فليبريا ــ مثلا ــ وهي من اقطار العالم الثالث ــ لا يمكن ان توصف بانها حديثة عهد بالاستقلال (تاسست عام 1822) وقل كذلك عن افغانستان وبعض اجزاء شبه جزيرة العرب وغيرها ، كما توجد من جانب اخر شبه اقطار ــ كتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والمجر وبولندا وسواها ، كانت الى عهد قريب (1918 في الغالب) فاقدة الاستقلال او كانت عبارة عن كيان قومي مبعثر سياسيا وجغرافيا وقانونيا ، وتوجد الان من بين الاقطار المعتبرة متقدمة ، وربما عالية التقدم ، اما وصف النمو ، او نقص التطور ، الذي يطلق على مجموعة الاقطار المتخلفة ، فهو اقل دقة في التعبير من جميع العبارات الاخرى المستعملة ، فالنمو لفظة او عبارة غير محددة ، تطلق على كل درجات النضج والتكامل ، ابتداء من نقطة الصفر ، وغير خاف ان المجتمعات التي تعرف بالنامية ، منها ما ينطبق عليه هذا الوصف بمدلوله الحرفي بمعنى ان هذه المجتمعات هي حديثة عهد بالوجود ، من حيث النظر اليها ككيانات سياسية قائمة الذات ، ومن ثم فان هذه المجتمعات يمكن اعتبارها ناشئة كما ينشأ اي وليد حديث عهد بالحياة (والمثال : دول امريكا الجنوبية والوسطى)

غير ان اغلبية اقطار العالم الثالث ، الموصوفة بالنامية لا ينصرف اليها هذا المعنى البدائي عند اطلاق وصف النمو عليها ، وانما يوتى بمثل هذا الوصف

للدلالة على قصور هذه الشعوب في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وسعيها الى تحقيق تقدم تدريجي بهذا الشان ينقلها من حال الى حال احسن شان اي مخلوق في حركته التطورية التي لا بد ان تدفعه الى النمو والترعرع حيث تصل به في الحالة العادية اخيرا الى طور الاعتماد النسبي على نفسه ، وعدم الاحتياج الدائم الى غيره . ان اقطار الشرق الاوسط العربية وغيرها تعد من اعرق الاقطار في التاريخ ، فكياناتها كيانات اصيلة وعتيقة ، وهي بهذا الاعتبار ، اقطار قديمة بل ومسنة ، ان جاز هذا التعبير ، ولكنها في نفس الوقت لا بد ان تعتبر اقطارا نامية او فتية او جديدة اذا نظرنا اليها من زاوية العصر الحديث . ومن خلال منظور الحضارة الراهنة ، فحينئذ نجد انها ذات قدر ضئيل ، كما له جسم اي مخلوق في دور نموه الاول ، بالقياس لغيرها من الدول المتقدمة ، ذات المواد الضخمة ، والانتاج الوفير ، والاستهلاك المتنوع ، والسعة في الحيلة والعدة ، فالاقطار المتخلفة – تبدو من هذه الناحية – في مظهر مخلوق ناشيء لا زال في طريق النمو لم تكتمل له بعد اسباب القوة والفاعلية التي تمكنه من ان يقف على قدميه دون مساند ويسير في درب الحياة العصرية المعقدة ، قادرا على توفير حاجياته لنفسه ، بل ومستطيع ارضاء حاجيات غيره ذلك فرق كبير بين الذين لا يزالون في بداية النمو ، او في الطريق الى النمو ، وبين الذين استكملوا اسباب النمو والنضج ، وان كان النمو والنضج ليس لهما حد مطلق ، يتوقفان عنده

والتشديد على هذا الفارق موجبه واحد في نظر كل من يعالج هذا الموضوع من باحثين ومؤولين ، والموجب هذا هو التخلف ، لكن العبارات التي توصف بها البلدان الافريقية الاسيوية الامريكية حسب هذا الموجب ، هي – كما راينا – ذات تعدد ملحوظ ، واظن ان اطلاق وصف النمو على هذه الاقطار هو اطلاق مناسب جدا ، ويذكر بعض الكتاب الغربيين بهذا الشان ان صفة النمو هي اكثر ما تؤثره الشعوب المتخلفة من اوصاف تطلق عليها ، والامر في هذا المجال له جذور سيكولوجية لا تخفى ، لا سيما بالنسبة لشعوب هي ذات حساسية مرهفة جدا ، وايثار صفة النمو على غيرها ، كسمة للبلدان الافريقية الاسيوية ، يرجع الى ان حركية التحول المادي والانساني المعتبرة من قبيل النمو ، لم تعد تترك ظاهرة التخلف على انها السمة البارزة الوحيدة للعالم الثالث ، فالسمة الجديدة سمة النمو – وهي تعبر عن واقع ايجابي متحرك – تتداخل الان مع الصفة الاخرى ، صفة التخلف ، التي تعبر عن واقع سلبي جامد ، وديناميكية النمو ، يجب – بهذا الاعتبار – ان تكون اكثر لفتا للنظر من سلبية التخلف ، الذي هو حالة مالوفة من قبل بالنسبة لجميع اقطار اسيا وافريقيا ، منذ ان تخلفت هذه الاقطار عن ركب التقدم الذي لا يتخلف

على ان النمو بمعناه هذا لا يجب ان ينصرف بالضرورة للاقطار الاسيوية والافريقية والامريكية اللاتينية دون سواها ، فعدد من الاقطار في اوربا الشرقية – التي تعتبر – عموما – خارج العالم الثالث – يجب ان ينظر اليها على انها ايضا دول نامية – وان كان حظها من النمو والتطور ، لا بد ان نسبته اعلى مما هو عليه الامر في العالم الثالث

واذا جاز للمرء ان يقارن بين الاقطار ، على غرار ما يقارن به بين الاشخاص ، فيستبيح وصف بعض الاقطار باكتمال النمو ، كانها في دور الشباب الناضج ، او الكهولة ، بينما يصف بلدانا اخرى بانها لا تزال في طريقها الى النمو كانها في دور الفتوة الاولى او في دور اليفاعة – اذا جاز للمرء عقد مقارنة بهذا الشكل – فلا بد انه سيلاحظ ان الدول الصغيرة – وان كانت في دور الفتوة واليفع – بما يرافق هذا الدور من سذاجة وقلة خبرة ، وشدة احتياج الى الغير – فانها تتمتع ولا شك بما يتمتع به ذوو الفتوة من حيوية دافقة وطاقة متجددة وامكانيات عذراء لا يعرف لها الحد الذي تنتهي اليه ، ان هذا بالضبط هو راسمال الدول النامية اذا بحثت فيما لديها من راسمال ، تطمئن اليه ، فاراضيها لا تزال – على العموم – بكرا لم يستنزف من خاماتها الا قدر ضئيل جدا ، بالقياس لما تحويه هذه الاراضي من من احتياطيات شاسعة ، والطاقة البشرية في هذه الاقطار هائلة ، يضاعف من حجمها التضخم الديموغرافي المتزايد ، ونتيجة لهذا التضخم الاتي من تكاثر الولادات ، فان عنصر الشباب يكاد يكون العنصر الاغلب من بين سكان معظم الاقطار الفتية في العالم ، ولهذا

الاقطار حظوظ اخرى تتمثل فيما يوفره لها العصر الحاضر من امكانية الاستفادة من تجارب العالم الصناعي المتقدم ثم ما يمكن ان تزودها به التقنية الحديثة من وسائل ومناهج تمكنها من التطور وتحقيق التنمية الذاتية في وقت اسرع وبصورة اضمن ، ومن هذه الحظوظ ايضا ، ما يوجد من تناسب مفيد بين توقيت استقلال هذه الدول واضطلاعها بمسؤولية تطوير نفسها، وبين الجو الدولي والاوضاع العامة التي تسود عالمنا الحاضر فيما بعد الحرب ، فمن ذلك : 1) اتساع الوعي العالمي ضد التخلف بجميع اشكاله ومضاعفاته . 2) اقتناع الدول الكبرى بضرورة الاهتمام بحالة التخلف في العالم ، والمساهمة في القضاء عليه بالنظر الى ان استمراره ليس من شانه ان يساعد على خلق حالة استقرار وامن متبادل على الصعيد الدولي . 3) اكتساح الدول الصغيرة لمنظمة الامم المتحدة ، وما احدثه ذلك من تاثير في توجيه اهتمامات المنظمة الاممية ، وجعلها اداة تنمية اقتصادية واجتماعية في العالم ، بقدر ما هي منظمة سياسية وقانونية كذلك ، هذه الظروف العالمية الملائمة هي ـ بدون شك ـ من الحظوظ المتوفرة للدول النامية في سعيها للخروج من ربقة التخلف ، وهذه الحظوظ ليست ذات طبيعة معجزية اي انها ليست من نوع الحظ الذي ياتي صدفة ويحدث اثره السعيد على غير انتظار ، وبدون مقابل من جهد او غيره، وانما يتعلق الامر هنا بظروف مواتية ، يمكن استغلالها اذا كانت هناك معرفة بطرق هذا الاستغلال ، وتوافر للشعوب النامية القدر الكافي من روح المصابرة والمجالدة لتستطيع النفوذ من ذلك الى ما تبتغيه من تصفية التخلف، واماطة الصدأ الذي يكسو حياتها بسببه وبتاثير مضاعفاته

* * *

الانماء الذي تسير في سبيله الدول الفتية ، وياخذ من اهتماماتها ونشاطاتها القدر الاوفر ـ هو ثمرة عمليات جد معقدة ،اخذ بعضها باطراف بعض تتدخل في طريقة استغلال الموارد الطبيعية والبشرية عند المجتمع وترمي الى رفع مستوى الدخل القومي عن طريق رفع كمية الانتاج وتحسين انواعه ، وتعديد الوانه ، وافتتاح وفاق وسبل غير محدودة له ، كما ترمي عمليات الانماء كذلك الى تحسين الاحوال الاجتماعية والفكرية للسكان ، وترويضهم على حياة منتجة ، ومنظمة ومعقولة، وذات افق اوسع ، ويقتضي كل هذا ادخال الاساليب العلمية ما امكن في تنظيم حياة المجتمع وتنمية انتاجه واقامة المؤسسات والنظم والتقنيات المحكمة التي تضمن سير العمليات من هذا النوع وضبطها والسيطرة عليها ضمن خط مرسوم ، ومعلوم الابعاد مقدما

عملية التنمية تشمل بمفعولها هذا مجالات لا حصر لها في حياة الجماعة التي هي موضوع هذه التنمية ، لكن يمكن حصر كل هذه المجالات في نطاقين ، يعد كل منهما محورا يستقطب ما عداه ، والنطاقان هذان هما : النطاق الاقتصادي والنطاق الاجتماعي ، وهما من التداخل بينهما والتفاعل بقدر كبير، فالتطور الاجتماعي من شانه ان يؤدي الى خلق رواج اقتصادي يمكن ان يتطور الى نهضة اقتصادية شاملة ، والعكس صحيح ايضا ، فالنهوض الاقتصادي ـ بما يفتحه من منافذ للعمل والنشاط ، وما يخلقه من مطامح اجتماعية عند الافراد ، وما يساعد عليه من امكانيات التوسع في مختلف الميادين من شانه ان يحرك في المجتمع تيارات تطور متعددة ، ويدفعه الى نوع من التحول النوعي في طراز حياته الاجتماعية والثقافية وغيرها ، وغير خاف ان الدول النامية تعاني في مجموعها من تداخل هذين النطاقين في بعضهما البعض فبقدر ما يجثم عليها التخلف الاقتصادي بكلكله، بقدر ما يزيد ذلك من حدة التخلف الاجتماعي الذي تتورط فيه الى قمة الراس ، ومن تداخل هذين العاملين : عامل التخلف الاقتصادي وعامل التخلف الاجتماعي تنشأ حالة التخلف العام التي تدمغ صورة الحياة في شتى اقطار العالم الثالث ، والاقطار النامية تدرك على نحو او غيره ، التعقيد الشديد الناجم عن هذا التداخل بين عوامل التخلف ، ولهذا تجد هذه الاقطار في معظم الحالات تتخذ من العمل على التطوير الاجتماعي وسيلة جوهرية من الوسائل التي تعتمدها في تحقيق النهوض الاقتصادي بالبلد فنجدها ـ مثلا ـ تعمل على توطين البدو الرحل وتعمير القرى الخالية، ومراقبة النسل ، ورعاية الطفولة ، ومعالجة الجانحين ، ونشر الطب الوقائي ، ومقاومة الحشرات ، ومحاربة العادات الضارة ـ هذا في نفس الوقت الذي تعنى فيه باستنبات الصحاري وتوليد الطاقة ، واستخراج المعادن

والفلزات وانشاء الخزانات وتنظيم الابحاث الصناعية وتجفيف المستنقعات وحفر القنوات وتجهيز الموانيء وتحسين احوال الماشية ، ومنع انجراف التربة الزراعية وغير ذلك ويتطلب الامر في هذا المقام مهارة فائقة لمراعاة الجانب الايجابي في هذا التداخل ، واستغلاله بقدر ما يمكن ذلك انه اذا كان التداخل هكذا متينا بين عوامل التخلف والاقتصادي والاجتماعي ، وعوامل النهوض الاقتصادي والاجتماعي كذلك ، فان الحال يقتضي كذلك ، مراعاة النسب الدقيقة في هذا التداخل وبناء مخططات التنمية على نحو يستخرج من كل مبادرة اجتماعية ، اقصى ما يمكن ان تنطوي عليه من تاثير اقتصادي والعكس بالعكس ، وهذه النظرية تتفق في روحها مع خطوط التفكير الانسائي الحديث فالفعاليات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، عند الدول المتقدمة ، تتضافر تضافرا دقيقا لتوءدي كل منها دورها في ازدهار الاخرى وربط شبكة التقدم هكذا ، برباط شامل ومتماسك فالعملية التثقيفية - مثلا - فضلا عن اثارها الاجتماعية الواضحة - فهي تعد - على حسب هذا النمط من التفكير - عملية اقتصادية كذلك ، ذلك ان العملية هذه - اذ تهدف الى بناء عقليات ذات مهارة منتجة ، فهي تساهم - بهذا - في البناء الاقتصادي ، نظرا لما تستطيع المهارات المكتسبة من وراء التعليم ان توءديه من دور في الانتاج الاقتصادي ، ويتمثل ذلك فيما يقوم به المكتسبون للمهارة من التخطيط لهذا الانتاج ، او تنظيمه او تصريفه او الابتكار فيه على صورة تضمن مزيدا من الجودة ومضاعفة الكمية ، عن طريق اختزال الزمان او النفقات ، وعملية اجتماعية مثلا ، كعملية توظيف البدو الرحل ، لا بد ان ترمي - هي كذلك - الى اغراض اقتصادية الى جانب الاغراض الاجتماعية المتوخاة منها ، فهذه العملية اذا كانت تنطوي - من جانبها الاجتماعي - على تعين مستقرات ثابتة للبدو وربما توفير مرافق تعميرية لهم ، وتطبيق النظام المدني عليهم ، في التعليم والصحة ، والتعامل والضرائب والاحصاء وغير ذلك ، فان كل هذا لا بد ان ترافقه عمليات اقتصادية موازية ، كانشاء مراع قارة ، وتاسيس بعض الصناعات الزراعية او توسع استغلالات معدنية محلية او اقامة بعض الخدمات العمومية كمد طرق او تعبيد مسالك ، او حفر سواق او تشجير بيداء او غير ذلك وعلى العكس من هذا ، فان اية عملية اقتصادية لا بد ان تكون لها في الحياة الاجتماعية اثار بعيدة الغور ، فقيام صناعات محلية - مثلا - يحدث - في العادة - سلسلة من التحولات الاجتماعية لا بد من مراعاتها والاعداد لها في صلب كل تخطيط من هذا القبيل ، ومن هذه المضاعفات الاجتماعية الناشئة عن التوسع الصناعي : هجرة بعض سكان الارياف الى المدن - تضخم الحجم السكاني في المدن الكبيرة - حدوث تحولات مهمة في الافكار والعادات والقيم الثانوية - تكاثر الحاجيات الاجتماعية المستوحاة من حياة المدن - احتمال حدوث نقص احيانا في اليد العملة الزراعية والمربية للمواشي - الى غير ذلك .

ان تداخل القطاعين الاجتماعي والاقتصادي هكذا، يفرض - كما تقدم - التسلح بقدر كبير من المهارة والحكمة في وضع مخططات الانماء الحديثة ، لكن الدول النامية - وان كان لا ينقصها - في كثير من الاحيان - الادراك الكافي لهذه المقتضيات فان الوسائل لمواجهة المشاكل الناشئة عن ذلك والتغلب عليها تعوزها الى حد ما ، وهي بصدد البحث عنها وتوفيرها ، وهذا جانب كبير من جوانب معركة التخلف ، التي يخوضها العالم الثالث ، اما معضلة نقص الوسائل هذه ، فمن اهم مظاهرها : 1) الحاجة الى التخطيط الدقيق الشامل 2) الحاجة الى الاطر المفكرة والمنفذة 3) نقص الاستثمارات 4) ما يحيط بالمساعدة الدولية في الميدان المالي والتقني من ظروف متقلبة 5) التخلف الفكري عند الاهالي وصعوبة ترويضهم على محاربة ما هم عليه من نقص التطور

اما حاجة الدول النامية الى التخطيط ، فلا يعني ان البناء الاقتصادي في هذه الدول ، يتم الان بدون تخطيط او ما في معناه ، فسياسة الانماء عند عدد من هذه الدول تخضع - في مجملها - لروح تخطيط وتهييج عام ، تندرج في صلبه سلسلة من المخططات محددة الاجال ، اخذ بعضها بعض ، لكن التخطيط للانماء في بيئة متخلفة ينطوي في الغالب - على عدة مصاعب لا يلاقيها المسئولون عن التخطيط في الدول المتقدمة ، فسواء بالنسبة للمتخلفين او المتقدمين يقوم التخطيط على جملة بحوث ودراسات متعمقة تستبطن اوجه الانتاج

والاستهلاك في المجتمع ، والامكانيات والعوامل والقوى والارتباطات التي لها صلة بالامر ، مع الاعتماد في ذلك على الاحصائيات والتقديرات الدقيقة وتحديد المشاكل المحتملة ، والموارد والنفقات الممكنة لكن كل هذا كثيرا ما يتم بدقة ، ويستنفذ اغراضه بدقة اكثر داخل المجتمعات المتقدمة التي اعتادت على التخطيط طويلا ، واصبحت الحياة العامة فيها مطواعة له كانها تسير في نطاقه على حساب معلوم ، اما الامر في البيئات المتاخرة فيختلف ، فالموارد فيها ـ وان سهلت على الحصر والاستقصاء ـ فان الحاجيات في مثل هذه البيئات لا يكاد يوجد لها في بعض الاحيان ، ضابط صارم ويرجع ذلك الى عدة عوامل في طليعتها عامل التزايد السكاني الذي يتجاوز كثيرا من المخططات الموضوعية بدقة ولا يكاد يبقي على ما تحققه من تقدم وانماء ثم ان الاحصائيات المجراة تكتسي صبغة تقريبية في بعض الاحيان ، فلا تساعد على تقدير الامور بالدقة المتطلبة ، وتعتمد اكثرية الدول النامية في تقدير مواردها على ما تصدره من خامات وهذا باب من الموارد وان كان ذا قيمة عالية ليس قارا في مستواه ، اذ ان تصدير الخامات والاثمان المعطاة فيها تخضع لنزوات الاسواق العالمية ، والحالة المتقلبة للعرض والطلب ، اما السوق الداخلية فيعتمد الرواج فيها احيانا على بعض الاحوال المتقلبة كجودة المحصول الفلاحي ، او رداءته الامر الذي يجعل مهمة التخطيطفي الاقطار النامية محفوفةبكثير من الاحتمالات ويتطلب ـ بسبب ذلك ـ مهارة اكثر من فائقة ، في وضع المخططات وذلك بصورة تضمن تلافي الاحتمالات السلبية والطوارىء والنوازل الاعتباطية والاغلاط المرتكبة اكثر ما يمكن على، ان ثمة عقبة اجل من كل ما سبق وتعاني منها اكثرية البلاد النامية في تنفيذ خططها لمحاربة التخلف ، انها نقص الاطارات وهي الظاهرة التي تكاد تكون عامة في مجموع اقطار العالم الثالث .

والنقص الموجود بهذا الشان ، هو نقص كمي وكيفي في نفس الوقت ، الا ان اخطر انواع النقص هذا هو النقص الكيفي لانه هو الذي يحول دون ضمان الفعالية الانتاجية اللازمة ويسبب في نفس الوقت ، نزيفا هائلا في مجال النفقات من الممكن تلافيه لو تتوافر الاطر ذات الكفاية العالية التي من شانها ان تومن كثيرا من التوفير في الوقت والجهود والنفقات . والاطر المسيرة لعمليات الانماء الاقتصادي لها في العادة مهمتان متداخلتان ، مهمة التخطيط للمشروعات، وتعيين ابعادها وسبلها ووسائلها ، والنتائج المنتظرة منها ودرجة تاثيرها في مجموع السياسة المتبعة في مجال الانماء ، ثم مهمة السهر على التنفيذ تنفيذ المخطط الموضوع ، وتسييره الى الهدف العملي المتوخى من وضعه ، وليس من الضروري دائما ان تنقسم الاطر بذلك الى قسمين : مفكرين ومنفذين،فقد يحدث كثيرا ان تتفادى حالة الانفصال هذه بين الاطر ولهذا تجد ان الخبراء والمهندسين المختصين كثيرا ما يتولون وضع الخطط للمشروعات ويسهرون على تنفيذها في عين المكان الامر الذي يوفر قدرا كبيرا من الانسجام والفعالية في التدبير والانجاز، لكن العقبة القائمة في هذا المجال بالنسبة للدول النامية هي ان المختصين القلائل الموجودين عندها قد تكون الكفاءة المتوفرة لديهم ذات قيمة نظرية اكثر مما هي عملية وليس ذلك بمستغرب اطلاقا بالكفاية العالية ، الجامعة بين الروح النظرية والعملية لا تتوافر غالبا ، الا في بيئة عقلية تسودها مثل هذه الروح حيث تتضافر المدرسة والجامعة والبيت وغير هذه المواطن ، على التاثير على الشخص وتكييف شخصيته ومهاراته على هذا الاساس ، اما في الاقطار النامية فقد الف الناس فيها قديما ان اصحاب النظريات لا يعملون وارباب العمل لا يبدعون وانما هم مقلدون وروتينيون ، ومن ثم فان الثورة العقلية التي تتطلبها عملية الانماء في البلدان النامية هي العمل على تحقيق هذا التزاوج الحيوي بين القيم العملية والنظرية عند المثقفين ، وتلك هي القاعدة التي تكفل تخرج عدد اكبر من الخبراء المحليين ذوي الكفاية لعالية والمهنيين المختصين علميا ، لا عن طريق المعرفة والممارسة البسيطة ، هؤلاء الذين تتطلبهم ـ بالحاح ـ الحاجة الشديدة الى الاطر المسيرة لعمليات الانماء في العالم الثالث والتزاوج هذا يتحقق ـ عمليا ـ عن طريق ربط العملية التثقيفية في المدرسة بمتطلبات الحياة العصرية المعقدة ووصل التعليم الجامعي ـ كلما امكن ـ بحياة المصانع والاوراش والمختبرات والحقول والمناجم وغيرها من مصادر الانتاج سواء على مستوى القطاع العام او القطاع الخاص ايضا، وقبل ذلك وبعده: تطوير القيم الخاطئة ، التي تسود افكار الناس حول دور المتعلم في المجتمع

ان الحظ الذي يحالف الشعوب النامية اليوم في سعيها نحو التطور الجذري مناطه ـ كما قدمنا ـ هو هذه التيكنولوجيا التي تستطيع ـ بقدر وافر ـ ان تختـــزل ابعاد الزمان والمكـان وتختصر الجهـود والنفقات الموصلة الى غاية انمائية ما ، فالتقنية بهذا المعنى هي وسيلة ذات صلاحية عامة شاملة فهي تدخل في كل باب من ابواب التطور عند مجتمع ما وتتناول جوانب حياته المادية والانسانية والتقنية لا يراد بها المظهر الالي لها فقط ، بل المعنى الذي يحوي شتى معطيات العصر في التنظيم والتصرف وممارسة الحياة ، وما الاليـــات والتخطيطات وغيرها ، الا ادوات ووسائل لذلك ، ومن ثم يبقى العقل المدبر (الاطر) هو المحور في جميع هذه الحالات ، وهذا العقل المدبر ـ هو المحور الذي يستطيع ان يقتحم تعقيدات الحياة التقنية ويتصرف فيها دون تهيب او وجل ، ويستخلص منها اقصى ما يمكن استخلاصـه من منافـع ويبنـى على ما هو معروف منها لابتـــداع تركيبـــات جديــدة ، غيـر معروفـة ، وواضح ان عقلية على هذا الغرار ، هي عقدة العقد في كل حالة تقدم تقنـي على مستوى سرعة العصـر الذي نعيشـــه

ان البيئة العقلية التي تكون اطارات تقنيـة ذات كفاية عالية ـ هذه البيئة ليست بذات بساطة في التركيب بحيث تقوم على ازدهار فرع واحد من العلوم او عدة فروع محدودة ، لما ذا ؟ لان التقنية ليست مجرد الهام عفوي ـ وان كان الالهام يلعـب دوره في كل شـيء ـ وليـت فرعا معينـا من فروع المعرفـة او الـذوق او الوجدان كالعلوم المنقولة مثلا ـ وانما التقنيـة ـ اذا قسناها بمقياسها الكامل ـ فنجدها ثمرة كل ما يصيبـه المجتمع من تعمق في العلم والمعرفة ، وتطور في العقلية والتفكير ، وحذق في الممارسة والاختيار ، والمعية في الفهم والادراك ومهارة في العمل والانجاز ، فالتقنية قبل ان تكون تركيبا وانجازا ، هي عقلية ونظام فكري في الدرجة الاولى ، وهذه العقلية لا تكامل وتتسق الا بعد بلوغ التوسع العلمي والفكري مدى بعيدا جـدا ، وكما تقدم فالمدرسة والجامعة والمصانع والمختبرات والاوراش على مستوى القطاع العام او الخاص تدخل كلها ـ في العادة ـ لخلق عقلية تقنية على هذه الوتيرة

اذ ان هذه العوامل جميعا يكمل بعضها بعضا ، ويتضافر بعضها مع بعض ، وبتكاملها وتضافرها يمكن خلق عقلية تقنية في المجتمع تكون كمورد لا ينضب لتخريج الخبراء وتكوين الاطارات المخططة والمنفذة ، هذه الاطـر التي تساعد المجتمع على حل مشاكله عن طريق العلم والتقنية وضمان الحصول على مزيد من التقدم والتوسع . وهذا من بين الفرق المهمة بين الاقطار عالية التقدم ، والاقطار المتخلفة ، لاحظ مثلا ان هذه الاخيرة الاقطار المتخلفة كلها تقريبا تنتفع بثمرات الانجاز التقنـــي الاتية من اوربا وامريكـا ، كما تحتـذي في معالجـة شوؤنها وسائل تقنية معينة في مجال التخطيط والانتاج والتوسع لكن هل يمكن ان يقال ـ لذلك ـ ان هــذه الدول دول تقنية ؟ وهل يمكن ان يدعـي ان استعمـال الوسائل التقنية فيها قد كون لديها الخميرة العقليـــة الكافية التي تجعلها قادرة على خلق تقاليد تقنية اصيلة تنطلق منها انطلاقا رائدا في معالجة قضاياها الماديـــة والانسانية المختلفة ؟

لا شك ان مجرد الاقتباس السطحي من التقنيات المعاصرة ، لن ييسر للاقطـار النامية ، السبيـل الذي تبتغيه نحو حياة تقنية غنية واصلة ، الا اذا كان الاقتباس مجرد مرحلة اولى ، نحو مرحل هذا المجال اغنـــى واخصب ، وما ل كل ذلك ـ كما تقدم ـ يتوقف ـ في اســاس جوهري ـ على نشـوء وتطور البيئـة العقليـة الصالحة للازدهار التقني هذه البيئـة التـي تضمن توافر الاطارات الحيوية المسيـرة لعملية التقدم الضخمة في العالم الثالث

النقطة الثالثة التي تعرض في جملـة ما يعـرض للمراقب من نقائص وعقبات تعتور عملية الانماء بالبلاد الفتية هـذه النقطة ، تتمثل في نقص الاستثمـارات بما تسعه هذه الكلمة من مدلول واسع ، وانخفاض نسبـة الاستثمارات ببلدان العالم الثالث يسير سيرا طرديا مع استفحال التخلف وعواقبه بهـذه البلدان من الشـرق الاقصى الى جنـوب نصف الكـرة الغربـي (امريكـا الجنوبيـة والوسطـى) فحالـة التخلـف الاقتصادي والاجتماعي والعقلي لا يعقل ان توءدي الى بعث ديناميـة اقتصاديـة على نحـو سليم ومنتـج بحسـب المقاييس العصرية ، فكيف تساعد حالة الركود الاقتصادي هذه على ايجاد الاستثمارات الكافية، وخلق البيئة الاقتصادية المستحثة

لهـا على النشـاط ؟ ومن الجانـب الاخـر فان ضعف الاستثمار وضالة التوظيفات المالية من شانه ان يصيب مختلف القطاعات الاقتصادية بالركود فتنعكس اثار ذلك على الحياة الاقتصادية العامة ولا شـك ان المضاعفـات الاجتماعية الناشئة عن مثل هذا الامر ، مما لا يخفى على ذي بصيرة ، ان مسالة الاستثمار ـ كمسالة الاطر ـ من بين قضايا التخلف ، الاكثر حدة وخطر شان ، فهـي تربط بحالة النمو او التخلف ارتباطا صميميا كارتباط الظل بالجسم الذي يحدثه وتتصل بالحالة التي عليها التطور الاقتصادي واكثر منه التطور العقلي في حظيرة المجتمع ان قيمة مال في عالم متخلف هي نفس قيمـة مال مساو له في عالم متقدم ، لكن نفس القدر من المال يكتسب من المجتمع المتقدم ، ديناميته وخصوبته وفعاليته فيصبح بذلك قوة دينامية خصبة فعالة ، اما القدر المساوي له في العالم المتخلف فيصاب بما هو مصاب به هذا العالم، من عاهات ركود و « استنقاع » مزمنة فاذا به كذلك على ذات الدرجة من الركود و «الاستنقاع» ومثل هذه الحالة تؤدي في الغالب الى ما يلي :

1) ضالة حظوظ اي توسع اقتصادي طموح

2) تجمد التجارة الداخلية والخارجية في حدود ضيقة ، والنتيجة المحتملة لذلك هـي ان الفارق يبقـى قائما بين حجـم التوظيفات الماليـة الضئيلـة ، وبين المخططـات الموضوعـة ، ما بقي التخلف قائمـا في صورته المزمنة :

ويقودنا النظر في هذه النقطة الى النقطة الاخرى المشار اليهـا من قبل ، وهـي المتمثلـة « فيمـا يحيط بالمساعدة الدولية للاقطار النامية من ظروف متقلبة » .

ان من اللامنطقية ان تطالب الدول النامية بايجاد الطاقة المالية الكافية لتمويـل مشاريعها ومخططاتهـا الانمائيـة المختلفـة لماذا ؟ لسبـب بسيـط وهـو ان اقتصاديات هذه الدول قد احتكت اول ما احتكت بالتنظيم الاقتصادي والعصري في ظل التبعية للاستعمار التقليدي، وانفصالاتها عن هذه التبعية حديثة العهد فلا يتاتى لهـا دائمـا ـ والحالة هذه ـ ان تتوفر لها الدواعي الفكرية والاقتصادية التي تجعـل نشـوء الاستثمارات الكبيـرة والمتنوعة فيها امرا سهلا ، وقد ادرك الملأ الدولي هذه الحقيقة ، غداة قيام الاستقلالات الحديثة في اسيا وافريقيا، فكان من ذلك نظام المساعدة الدولية كما نعرفها اليوم وهي تنقسم الى قسمين : المساعدة التـي تقدمها دولـة لاخرى ضمن اطار ثنائي بينهما ، ثم المساعـدة العامـة التي تشرف عليها الامـم المتحـدة بواسطة منظماتهـا المختصة للصحة والتغذية والثقافة والعمـل وغيرها .

وتقوم المساعدة الدولية في عمومها على منـح قروض وتسهيلات ماليـة ، وارسال خبـراء واستقبـال بعثـات للتدريب الى غير ذلك ، والواقع ان ما تقدمـه الدول الكبرى بهذا الشان (خارج اطار الامم المتحدة) لـه اهمية لا تنكر ، وفي احدث تقرير نشرته الامم المتحدة بهذا الشان ذكر ان حجم المساعدة التي قدمتها الدول الغربية خلال سنة 1964 يبلغ نحو 200 مليار و 800 مليون جنيه استرلينيّ ، وان المساعدات الروسية والشيوعيـة عموما ، قد وصلت الى نحو 80 مليون جنيه استرلينـي ، هذا فضلا عما استفادته الاقطار النامية من نشاط بعض الهيئات المالية الغربية ، وقد بلغ مجمل ما دره هـذا النشاط 27 في المائـة من حجـم المساعـدة الغربيـة الاجمالية للعالم الثالـث . الا ان المساعـدة الدوليـة الخاصة من هذا النوع تصبـح ـ في بعض الاحيـان ـ عرضة للتاثر بالظروف الدولية المتقلبة ، التي لا تعرف الاستقرار ، ومن عوامل التقلب هذه : نشوء خلاف ما بين الدولة المقدمة للمساعدة ، والدولة المتلقية للمساعدة، اما حول شروط المساعدة نفسها ، واما حول المقابـل المطلوب من ورائها ، واما لاعتقاد الدولة المعينـة ان مصالحها في اراضي الدولة المعانة قد تعرضت لسوء ما في شكل تاميم او تقنين استفادة ، او تحديد اجل تصفية او وضع شروط جديدة لاستمـرار هذه المصالح ، او غيـر ذلك من النوازل التي من هذا المعنى وقد يكون مـرد الخـلاف سياسيا فقط ولكن اثاره تنعكـس على ميدان التعامل في المواضيع الاقتصادية وغيرها. وربما لا يوجد في بعض الاحيان ـ سبب من الاسباب سالفة الذكر يدعو الى نشوء خلاف بيد ان الدولة المعينة قد تصاب هـي نفسها بضائقة اقتصادية او تحدث لها مصاعب سياسيـة داخلية او ترتبط بعلاقات اقتصادية او سياسية جديدة ، تتناقض مع استمرار تقديمها الاعانة للدول التي كانت تقدم اليها الاعانة فيكون كل ذلك او بعضه ، داعيـا للدولة المعينة كي تعدل من حجم المساعـدة التـي تقدمها او تعدل عن تقديـم هذه المساعـدة بالمـرة .

وطبيعي ان السياسة هي غير الاقتصاد فبقدر ما تقبل الحياة السياسية نتائج التقلبات المتلاحقة بقدر ما يفتقر الاقتصاد الى عامل الاستقرار ، والاستمرار ، والتناسق ، ولهذا فقد بدا الراي العام العالمي يميل اكثر فاكثر الى اشراك الامم المتحدة اشراكا اوسع في تنسيق سياسة المساعدة الدولية للعالم المتخلف ، على اعتبار ان هذه المنظمة تقوم بمثابة نقطة التقاء تتجمع فيها التناقضات بين مصالح الامم،فتعمل على تلطيف حدة هذه التناقضات كلما امكن،وازدياد تدخل الامم المتحدة هكذا في موضوع المساعدة الدولية ، يضمن الحصول على كثير من المزايا بهذا الصدد ، ومنها :

1) التقليل من اثار التقلبات المفاجئة على حالة المساعدة الدولية

2) ممارسة ضغط جماعي على الدول الغنية كي تقبل تحمل المزيد من المسؤوليات في مضمار تقديم المساعدة الى العالم المتخلف .

3) من سياسة متناسقة لتقديم المساعدة والاستفادة منها ، وذلك في اطار شامل ينظر فيه الى مشاكل العالم المتخلف كوحدة منسجمة يمكن مواجهتها ضمن خطة متناسقة الاهداف ، متكاملة النتائج

وقد اقترحت الامم المتحدة ـ بهذا الشان ـ اقامة نظام استعلامات دولي يتولى توزيع العروض والطلبات حول الاستثمار المالية على من يعنيها امر ذلك من الدول، وتنظر الامم المتحدة الى عام 1970 باهتمام لان برنامج التطوير العالمي الذي تبناه المنتظم العام في جلسته السادسة عشرة يهدف الى زيادة الدخل الاجمالي للدول النامية بمعدل خمسة في المائة لكل سنة* الى ذلك التاريخ ، غير ان الوسائل المالية لتحقيق تطور عالمي من هذا القبيل لا يبدو انها مضمونة بصورة كافية ، لان تامين هذه الوسائل يتوقف على العمل بالمبدأ القاضي بان تخصص الدول الغنية جزءا يساوي 1 % من مدخولها القومي لعمليات الانماء في العالم الثالث ولا شك ان المضاعفات الخطيرة التي تخلقها حالة التخلف على مستوى العالم من شانها ان تدفع الامم المتحدة لمضاعفة مساعيها في هذا السبيل على انه ـ ولو فرضنا ان جميع الوسائل والاسباب قد تهيات لتحقيق برنامج تطور عالمي واسع على هذه الصورة فسيبقى هناك ـ كما ذكرنا في النقطة الخامسة من استعراض عوائق الانماء ـ ستبقى هناك ضرورة حيوية للتدخل في الحالة العقلية للسكان ومحاولة تكييف هذه العقلية تكييفا يتفق مع اهداف الانماء وما يفرضه من تبعات لا حد لها ، وقد نتوسع في تحليل هذه النقطة ـ لاهميتها ـ ضمن مقال مقبل بحول اللـــه

ســـلا : الهـــدي البرجالـــي

قصة العدد

جيل الظما



للعميد محمد عزيز الحبابي

« جيل الظما » رواية مغربية مجتمعية طويلة ذات عشرين فصلا ، ستصدر فى لبنان قريبا عن المطبعة العصرية ببيروت للعميد محمد عزيز الحبابي .

والفصل الاول من هذه القصة يدور حواره بين الشاب ادريس الذي ينعم بمؤهلات ومواهب ، وقد رجع الى المغرب ، ويعيش فى دنيا من الحيرة والارتباك والغموض لا يجد سبيلا الى الاختيار .. وبين فاطمة ذات الحركات التي تعكس تصرفها الطليق من كل قيد ، المنبثق من غنج وحيوية وانفلات ..

جاء فى الفصل الاول من كلام ادريس :

« لكن ، مما يبعث على الفرح ، اننا نجد جمهرة من المثقفين الحقيقيين يستمدون قواهم وعزمهم من ثقتهم بالمستقبل ، يريدونه زاهي الجوانب صافي الافاق . هكذا ينقسم المثقفون الى فئتين ، الذين يبحثون فى الثقافة عن قبس العمل المجدي ، وعن التقدم المثمر ، ثم الذين يبحثون فى الثقافة عن طلاء يخفون وراءه نقصانهم .. ان صاحب الثقافة الحق ، خصم عنيد للدجالين والمشعوذين . فلكل شيء مقياس ومستوى : هناك الثقافة التي تبلغ مستوى الانسانية ، وهناك الثقافة التي تبقى عند مستوى الافراد لا غير .. »

– المجلة –

وجدت فاطمة ، وراء الباب ، شابا فى مقتبل العمر وشيخا ذا وجه متغضن نحيل ، احتلت ثلثيه لحية مترسلة بيضاء ، يلبس جلابة لفت جسده من الراس حتى آخر القدمين ، وغطت راسه عمامة اختفى تحتها قسم من جبينه البارز العريض . كان الشيخ يحمل على ظهره كيسا صغيرا .

لقد جند نفسه بشغف عظيم للاخلاص الى مهنته ، منذ صباه ، واستقام له الامر فاصبح منذ بلغ عامه الخمسين سيد نفسه ورب العمل المستأجر . هو الآن فى عامه السبعين . وهل معنى ذلك انه فى اوج العمر ؟ يقينا لا . الم يسمح الله لنوح بان يعيش مات ومات من السنين ؟ فالله قدير على كل شيء ، ولا حول ولا قوة الا بالله سبحانه وتعالى . اذن ، اصبح « معلما » فى سن موافقة ، ولكن حذقه ومهارته يبعثان على الدهشة . ففي (الرباط) كلها ، وحتى فى (سلا) يلهج الناس كلهم باسمه ويتحدثون عن مهارته . أجل انه منجد أصيل . وراء الجلابة القطنية يخفق قلب « معلم » جبار عظيم ، معلم من سلالة جدود صناع ، مهرة حاذقين . ففي مقدوره ان يسميهم واحدا واحدا . كان هؤلاء الاجداد الافذاذ يعملون فى قصر (فاس) الفخم ، عند أصحاب الجلالة ، رضي الله عنهم . آه على الماضي الجميل ! ..

ان شيخنا فخور بمحتده ، مدرك لما فى مهنته من نفع اكيد شامل ، اليس هو الذي يوفر الراحة لعظماء هذا العالم ولعيالهم ولشيوخهم ؟ كيف يستطيع الناس سبيلا الى النوم لو انه لا ينجد لهم الفراش ؟ وغني عن البيان انه لا ينجد الا الفراش الوثير المريح ! الفارق جلي ظاهر بين عمل وعمل ، وبين فن وفن . لقد استحدثت اشياء كثيرة .. ولكن الناس سرعان ما سيعودون الى الفراش القديمة ، بعد ان يظهر لهم ما فى « الرسورات » من اساءة الى صحة الجسم وراحته . واذا كان اجدادنا لم يستعملوا فراش « شركة سيمونز » فلانهم عرفوا كيف يميزون بين المتعب والمريح النافع والضار .

ما اجملها مهنة ، مهنة المنجد !.. لذلك يعمل الشيخ جهده ليجعل من ابنه منجدا حاذقا ماهرا ، وليصبح ابنه « معلما » نظير والده ، حال بلوغه فترة نضج العمر عندما تستقيم له الحكمة والدراية ، اي بعد مرور ثلاثين سنة ... ولابد من حدوث ذلك بعون الله القدير ومؤازرة اولياء الله ذوى الفضل والبركة ، ومن الاكيد ان يكون الناس قد ادركوا فى ذلك الوقت ، كل ما فى فراش « سيمونز » من خلل واعتوار واضرار .

❋

وبينما الشيخ يسبح فى تأملاته تلك ، كان ابنه الى جانبه ينظر فى صمت . شتان ما بين الولد ووالده من حيث النظر الى الاشياء والامور . اعتمد الابن نظما ومبادىء تتنافى مع كل ما اخذ باهتمام والده . ولكنه لن يزيح ثقل النير الابوي عن كاهله الا بعد أن يبلغ سن الرشد . انه الآن فى عامه العشرين . سيشق طريقه فى الحياة على ضوء واقع البيئة التي يعيش فيها . ثم اذا كان لا يقص شعر راسه ، نظير ما يفعله والده ، واستعاض عن الجلابة بالسربال فذلك ليبتعد عن التشبه بالقدامى ، أو بنصف القدامى مثل اخويه البكر والاوسط . وليقوي من مدى تحرره وتفوقه ، عمد الى وضع النظارتين السوداوين على عينيه ، والى تأبط المحفظة النظيفة اللماعة . وعندما كانت تتزاحم براسه هذه الافكار ارتفعت يسراه الى النظارتين تثبتهما وتنحدر عيناه الى المحفظة اللماعة بنظرة اعتزاز .

وتذهب به افكاره ، فيقول فى سره :

— كم يثيرني ان ارى والدي يحول جاهدا بيني وبين متابعة الدروس ليجعل مني منجدا .

ويلتفت نحو والده يرشقه بنظرة ملؤها الحنق والحسرة والالم ، ثم يضيف مخاطبا نفسه :

— لقد حصلت على شهادة الدروس الابتدائية ، لكي اهيء لي عيشا افضل ومركزا يتناغم ومكانتي كمثقف . ان القضية تتعلق بمستقبلي انا ، بحياتي انا ، بذاتي انا ! « ايوا » ! ..

ان الولد يجهل حافز والده نحو تقديس مهنته ، مهنة عديمة المستقبل قد مثل فيها منذ زمن بعيد . زد على ذلك ان الناس لا يحترمون اصحاب الحرف ، وان الحرف ..

— ثم ما الذي يمنع شهادة الدروس الابتدائية من ان تفسح لي المجال الرحب لاصبح موظفا يشار اليه بالبنان ؟ وما رايك اخيرا بالبزة الخضراء ؟ مفتش فى الامن العام ! ...

وتصور المنجد الغر الصغير ذاته يصدر الاوامر فيطاع . فراى جنديا ماثلا امامه يؤدي له التحية .

— ولماذا لا اصير قائدا او اعلى من قائد ، او بالاحرى احد الوزراء ؟ شرف ، مال ، سلطة ونفوذ ! ...

سيكون لي البيت الجميل المجاني ، ثم الطباخ ، والسيارة مع السائق . وما قولك بالضمانات ؟ والتعويضات المختلفة الكثيرة ؟ .. هيه ! ...

راح يتفحص الملفات فى مكتب وسيع مريح . وراى نفسه يتحكم بالهاتف كما يشاء ، وبالضغط على زر مكيف الهواء ، او ينادي الجنود والخدم .. ثم تنهد وقال فى نفسه :

— ذلك محال وصعب المنال ! .. فهل لمن يحمل مثلي شهادة الدروس الابتدائية حق فى رتب ووظائف ممتازة ؟ لقد قيل لي بان هذه الوظائف من حق الذين لا يحملون الشهادات ! ... على كل حال هي وظائف تستهويني جدا ، ومن المعهود عندنا ان الشهادات لا تطلب الا من ذوي الوظائف البسيطة والرتب الخفيضة. اما للحصول على الوظيفة العالية فالمحسوبية تكفي ...



شاب غني باحلامه !

احلام جميلة يتخطى فيها الحاضر ليرى ذاته رجلا ذا مسؤولية فى مستقبل مضيء جليل . ولكن ، هيهات !.. انه لا يفتأ « الولد » و « الصغير » فى عين والده ، والحدث الطائش غير المسؤول أمام المجتمع والقانون .

رغم ذلك ، قد يكفيه مرور سنتين حتى يقطع كل آصرة بينه وبين مهنة لا مستقبل لها . يريدون ارغامه على احترافها ، ليكون جبارا على كل ما تواطأت عليه الاسرة فينتخب وحده ما يراه ملائما لرجل يحمل شهادة !

❋

لمح الشيخ في الممر مخدة من جلد ، على مقربة من باب المكتب ، فاقترب منها . وبعد أن استجدى الاولياء والصالحين الخير والبركة ، رفع أردان الجلابة ، وقعد على الارض مرتفقا المخدة ومسندا ظهره الى الحائط فظهر من وراء فخذيه المشبكتين الضخمتين سروال منتفخ عريض مثل معزف يدوي عندما يتفتح . صدرت عن الشيخ اشارات غامضة سريعة ، ثم حرك يده ، وأخذ يتمتم بالدعوات . وبعد لحظة انزل العمامة عن رأسه ووضعها على ركبتيه اعتقادا منه أن مرور الهواء النقي على الرأس يساعد على التنفس المنتظم . آه ! لقد فارقته خفة وقوة الماضي الماتع الجميل يوم كان في ريعان الشباب ! نظر الى ابنه نظرة ضمنها الاعجاب والغبطة . كانت مهنة المنجد ، في شبابه ، سبيل مجد وفخر ، لا تفوقها رفعة وقدرا الا رتبة الوزير، او القاضي . وتوالت انامله تلامس خرزات السبحة بينما بقيت يمناه ترتفق مخدة الجلد وفخذاه مشبكتان .

دمدم الولد بعد أن رمق والده شزرا ، هؤلاء الشيوخ ديدنهم اللامبالاة ! . وتمنى لو استطاع أن يقول لوالده رأيه فيه !

انه يتميز غيظا ويتفجر حقدا على والده . الم يمنعه من متابعة دروسه ؟ انه الوالد الجهول الذي يعترض سبيل الابن المثقف في الوصول الى المجد والغنى ، والسلطة ، الى السبيل الموصل الى ابعد بعيد ، الى دنيا الجاه ، والمستقبل .

الشعور الانساني ، الثورة البناءة ، الطموح الشريف ، هذا ما يجهله والده تمام الجهل . حبذا لو شعر بوجود تلك المفاهيم ، على الاقل . قد تأكد وثبت وجود عالمين مختلفين ، يتضادان ويجهل احدهما الآخر. مفهومان متباينان للعالم ، وصورتان متنافرتان متباعدتان للانسان : حياة مغلقة على ذاتها ، لا طموح فيها ولا جرأة ، وحياة زاهية ، ملؤها الامل المشرق البسام . ولكن ، انى للوالد القانع بما هو عليه ، أن يفهم أو يتبين سام وتحرقات ابنه ؟ وكم مرة صاح : يا فئات الشباب ! لو ادركتم مدى شرودكم لحسدتمونا ، نحن الشيوخ ، على ما ننعم به من هدوء وراحة بال ، وما ذلك الا من فضل الله ورضاه .

لولا ان فاطمة فتحت الباب لطال الوقت والمنجدان يسبحان ويهيمان في اجواء الخيالات والاحلام . انها ايقظت الفتى من حلم ورمت به في احضان حلم جديد .

الصبيحة مشمسة دافئة ، يتغلغل فيها مناخ معتدل مثقل برواء الربيع المغربي . اليس في خصب شباب الفتى وبناعة فاطمة ، وفي اشراقة الحياة ونضارتها ما يفسح المجال رحبا لدنيا الخيالات والاحلام ؟

اغرق المنجد الشاب نظره الازرق الرقيق في عيني فاطمة السوداوين ، وابتسم لها بتعلق ولطف ، ابتسم لاحلامه البعيدة ولاحلامه القريبة ، وانكشفت له الحياة فجاة تتماوج بشرا وسناء . طفحت ابتسامة الشاب في اغراء وعلا الدم الطليل في وجنتي فاطمة وارتاحت لمنظر وسحر شبابها الخضل . ان في انوثتها زهو الربيع واغتراره ، ومع ذلك فهي كثيرة الخفر والحياء ، دائمة التخوف والعزوف عن كل ما يشين الطهر والشرف . ليت الفتيات جميعهن يصمدن امام زهوة الربيع وليت الشباب كلهم يعرفون كيف يحترمون الزهور والورود فلا يهدرون عطرها وشذاها !

❋

اعتذرت فاطمة للمنجدين عن تأخر ادريس عن استقبالهما فورا فقد شغلته مكالمة هاتفية ، ثم ادخلتهما الى المكتب وغادرت المكان بعد ان اغلقت الباب وراءها . ولم يفتها ان تبتسم لهما ، قبل مغادرة البيت ، ابتسامة مقتضبة تزخر لطفا وغنجا .

تقدم ادريس من زائريه وحياهما :

— السلام عليكم ، أهلا وسهلا !

بعد ان خفض الزائران من راسيهما ، يردان التحية تقدم الولد بخطى ثابتة من ادريس ، وصافحه قائلا :

— عليك السلام ورحمة الله . ان زوجتك قد استقدمتنا لنصنع لها فراشا .

ادريس متعجبا :

— ولكن زوجتي لم تحدثني بذلك ابدا !
— الفراش الجديد سوف يكون ، كما تعلم لطفلتك الصغيرة .
— طفلتي الصغيرة ؟
— هوذلك يا سيدي .
— ولكن اية طفلة ؟

— طفلتك انت !

— لا طفلة لي !

— آه ! حقا ، الطفلة التي ستولد ! ...

— ولكن ماذا ؟ هل سنهدر الوقت في جدال حول الاطفال ؟ ولمن ؟ ارجو المعذرة .. ماذا قلت ؟ السيدة ... لاجل .. الفراش .. الطفلة طفلة ؟ من الجائز انكما لم تهتديا الى البيت الذي تريدان الذهاب اليه .

فأجاب الشيخ بصوت خشن مبحوح :

— هل تظننا من المشعوذين ؟ انني أعرف البيت ، واعرف كل المدينة ، بكل أزقتها ودروبها . استطيع ان اسمي لك كل زقاق وكل شارع كبير . فهذا الشارع تربطني به أواصر الفة راسخة الجذور . فانا اعرف عائلات الرباط النبلاء واحدة واحدة . والدك هو الحاج تدور بن الحاج أحمد ، وقد تزوج ، للمرة الاولى ، بابنة الحاج عزوز بن الحاج محمد ورزق منها بولد . رباه !.. كم كانت رائعة فخمة العتيقة ! (آنذاك ، هز الشيخ راسه ، ورفع يده الى السماء) : الله ! ما أمتع تلك الايام وما اجملها! عهود من الازدهار والافراح! امانتم، شباب اليوم ، فما نعمتم بشيء .

لاحظ الشاب ان والده لم يكف عن سرد ذكرياته فأسرع يؤاخذه :

— اتينا نصنع فراشا لا لنسمعك تحكي ذكريات ايامك الغابرة !

فرد الشيخ بامتعاض :

— الاجدر بك أن تخفض من صوتك ، أيها الطفل الغر ! في الماضي لم يكن الابناء يرفعون أصواتهم بمحضر الآباء ...

— أجل ، لكن الوالدين كذلك لم يكونوا يصيحون في وجه أولادهم !

— أنت تسعى الى قلب النظام الطبيعي راسا على عقب . فأجيال تحتقر الشيوخ ولا تحترم الوالديـــن والتقاليد ، لابد أن تجر علينا أوخم العواقب . فأنتـــم الذين تستنزلون على رؤوسنا لعنات من السماء والغضب؛ فالجنوب قد اجتاحه الجراد ! وكما ذكر لي شيخ وقور..

قاطعه الولد بعنف وحنـــق :

— لا بأس ! قص على مسامعنا سيرة حياتك ؛ ان الوقت ملائـــم مناســـب !

واستدار نحو ادريـــس :

— فلنعد الى موضوع فراش ابنتك ، أيها السيد .

فأجاب ادريس بلطف وادب :

— اية ابنة تعني؟ لم يقل أحد حتى الآن أن لي ابنة!

— اظن ان زوجتك تنتظر ولادة طفلة وهي تود تحضير كل شيء من قبل .

فرد ادريس بحدة :

— افهم من حديثك أن زوجتي حامل ؟

— انت اعلم بذلك اولا واخيرا ، يا سيدي .

❋

ضاع من ادريس اتزانه العادى : ان ادريـــس « الاستاذ الدكتور » كما نقول في المشرق ، أو العالم العلامة البحر ، كما نقول في المغرب ، قد استبدت بـــه البلاهة ، ولم تفده ثقافته شيئا في تفهم الوضع وحله . أما الشيخ فلم يعر حديثهما الا بعض انتباهه، فقد شردت عيناه على الكتب الجاثمة في رفوف المكتبة وعلى المقاعد الوثيرة وعلى الآلة الكاتبة الجديدة . وحالما وقع نظره على رسم الملك تمايل : اطال الله في حياة سيدنا . ثم انحنى للمرة الثانية ، وتمتمت شفتاه تستمطران بركات الله على صاحب الجلالة .

فقال له ابنه بصوت خفيف ساخر :

— صاحب الجلالة لا تهمه انحناءاتك . كان من الاجدر بك ان تتبع أوامره السديدة ونصائحه الرشيدة ، فتسمح لاولادك أن يتابعوا دروسهم ولبناتك أن يتحررن، كما تحررت الاميرات .

فأسرع الشيخ يخرس ابنه باشارة عريضة من يده ، وبعد أن صب عليه نظرات الازدراء ، التفت نحو ادريس :

— حالتك تذكرني بما حدث لحاج من اصدقائـــي القدامى . حدث ذلك في عام التيفوئيد . ما زلت اتذكر ذلك لان تلك السنة كانت لها خيرات وبركات لشقيقي حفار القبور . حميره كلها، نعاجه كلها، وباختصار كل ثروته الغزيرة ، حتى زوجتاه اكتسبها في تلك السنة .. ولسوء الحظ لم يشرق الازدهار على اخوة شقيقي كلهم . لقد طالب الناس بحفر قبور كثيرة ، دون أن يطلب واحـــد منهم صنع فراش واحد . واود ان تنتبه لما اقول ، كان اخي حفار القبور الوحيد الذي يلبي كل الطلبات : مهارته في حفر القبور ومؤازرة التيفوئيد اتاحت له زبائن كثيرين لا يحصون . كان يعمل بحزم في مقابر الرباط وبلا سلطة مطلقة .

عيل صبر الشاب ولم يقو على كظم الغيظ ، فصاح :

— انك تجهل كل مراعاة لمقتضى الحال ولقيمة الوقت . اليس الوقت من ذهب ؟

ايجوز لك أن تتحدث عن الاموات وعن التيفوئيد في بيت يستعد لاستقبال مولود جديد ؟

قطع ادريس عليهما الكلام ليؤكد انه لا وجود لاي مولود جديد في البيت ، وانه لا يؤمن بالوساوس والخيالات والخرافات . ولكن الشيخ تابع حديثه ساخرا من ولده ، آخذا عليه انه رغم تعلمه في المدرسة مادة التاريخ التي تتحدث عن الحروب وفناء الالاف من البشر ، يمانع اباه في حكاية أخبار ، هي من التاريخ كذلك . اما هو ، فأي ضير عليه ؟ انه يحكي قصة شقيقه ... وهل يجوز للولد ان يلم ويحيط بسير الامراء والقادة الوثنيين ولا يجوز له ان يتعرف الى حياة أجداده الاتقياء الورعين ، ويجهل كل شيء عن ثروة عمه الواسعة ؟

... ثم تابع الشيخ الحديث كانه يستثير ما بقي من زهيد الصبر في صدر سامعيه . واستطاع أن يفيض في وصف الازدهار العجيب الذي رافق التيفوئيد المباركة .

اسكته الولد بقحة بالغة :

— كلامك تافه فارغ ، لا يهم أحدا ..

والتفت نحو ادريس وتابع :

— اننا لا نحب ضياع الوقت ياسيدي . هيا اعطنا الصوف الذي سنصنع منه فراش ابنتك .

— اية ابنة ؟

— اذن ، لنقل الابن !

— أي ابن ؟

— الطفل ، الطفلة ، الولد . كلهم يؤلفون عائلة واحدة . أنت تعلم جيدا أن فراش الطفلة ..

— لا ، يا سيدي ، انا لا اعلم شيئا .. الحقيقة ..

— عجبا . لقد اطلعتني زوجتك على ذلك منذ بضعة ايام !

فصرخ ادريس مذعورا قلقا :

— ماذا ؟ زوجتي ارتك ذلك ؟ أفصح يا هذا ! منذ لحظات كنت تقول بأن البنت ستولد ، وها انت الان تقول انك رأيتها !

— ماذا أصابك يا سيدي ؟ الحديث عن الصوف ، صوف الفراش !

أضاف الشيخ :

— ثم ان الفراش للطفلة ، هل فهمت الآن ؟

❋

ارتمى ادريس على اقرب كرسي بجانبه ، واخرج من جيبه غيلونا وكيس تبغ وعلبة ثقاب . وبعد أن ركز نظارتيه على عينيه ، حشا الغليون بالتبغ ، واشعله وراح يتأمل تلافيف الدخان بنهم وشره ، وتردد قبل ان يقول معتذرا :

— اجل ... سأسأل زوجتي . اني سأحدثها عن ذلك .. فصاح الولد مستفسرا :

— عم ستتحدث اليها ؟

— عن قضية الطفلة !

— اية طفلة ؟

— طفلتي !

— ولكن ليست لك طفلة .

— انت قلت ان لي طفلة !

فأجاب الولد بفتور مصحوب بابتسامة باردة :

— قلت انك سترزق طفلة !

— ولم طفلة ؟

— سيكون لك أكثر من واحدة اذا اردت ، فانا لا أرى مانعا في ذلك !

— الحق انني لا اريد شيئا .

— ولكن السيدة حرمك تريد صنع الفراش لابنتها هي ، ولو رفضت أنت .

— لو كانت لها ابنة لكانت ابنتي في نفس الوقت .

— حسنا ، انها ابنتك انت !

— أكرر عليكما ، للمرة العاشرة ، ان ليست لي ابنة !

— المهم في الموضوع هو ان الفراش سيصنع لشخص ما ! طفلة منك ، أو من زوجتك أو منكما معا ، اي انت وزوجتك !

— واذا رفضت أن تكون لي طفلة ؟

— فلنقل اذن طفل !

ادريس بشدة :

— لا فارق عندي بين طفل وطفلة !

— فليكن مولودا بلا تحديد !

— كيف ؟

— سوف تصبح أبا . أنسيت أنك زوج والدة الطفل المنتظر ؟

ابتسم الشيخ ، وسعل ثلاث مرات متوالية متلاحقة . من الممكن انه اراد بسعاله ان يلفت انتباه محدثيه الى ما سيقوله ، او ان دخان الغليون هو الذي سبب له السعال الحاد . رن صوته بلهجة حوت الكثير من الرصانة :

— هي الحقيقة ! نعم ، هي الحقيقة عينها . اريد ان تعلما ما حدث ، في عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، تغمده الله ببركاته ورحمته ، انتما ، لم تكونا قد ولدتما بعد . فجدك الحاج تدور الذي رجع اذ ذاك من الحج منذ وقت قريب ، جدك الرجل المسكين رحمه الله ...

قاطع الابن اباه :

— الا تتركني اكمل حديثي !

(ثم الى ادريس) :

— اجل ، الصوف يا سيدي ، الصوف للفراش ، فراش ...

واردف الشيخ بقوة :

— لاجل الصوف !

فاجابه الشاب بصوت اشد حدة :

— كلا ! الفراش للصوف .. لا ! لا ! الصوف للفراش ، الفراش للطفلة .

اذ ذاك ضرب ادريس الطاولة بقبضة يده صائحا:

— لا وجود للطفلة !

— فقال الولد بصوت مائع :

— اذن طفل !

عاد ادريس يضرب الطاولة من جديد بقبضته ولهجته ترتعد :

— كلا ؛ كلا ! ..

اردف الشيخ ، وهو يدفع سحب الدخان من فمه :

— حسنا ، فلنقل ولد ، فلربما تروق هذه اللفظة اكثر من لفظة طفل او طفلة .

— لا ، لا ! لا يروقني شيء !

ورد الشيخ محتفظا بهدوئه :

— اذن ، الصوف للفراش ، والفراش للاشيء ! وليدم مولانا على خاطره !

ضاق ادريس بكبت غضبه وانفعاله وصاح في وجههما :

— كفى حديثا ! ارجوكما !

فاحتج الشاب :

— على رسلك يا سيدي ! نحن ما قلنا شيئا يغيظك . فهل من العار ان نتحدث اليك عن اولادك ؟ ان تصبح والدا ، هل في ذلك ما يشين ويزعج ؟

ثم قال لوالده :

— هيا نذهب !

❋

مشى الشيخ ذهابا وجيئة يحصد في طريقه فوارات من دخان (الكيف) العنيفة وسرعان ما اختلطت مع رائحة الكتب المجلدة والجرائد ومع رائحة نسيم مايو . امتلات الغرفة بهذا المزيج ، مما اثار سعال ادريس .

استرسل الشيخ يدخن غير مبال بالآخرين ، ثم وقف عن السير ، وتسمر في مكانه ملقيا نظرات ساخرة على ادريس ، ذلك الرجل المائع الذي لا يتحمل رائحة (الكيف) ثم استأنف مشيه باتجاه الباب ، رافعا ذراعيه نحو السماء ، ثم قال لولده مؤنبا :

— هكذا تمنع الناس عن الكلام ، مع أن الله تبارك وتعالى قد وهبنا لسانا لنتكلم !

فتمتم الولد :

— على شرط ان نتحدث باقتصاد ولا نضخم الجو بالصيحات !

اكتفى الشيخ بأن نظر الى ابنه ببرودة واشفاق قبل ان يلتفت الى ادريس من جديد :

— انت تمنع الناس ان يشتغلوا ، رغم ان الله خلق الخروف ليعطي الصوف ، والصوف ليصنع منه الفراش ، ولقد من الله علينا ، نحن المنجدين ان نصنع الفراش . ثم قال لابنه :

— كل ذلك يذكرني بما حدث ، بعد ولادتك ببرهة وجيزة . اسمع ! كان ... ذلك ..

ايه ! كان ذلك في السنة التي سقط فيها الثلج على فاس ، سافرت لزيارة مولانا ادريس ، رضي الله عنه ، ولما رجعت الى الرباط وجدتهم قد اشتروا الخروف بعد اليوم الخامس من ميلادك . نعم ؛ حدث ...

— حدث ماذا ؟ هيا يا ابي ، لا اريدك ان تعود القهقرى في الماضي الغابر .

— واحسرتاه ! هؤلاء الاولاد ، اولاد هذه الايام لا يريدون سماع احاديث شيوخ ، ولا يحبون الاصغاء الى اقوال الحكمة .

هنا تململ ادريس فوق كرسيه وقال بلهجة من يصطنع الود والابتسام ، وهو ينتصب قائما ببطء :

— اني ارثي لكما يا سيدي . من الاكيد انكما ضللتما الطريق الى البيت الذي تبغيان الذهاب اليه لصنع الفراش .

فأجاب الولد على الفور :

— لا يا سيدي ، ان العنوان مسجل بدفتري ، لا خطأ فيه .

❋

عاد الشيخ الى داخل المكتب ، وجلس على اريكة مشبكا فخذيه ، ثم اخرج من الكيس سبحة كبيرة وقال ، وهو يؤرجح راسه :

— اجل ، بكل تأكيد ، ان صاحبنا يرفض ان تكون له طفلة .

— كلا يا شيخ ! انا لا اريد شيئا ، ولا ارفض شيئا.
فأجاب الولد :

— الا يعني الاصرار على عدم الرفض وعدم القبول انك لا تفصح عن رغبتك ؟
هل تريد صنع فراش الطفلة ؟
وسأل الاب بدوره :

— واذا لم يرد طفلة ؟

— يصنع الفراش لطفل !

— واذا لم يرد ، لا طفل ولا طفلة ؟ ولكن فقط ... فلنقل ولدا ؟

— جيد ! جيد .. ولكن الطفل او الطفلة كليهما يدعيان ولدا !

بدا ادريس يتثاءب ويتحرك ، معبرا عن سأمه وضجره . فما كان الشيخ الا ان تابع جداله مع ولده . وقال بعد ان نفخ في غليونه لينظفه مما علق به :

— اعتمد المنطق ولو قليلا ! ان جيل هذه الايام يشكو ضعفا في العقل وغباوة في التفكير . سيدنا الفقيه لا يريد طفلة ! هل سمعت ؟ لا يريد ، انه أراد الا يريد طفلة .

فارتجف صوت ادريس غضبا :

— ولا اريد طفلا ايضا !

فأجاب الشيخ بنبرات ثقيلة :

— اذن تريد ولدا وكفى !

— ...

— ماذا تريد اذن ؟ فراشا !

— قلت لكما لا أريد فراشا !

حينذاك نفذ صبر الولد :

— ولكن حرمك تريد فراشا ، وذلك يعني انها تريد ولدا ، من الله ! ..

— انا أرفض كل شيء . الست رب البيت وسيد برتي ؟

— لا تنس أن للسيدة كلمتها في الموضوع !

— ليست القضية قضية اقوال وكلمات ، بل قبل كل شيء ، قضية ولد . النساء يلتزمن الطاعة لازواجهن وعلى الزوجة ان تخبر زوجها قبل أن تحبل وتلد .

❋

من سخرية الصدف أن يكون الشيخ حاضرا في حوار الاطرش مع الابكم . القضية بالنسبة له واضحة :

— الله هو الذي يقوم بالخلق والابداع . كل هذه الامور تصدر عنه وتتعلق به كما كان يقول جدي ...

يا للشيخ المسكين ! الحظ يخونه . انه موضوع سخرية ، خصوصا لولده . واكثر من ذلك انه يقاطعه ! آه ! شباب اليوم !
أمر الولد أباه بالذهاب الى حال سبيلهما .
فأجاب الشيخ :

— اخيرا سنذهب . ولكني سأنتهي الى الاعتقاد بأن السيد لا يريد أن يكون له أولاد .
لف سبحته حول رقبته ، واخرج كيس الدخان ، ثم تابع كلامه ، دون أن ينتبه الى الآخرين :
— انا ، عندما وهبني الله تبارك وتعالى هذا الولد (مشيرا الى ابنه) هو الولد الثالث عشر ، او الرابع عشر من بين اخوته واخواته ، لم اعد اذكر بالتأكيد . عندما نفحني الله بهذا الولد ، قبلت عطية الخالق جل شأنه واذعنت لمشيئته . افعل انت ايضا كما فعلت انا . اتركنا نصنع لك الفراش لتبرهن انك لا ترفض هبة الله.
(وتابع بعد صمت وجيز) : يا ابنائي . اصغوا الى اقوال من هم اكبر سنا واكثر حكمة فارشاداتهم كنوز هذا العالم .

هنا سمع صراخ طفل يتعالى من اقصى البيت ، فاقترب المنجدان من الباب ، وقد بدا عليهما الفرح ، مع شيء من الدهشة ، فركزا نظراتهما على ادريس ، وقد استحوذ عليه الذهول والشرود فصرخ الشيخ :

— انها هي ! انها هي !

سقطت منه علبة الدخان وراح يجمع التبغ الذي تبعثر على الارض ، وصاح الشاب كأنه يردد صدى صراخ ابيه :

— انه هو ! انه هو !

اما ادريس فقد اخذ يتمتم مشدوها حائرا :

— من ؟ من ؟ ماذا حدث ؟

❋

تسمر ادريس فى مكانه غارقا فى بحر من الفراغ المذهل المروع ، فراغ العزلة والبعد ، أمام هذين الرجلين اللذين لا يفهمهما ولا يفهمانه .

ما هذا الصراخ ؟ ما هذا البكاء ؟ افكار متلقلة لا قوة له على لم شعثها ، وتركيزها فى نقطة واحدة . احس بجمود وانهيار يعصفان بكيانه . هواجس واوهام اقدار مجرمة سفاكة ! بكاء غريب فى بيته ؟ ولكن هل سمع البكاء والصراخ حقا ؟ أم ان ما حدث لا يتعدى مجرد خيالات واحلام ؟ انه يشعر بأن روحه تتبقر فى داخله ، وفى اذنيه ولولة انهيار وضجيج دمار .

واخيرا سمع ادريس صوت الشيخ يتفجر غيوظه من بلباله :

— انه يتظاهر بالبراءة . ويتلبس السذاجة ! لقد سمع صراخ الطفل فى بيته ، ومع ذلك فهو لا يكف عن سؤالنا ، من ؟ ماذا ؟ يا للمزاح الصبياني ! انها ابنتك يا سيدي انها طفلتك انه ابنك أو طفلك . هو ولدك ، هي ولدك !

❋

من جديد انغمس ادريس فى عالم الحالم اليقظ ذاهلا يغوص فى اعماق اللامعقول. امام مثل هذا الحصار العبثي ، تضع الثقافة السلاح ويستسلم الفكر صاغرا ويبدأ التجول فى الظلام حيث يتساوى المثقف بالامي ، والمبصر بالاعمى . لم تعد اجهزة ادريس الفيزيولوجية تتناغم مع وجدانه ، فحتى شفتاه اخذتا تتحركان دون تسيير من الارادة ، تقذفان بعبارات غير واعية .

— لكن .. لا ! ليس لدي طفل أبدا . ولا طفلة ايضا.. لا .. ابدا ..

فعلق الولد ساخرا ، واكتسى صوته نبرات الواثق مما يقول :

— انه طفلك ! أو شيء شبيه به !

❋

يسمع البكاء والصراخ من جديد ، ويقترب ادريس من النافذة . يرهف السمع جهة الباب . لقد احاطت به غيوم دكن من الحيرة والشرود واغترف الشيخ الفرحة من تلميحاته الاخيرة ، ولبس ابراد النشوة بالظفر . اقتربت اسنانه الهرئة ترن ضحكة ساخرة هازئة . ثم اخذ يقول بحدة :

— واخيرا اراد الله تبارك وتعالى ان نلمس لمس اليد الدليل الناجز القاطع . اسمعت يا سيدي الفقيه ! من المؤكد انك سمعت . ومع ذلك ظننت من السهل ان تلصق بنا صفة المشعوذين . اما الآن ، فها هو الطفل نفسه ، مثل ملاك سقط من السماء ، جاء يدعم هدفنا بالبرهان ، بصوته الملائكي العذب . المنة لله ولرسوله لقد سمعت بأذني اليسرى ، لان اليمنى انتابها صمم منذ وقت سحيق بعيد (.. ثم الى ابنه) : حدث ذلك عندما ولد اخوك ، واحد من الثلاثة الاوائل ! آه : لقد مضت على ذلك اربعون ، أو بالاحرى خمسون سنة . حينذاك كان الحاج ...

امسك الشاب بذراع والده وجره الى خارج الغرفة .

❋

ردد ادريس وعيناه ما زالتا عالقتين على الباب الداخلي ، وقد اصفر لونه ، وكل اشاراته تشبه حركات النائم المتجول :

— امام ما حدث ما زلت على جهل مطبق مرير . الشرود والتردد يستبدان بي بقسوة .

مشى الى النافذة بخطوات متثاقلة والتهم نظره الحزين المتلجلج الرباط كلها . خصوصا الرباط الجديدة . ولكن نظره لا يستقر على شيء ، ولا يبحث عن شيء . الشيء الذي يهتم له ادريس هو ان يحيط بما يعتمل في داخله . ولكن هل لديه القوة الكافية لسبر اغواره وتقويم ذاته ؟ انه يتطلع ولا يرى شيئا ، ويخفض رأسه ويحلم دون أن يدري بماذا يحلم . ضميره متشنج متخدر . لابد ان دوارا كثيفامترجرجا مثل الضباب يقلقه. الخور يدب فى جسمه ، والفراغ يعوي فى رأسه . حبذا لو استطاع

الى البكاء سبيلا . شهوة الى ذرف الدموع تتآكله . شهوة الى دموع مهدئة ، « ما هو سر الطفلة؟ ما سر الصوف؟ زوجتي ترى فى المنام اننا رزقنا بابن ، ويأتي المنجدان ليصنعا فراشا ، الاهي ! فى اي عالم أنا ؟

مولود ! طفلة ! طفل ! ابنها ؟ ابني ؟ ابننا ؟ ابن من ؟ » .



رفع ادريس رأسه ونظر من جديد فى الفراغ ... المدينة بيضاء ناصعة ، مثل حجرة الجراحة فى مستشفى، مثل المغربيات وقد تسربلن ثياب الحداد ، مثل الكفن . مدينة منفتحة لا شبيه لها الا بلدة اغادير . انه لمهندس عبقري فذ ، تمرس بالتساوق والتناغم ، ذلك الـذي صمم وخطط الرباط الحديثة ولكن الرباط تنفح ادريس فى هذه اللحظات بالمشهد القاتم الحزين .

من هو هذا المولود ، ما جنسه ؟
هل هو أسود أم ابيض .
ما أتى يفعل هنا ؟
نعم ، هنا ، ماذا أتى يفعل ؟
من جاء به الى هنا ؟
هل هناك من يتردد على البيت ؟ قسما ..

❋

طفل !

انه يمثل الحياة ورمزها ، انه حياة الالغاز . ان الطفـل ، اي طفـل ، كـل قائـم بذاته ، وهـو فى الـوقـت نفسـه لا شـيء بدون الآخرين . هنا نحس بغلاظة لغز الانسان وكثافته . وان اللغز يمر منا ، وخارجا عنا ، يمر فى كل شيء ولا يوجد لغز . وسره فى اي مكان اذ ذاك هو لغز كل لغز وسره الدائم اننا مجبرون على ملاحقته ، فى بحث ابدي مأساوي .

الرباط ــ محمد عزيز الحبابي





❊ ستصدر قريبا للاستاذ الكبير سيدي عبد الله كنون الكتب الاتية : « لوحات شعرية » « العصف والريحان » « ديوان ابن زاكور » مع دراسة عنه.

❊ صدر عن المكتب الدائم للتعريب بالرباط الجزء الاول من المعجم القانوني والفقهي محتويا على ازيد من 350 صفحة لحرف الالف والباء فقط، مرتبا حسب الحروف الابجدية العربية ، وسيوزع هذا الجزء مجانا فى العالم العربي .

❊ زار المغرب اخيرا وزير التربية الوطنية فى الجمهورية التونسية الاستاذ محمد المسعدي . وقد حظي الوزير التونسي بمقابلة صاحب الجلالة ، وقام بزيارة المنشئات الثقافية فى كل من الرباط ، ومراكش ، والبيضاء ، وفاس ، كما حضر حفلات عيد الشباب .

❊ كانت جمعية اصدقاء المعتمد بشفشاون ، قد نظمت فى صيف السنة الماضية « مهرجان الشعر الاول ».

وكانت قد تعهدت باحيائه كل سنة ووفاء منها بهذا التعهد تعلن الى جمهور الادباء انها تستعد لاقامة « مهرجان الشعر الثاني » طيلة ايام 1ـ2ـ3 من سبتمبر المقبل .

وستعمل الجمعية جاهدة على طبع البحوث والقصائد التي ستلقى فى المهرجان هدفها من ذلك ان تساهم فى سد الفراغ الادبي الذي يحسه كل قارىء فى بلادنا .

والجمعية تهيب بالشعراء والنقاد ان يساعدوها على ابراز هذا الحدث الادبي الهام الى الوجود .

❊ توجه نائب كاتب الدولة فى وزارة التربية والتعليم الاستاذ ناصر الفاسي على راس وفد مغربي الى جنيف للمشاركة فى اعمال الدورة الرابعة والعشرين لمؤتمر المكتب الدولي للتربية التي عقدت ما بين 7و16 من يوليو الماضي . ويتضمن جدول اعمال هذه الدورة عدة قضايا بينها تنظيم البحث البيداغوجي وتقرير حول النشاط التربوي فى المغرب سنة 65ـ1966 .

❊ تم مؤخرا نقل رفات الامير عبد القادر الجزائري من سوريا الى الجزائر ، حيث اعيد دفنه فى مقبرة العالية ، وذلك فى حفل رهيب : شارك فيه كثير من الوفود .

❊ اقام اتحاد كتاب المغرب العربي حفلا بمناسبة توزيع الجوائز على الشعراء الفائزين فى مسابقة الشعر لهذه السنة . وذلك يوم الثلاثاء سابع يونيه .

❊ تنظم المكتبة الامريكية فى كل من الرباط وطنجة ، وفاس ، والدار البيضاء ، مسابقة ادبية لتكملة قصة مارك توين « غرام فى القرون الوسطى » وقد رصدت للمسابقة ست جوائز .

الشرط ان يكون المشترك عضوا فى المكتبة الامريكية ، وعلمنا ان لجنة من اعضاء اتحاد كتاب المغرب سيوكل اليها بحث الكلمات .

❊ الاستاذ ابراهيم الكتاني ، عثر اثناء رحلته للجزائر على مخطوطات عربية نادرة فى المكتبات الخاصة بالصحراء ، ومن بينها مخطوط مغربي هام هو المجلد الاول من كتاب « منهاج الرسوخ الى علم الناسخ والمنسوخ » من تصنيف الفقيه ابي العباس احمد بن محمد بن احمد ابي عزفه اللخمي السبتي. وهو مجلد فريد له ولم يسمع به من قبل .

* قدم السيد الحسن المنيعي للمطبعة مجموعة مسرحيات قصيرة ، مترجمة عن بعض كتاب البعث . وقد قدم لها مؤلفها بموضوع يتعلق بمسرح اللامعقول .

* اصدرت مجلة الفكر التونسية عددها الاخير فى موضوع الاسلام فى عصرنا .

* نشرت فى تونس قريبا مذكرات ابي القاسم الشابي مشتملة على خواطره التي كان يكتبها فى رسائل الى حبيبته والى صديقه الشاعر محمد الحليوي .

* اكتشفت فى تيبازا فى الجزائر مقبرة قرطاجنة تضم قبورا يعود تاريخها الى ما بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل المسيح . وهذه القبور نادرة الوجود ، بسبب التدمير الواسع الذي فعلتهم الرومان بعد هزيمتهم فى قرطاجة ، والقبور محفورة فى صخور احدى التلال ومغطاة باحجار رملية كبيرة الحجم .

* ارباب الارض « آخر كتاب الفه جبران خليل جبران » انتهى الدكتور ثروت عكاشة من ترجمته الى العربية وسيصدر قريبا بالقاهرة .

* عن « الخلود فى التراث الثقافي المصري » اسم كتاب اصدره الدكتور سيد عويس الخبير الاول فى مركز البحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة مؤلفا جديدا . كما نشر كتابه الثاني «ملامح المجتمع المصري المعاصر » .

* اصبحت ضياء ابو غازي ابنة شقيقة مثال مصر محمود مختار اول مصرية تحمل دكتوراه فى الآثار المصرية القديمة . حصلت ضياء « 36 سنة » على الدكتوراة من جامعة القاهرة عن رسالة موضوعها « رع الدولة القديمة » .

* « فريد وجدي «دراسة جديدة لانور الجندي فى سلسلة اعلام العرب بالقاهرة تصدر قريبا .

* سعاد حندوسة مدرسة اللغة الفرنسية بالجامعة الازهرية ، فازت رسالتها التي قدمتها امام جامعة القاهرة عن « منترلان : مؤلف مسرحي » وقد نالت عليها درجة الامتياز .

* «شيء من الخوف » قصة ثروة اباظة يترجمها الان مرسي سعد الدين الى الانجليزية .

* «مي زيادة » موضوع رسالة ماجستير قدمتها عايدة اديب طالبة الدراسات العليا فى الجامعة الامريكية بالقاهرة .

* «الامة الانسانية » كتاب لاحمد حسين المحامي يصدر قريبا فى القاهرة . الكتاب يكتشف عن دعوة الوحدة الانسانية التي حمل الدعاة الانسانيون .

* صلاح الدين الحنفي اصبح مديرا عاما لدار الكتب والوثائق بالقاهرة . عبد المنعم عمر المدير السابق اصبح وكيلا فى وزارة الثقافة . وكانا يعملان معا فى دار الكتب منذ 37 سنة .

* «الاسلام والثقافة العربية » حلقة جديدة من الموسوعة الثقافية التي يقدمها فى القاهرة انور الجندي ، وقد بداها بعد انتهاء موسوعة الادب ، ويضم هذا الكتاب جميع القضايا التي تناولها كتاب الغرب ، بالنسبة للتاريخ ، والدين ، واللغة ، والتراث فى الفكر العربي المعاصر .

* تقوم دار المعارف بمصر باعادة طبع كتاب « ادب المهجر » للاديب الاردني عيسى الناعوري بعد ان نفدت طبعته الاولى .

* عبد الحليم عبد الله اعد للطبع فى القاهرة عاشر رواية طويلة له اسمها « البيت الصامت » وهي اول رواية له تدور حوادثها فى المدينة . رواياته السابقة كانت فى الريف .

* سيصدر قريبا فى القاهرة كتاب للمرحوم زكي مبارك بعنوان « جناية احمد امين على الادب العربي » وينتظر ان يثير صدور هذا الكتاب ضجة فى الاوساط الادبية العربية .

* قريبا يصدر ديوان الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي بعنوان « الديوان الاول » .

* في ندوة تليفزيونية بالقاهرة هاجم طه حسين «عبقريات» العقاد ، ذاكرا انه لم يفهمها .

* ترجم الى العربية ديوان الشاعرة التشيلية ميسترال التي نالت جائزة نوبل للاداب .

* يصدر تحقيق نادر للدكتور ممدوح حقي بعنوان ـ المقولات العشر ـ وهذا الكتاب يحوي آخر ما وصلت اليه الفلسفة الاسلامية في المنطق الصوري، وهذا المخطوط هو النسخة الوحيدة في العالم . وقد حقق الدكتور حقي هذا الكتاب وشرحه ووضع مقدمته . كما سيصدر للمؤلف كتاب ـ الفن الاسلامي مصورا وملونا ، وهو مترجم عن الانجليزية وهناك كتاب آخر سيصدر للدكتور حقي قريبا بعنوان ـ الاسلام واصول الحكم ـ لمؤلفه علي عبد الرزاق .

* ينعقد المؤتمر الثاني لاتحاد الجامعيات العرب في سبتمبر القادم بالقاهرة .

* صدرت في الجمهورية العربية المتحدة الكتب التالية :

«مساجد القاهرة ومدارسها » الجزء الاول « العصر الفاطمي » للدكتور احمد فكري «قنطرة الذي كفر » قصة مصرية باللغة العامية عن ثورة 1919 للدكتور مصطفى مشرفة « على هامش الغفران » للدكتور لويس عوض «كن قويا » تربية بدنية ، لاسكندر قرالي . « اللغة والنحو بين القديم والحديث » لعباس حسن حسن « الاشرف قانصوه الغوري » للدكتور محمود رزق سليم « نار ورماد » مجموعة قصص ليوسف جوهر ، « الخلود في التراث الثقافي المصري » للدكتور سيد عويس «ذكريات من عالم المحاماة » للمستشار تادس ميخائيل تادرس «الفتى مهران» مسرحية من الشعر الحديث لعبد الرحمن الشرقاوي «عبقرية الامام» طبعة جديدة لعباس محمود العقاد « علم النفس في حياتنا اليومية » طبعة خاصة للدكتور محمد عثمان نجاتي « الف ليلة وليلة » دراسة للدكتور سهير القلماوي «القصة في الادب الانجليزي » من بيودلف حتى فينجانزويك للدكتور طه محمود طه « علم الاجتماع ومدارسه » الكتاب الاول « تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره » للدكتور مصطفى الخشاب «تاريخ الحضارة الاسلامية » للمستشرق ف. بارتولد ترجمة حمزة طاهر . «رمز الطفل » دراسة في ادب المازني » للدكتور مصطفى ناصف «اوراق الفجر » ديوان لفتحي سعيد « بدلا من الكذب » ديوان لمحمد السمسية «زجل» لحسين طنطاوي « الاصبع والزناد » مجموعة قصص لمحمد كمال « دراسات في الحب » ليوسف الشاروني « بلا نهاية » مجموعة قصص لفتحي الابياري «عندما نحب » ديوان لمحمد الجيار «موعد مع الفجر » ديوان لعبد القادر حميدة » دراسات في الادب المعاصر »لفاروق متيب«المحاولة الاولى» قصة لعفاف العروسي «محمد رسول الله» لاحمد تيمور «مقالات في النقد الادبي » للدكتور محمد مصطفى هدارة ، « الطوفان والمدينة السمراء » «ديوان» لكامل ايوب رفاعة الطهطاوي «محمد تيمور : حياته وادبه » لعباس خضر .

* فقدت دمشق ابنها البار المجاهد الوطني الكبير فخري البارودي وهو نائب سابق عن مدينة دمشق ، عمل في خدمة القضايا العربية في سورية خلال الاحتلال الفرنسي لها ، وكان من رجال الثورة . كانت داره منتدى لاهل الفن والادب والسياسة ، لم تذكر دمشق الا ويذكر فخري البارودي وداره ومجالسه . وكان الفقيد يملك نادرة عن الموسيقى الشرقية اهداها قبل وفاته بقليل الى المجمع العلمي العربي بدمشق .

* اقيم على مدرج جامعة دمشق حفلة لاحياء ذكرى فقيدة الادب ماري عجمي اشترك فيه الادباء سماد نصير ، فؤاد الشايب ، وداد السكاكيني ، الدكتور كاظم الدفستاني ، عفيفة صعب ، جان كميد، الاب مرقده ، رئيف خوري ، امين نخلة ، الدكتور جدعون ، محاسب عن آل الفقيدة .

* صدر عن مطبعة الوطن العربي بحلب رواية «المحمومون» تاليف محمد الرائد وتقع في 320 صفحة من الحجم الكبير .

* المؤتمر العالمي للآثار سينعقد بدمشق في سنة 1968 .

✻ «ثورة المعتزل» كتاب جديد لغالي شكري عن توفيق الحكيم صدرت بعض الاجزاء منه في مجلة « دراسات عربية » .

✻ «وداعا يا دمشق» مجموعة قصص للسيدة الفة الادلبي صدرت اخيرا بدمشق.

✻ وافقت لجنة القراءة في « الكوميدي فرنسيز بالاجماع على قبول مسرحية الشاعر والكاتب المسرحي اللبناني جورج شحاده «مهاجر بريبان » وهي تقع في 9 فصول . وهذه المسرحية مثلت لاول مرة في ميونيخ سنة 1965 على مسرح «ريزيدانت» باللغة الالمانية وقد ترجمها ايفسون وهربر ميير . والفرنسيون يعرفون جيدا الشاعر اللبناني جورج شحاده بعد ان قدمت مؤسسة مادلين رينو وجان لويس بارو مسرحيات «حكاية فاسكو » « والسفر » و « شهرة الامثال » على مسرحي سارة برنارد الاوديون . ويعد من كبار شعراء فرنسا وهو مقيم في بيروت .

✻ صدرت عن دار الادب في بيروت مجموعة شعرية للشاعرة فدوى طوقان بعنوان «الباب المغلق» كما صدر عن نفس الدار « ديوان ابراهيم» وهو الديوان المفقود للشاعر الفلسطيني الراحل ابراهيم طوقان .

✻ «زورق من دم » مجموعة قصص صدرت في بيروت للكاتب الفلسطيني يوسف شرور وتعالج هذه المجموعة غربة الفلسطيني التي يعانيها في شتى انحاء العالم .

✻ رفع نجيب محفوظ دعوى ضد احدى دور النشر بلبنان ، لانها نشرت روايته « الشحاذ » من غير اذن .

✻ نعت الهيئة العربية العليا لفلسطين المجاهد الحاج خالد الفرخ الذي توفي في بيروت والفقيد افنى زهرة شبابه من اجل وطنه ، وتحمل في هذا السبيل النفي والسجن والاضطهاد بصبر وجلد قل نظيرهما .

✻ ينتظر ان يصدر ثلاثة من الخبراء المعماريين حكمهم في مسابقة عالمية لوضع مخططات جديدة لبناء مسجد في وسط لندن . وهكذا قد يتم اخيرا بناء مسجد وسط لندن بعد ان بدا التفكير في سنة 1944 عندما وهب الملك جورج السادس قطعة ارض لهذه الغاية في ريجنت بارك مقابل الارض التي تقوم عليها الان الكتدرائية الانجليكانية في القاهرة وينتظر ان يفتح للمصلين في غضون سنتين او ثلاث سنوات.

✻ توفي في لبنان الاديب المفكر الاستاذ لبيب الرياشي عن 75 سنة قضى في لبنان حتى الثلاثين طالبا ومعلما ، ثم هاجر الى الارجنتين حيث امضى 20 سنة في مزاولة الصحافة فحرر في « الجريدة» السورية اللبنانية و«مجلة العرب » ثم استقل بجريدة خاصة باسم « القرن العشرين » وعندما عاد الى لبنان استقل في دوق مكايل بجوار جونيه يؤلف الكتب ، ويحبر المقالات ، ويعلم في عدد من المدارس الى ان اقعده عجز الشيخوخة منذ 5 سنوات من مؤلفاته المطبوعة « فلسفة الدين الاسلامي » «والجبابرة» « والنبوغ » والتعليم المغناطيسي .

✻ في النادي الثقافي العربي ببيروت القيت في الشهر الماضي المحاضرات التالية : «العرب بعد 50 سنة » ليوسف ابراهيم يزبك «صراعنا مع اسرائيل في آسيا وافريقيا » للدكتور منذر عنتباوي «قرآءات من شعر المقاومة الفلسطينية في الارض المحتلة » لغسان كنفاني « ضغط السكان في البلدان العربية » للدكتور عصام عاشور .

✻ «مقالة في العقل والنفس والروح » كتاب جديد تاليف ندرة اليازجي صدر في دمشق عن دار اليقظة العربية ويقع في 122 صفحة .

✻ صدر في دمشق كتاب « الفن والادب » للويس هورتيك ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم الاستاذ بكلية الاداب قسم اللغة الفرنسية بجامعة دمشق .

✻ اصدرت دار اليقظة بدمشق كتاب «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » للامير عبد القادر الجزائري وقد حققه له الدكتور ممدوح حقي . كما صدر عن الدار كتاب « نقد العقل العملي» للفيلسوف الالماني « عمانويل كانت » ترجمة احمد الشيباني .

* اصدرت مديرية الفنون ببغداد كتاب « الصناعات والحرف البغدادية » للشيخ جلال الحنفي ويقع فى 235 صفحة .

* «دراسات فى علم النفس» لرحام الكيال صدر فى بغداد ويقع فى 150 صفحة من الحجم الكبير .

* افتتح فى معرض الواسطي ببغداد معرض الفنان سلمان البصري وقد ضم 27 لوحة زيتية .

* صدر فى بغداد كتاب «الوطن العربي ، دراسة مركزة لتطوراته السياسية الحديثة» للدكتور حسن العطار ويقع فى 336 صفحة من الحجم الكبير .

* « لن ترانى الضفاف » ديوان الشهيد متني حمدان العزاوي يصدر قريبا فى بغداد ويشرف على طبعة جليل العطيه .

* صدر فى النجف بالعراق كتاب « مناقشات مع الدكتور مصطفى جواد » بحوث علمية فى ابواب متنوعة من علوم اللغة العربية و«شرح مفصل لاملاء السيوطي» لرؤوف جمال الدين ويقع فى 182 صفحة من الحجم الكبير .

* وضع الدكتور جلال الخياط رسالة عنوانها «تطور الشعر العراقي الحديث فى القرن التاسع والعشرين » وهي الرسالة التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة كمبردج .

* اسس عبد الله خياط رئيس تحرير جريدة «عكاظ» اول دار للنشر فى السعودية تحت اسم «الدار السعودية للنشر » .

* تدرس وزارة الزراعة فى السعودية مشروعا يقضي بانشاء مدرسة زراعية ثانوية وقد تكون مدينة الخرج مركزا لهذه المدرسة النموذجية .

* الاحصاءات التربوية للعام الدراسي 1964 ــ 1965 » كتاب صدر عن وزارة التربية والتعليم الاردنية عن قسم الاحصاء ويقع فى 232 صفحة من الحجم الموسوعي .

* اخرج مسرح الحجرة فى براغ مسرحية الكاتب الاشتراكي راي لولو باسم «صيف العروسة السابعة عشر » وهي دراسة اجتماعية ونقدية لحياة الناس البسطاء ــ والمسرحية واخراجها يبرزان حب الناس البسطاء الكامن للحياة ، وكذلك ايمانها بهؤلاء الناس ، وقد قابل جمهور براغ المسرحية بالترحيب ــ وفى المسرح الواقعي قدمت الكوميديا الانجليزية : نهاية الصورة ليترا وستنوف وقد برز من الممثلين لفتر تاوب الذي مثل دور البطل وهو فى سن الثمانين .

* بلغ عدد مرات تقديم مسرحية هاملت فى المسرح الوطني فى براغ خلال السنوات الست الماضية 174 حفلة .

* فى خلال العام الحالي ستصدر دار النشر تشكوسلوكنكي سبيسوفاتل 170 كتابا فى اكثر من ثلاث ملايين نسخة . ومن بينها 50 كتابا من النثر « روايات وقصص ومقالات ادبية » و10 كتب من الشعر ومن بين الكتب التي ستنشر هذا العام كتاب لايرينا دوبسكا « السنة الامريكية » عن عن انطباعاتها خلال رحلتها الى الولايات المتحدة الامريكية . وهي اقرب الملاحظات والنقد منها الى الانطباعات التي اعتدنا قراءتها للسياح . كذلك سيصدر كتاب لرادوسلاف سلوفسكي تحت عنوان « الانسان ووقت الفراغ »

* قدم المسرح القومي فى موسم 1965 ــ 1966 سبع مسرحيات هي : «موتى بلا قبور» لسارتر و«لكل حقيقة» للويجي بيراندلو» و«طرطوف» لموليير و «تلميذ الشيطان» لبرناردشو» و «البيت الصاخب» لوليد مدفعي «المتنافسون» لاحمد قنوع و«ازمة عصبية» لعبد اللطيف فتحي قامت فرقة المسرح باول رحلة لها خارج البلاد فقدمت مسرحية « طرطوف » فى بيروت مدة اسبوع كامل بنجاح شهدت له الصحافة اللبنانية ونالت الفرقة تهنئة الحكومة السورية . كما قامت الفرقة بتقديم تمثيليات فى بعض المحافظات . امتد الموسم 7 اشهر زاد عدد المتفرجين اكثر من 3 امثال ما كان عليه فى الموسم الماضي ، وزادت مبيعات شباك التذاكر اكثر من 5 امثال ما كانت عليه .

* شرع معهد الادب الروسي بطبع المجموعة الكاملة لمؤلفات دستويفسكي البالغة 30 جزءا . وتضم هذه الطبعة التي ستتم خلال سبع سنوات كل ما كتبه دستويفسكي اعتبارا من رواياته و «مذكرات كاتب» وتعتبر هذه الطبعة اول طبعة كاملة من مؤلفات الكاتب العبقري .

* يستخلص من الكتاب السنوي للامم المتحدة سنة 1965 ان مجموع سكان العالم يزيد على 32000 مليون نسمة ، وان هذا المجموع اخذ بالازدياد بمعدل سريع . وقال الاحصاء ان المعدل السنوي لزيادة السكان بين سنتي 60 و64 كان 8 بالمائة ، اي زيادة عشر واحد بالمائة على السنوات الاربع التابعة . ويبلغ عدد سكان الصين 690 مليون نسمة على الاقل . وتاتي بعده الهند 471 مليون نسمة ، ثم الاتحاد السوفييتي 227 مليون والولايات المتحدة 192 مليون ويبلغ عدد سكان آسيا 1783 مليون نسمة ، وافريقيا 203 ملايين، وامريكا الشمالية 211 مليون ، وامريكا اللاتينية 237 مليون واوربا 441 مليون نسمة .

* نشرت الامم المتحدة التقويم السنوي للاحصاءات سنة 1965 ويؤخذ منه ان كمية الصحف فى انجلترا فى آخر سنة 1964 تدل ان كل الف من السكان يقراون 523 نسخة من الصحف ، وفى السويد 505 نسخ لكل الف من السكان ، وفى اليابان 339 لكل الف ، وفى ايسلاندا 434 لكل الف وفى اللكسمبورغ 425 لكل الف ، وفى نيوزيلاندة 399 لكل الف ، وفى النرويج 387 لكل الف ، وفى سويسرا 835 لكل الف ، وفى النمسا 348 لكل الف ، وفى الدنمارك 344 لكل الف ، وفى المانيا الغربية 323 لكل الف ، وفى الولايات المتحدة 314 لكل الف ، وفى فرنسا 245 لكل الف .

وقد نشر الاتحاد السوفياتي فى سنة 1964 من الكتب 204 78 منها : 765 8 فى الادب و3 499 كتابا فى العلوم . اما الولايات المتحدة فقد نشرت فى نفس السنة 451 28 كتابا ونشرت فرنسا 579 13 كتابا ، والكتب الفلسفية وفلسفة علم النفس والكتب الدينية كانت فى الولايات المتحدة اكثر منها فى اي بلد آخر .

وكان الاتحاد السوفياتي فى مقدمة الدول التي نشرت فيها الكتب المترجمة عن لغات اجنبية ، فقد نشرت فيها من الكتب المترجمة 336 4 كتابا وهذه الكتب مترجمة عن الانجليزية وهي اكبر نسبة 37٪ من المترجمات كانت بالانجليزية ثم الكتب باللغات الروسية 14٪ والكتب الالمانية 95 فى المائة.

* تاسس اخيرا ببيرو بامريكا الجنوبية «معهد بيرو» للدراسات الاسلامية العليا تحت اشراف الاستاذ رفائيل كيفارا .

وينصب اهتمام هذا المعهد بصفة خاصة على احوال المغرب من الجانب الثقافي خلال القرنين 19 — 20

كما يهتم باعطاء محاضرات ونشرات عن المغرب خلال هذه الفترة ، ولكن تعوزه الوثائق والمستندات وهو يرجو ان تزوده وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بجميع ما يتعلق بالمطبوعات التي انجزتها .

* اهدى الاستاذ «عبد الهادي التازي» سفيرنا السابق فى بغداد لوزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية شريطا كاملا لمخطوط كتاب «التمهيد لما فى الموطأ من المعاني والاسانيد» لمؤلفه الامام الحافظ عمر ابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة 463 هـ وقد كان عثر على ذلك الكتاب بالخزانة القادرية العامة ببغداد وقد طلب الينا ان نهدي الشكر للاشراف القادريين هناك وخاصة السيد بن يوسف وبرهان الدين كما طلب الينا ان نشيد بمساعدة الامانة العامة للمجمع العلمي العراقي التي كانت لا تدخر وسعا فى ارضاء رغباته .

